

ميخائيل ليرمنتوف

بطلٌ من هذا الزمان

ترجمة

د. سامي الدروبي

ميخائيل ليرمونتوف

بطل من هذا الزمان

ترجمة: د.سامي الدروبي



ميخائيل ليرمونتوف

بطل من هذا الزمان

الكتاب

بطل من هذا الزمان

المؤلف

ميخائيل ليرمونتوف

المترجم:

د. سامي الدروبي

الطبعة

الأولى، 2011

عدد الصفحات: 240

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN 978-9953-68-497-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 ـ 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

المقدمة، في كل كتاب، هي أول شيء وآخر شيء؛ تهدف إما إلى شرح غاية الكتاب، وإما إلى تبريره والرد على ما عسى أن يُوجَّه إليه من نقد. ولكن القارىء لا يُعنى، لا بالهدف الأخلاقي، ولا بهجمات المجلات؛ وهو لذلك لا يقرأ المقدمات. ومن المؤسف أن يكون الأمر كذلك، ولا سيما في بلادنا التي لا يزال جمهورها جديداً بسيطاً لا يفهم الحكايات، ما لم يجد فيها، آخر الأمر، عِظة أخلاقية. فهو لا يكتشف المزاح، في مجتمع راق وكتاب جيد، وأن المدنية الحديثة قد ابتدعت سلاحاً أمضى، ولكنه قاتل، يسدد، تحت ستار من التملق، ضربات صائبة لا سبيل إلى تفاديها. إن جمهورنا أشبه بريفي سمع حديث رجلين من رجال الدبلوماسية يمثلان بلاطين متعاديين، فاعتقد أن كلاً منهما يخون حكومته، ما دامت تقوم بينهما إلى الآن صداقة رقيقة.

لقد شقي هذا الكتاب، مؤخراً بذلك النوع من التصديق الساذج لدى بعض القراء، بل ولدى المجلات التي تفهم الأمور فهماً حرفياً. فاستاء بعضهم استياء فظيعاً لا مزيد بعده لمستزيد، من تصويرنا نموذجاً يبلغ من الابتعاد عن الأخلاق ما بلغه «بطل من هذا الزمان»؛ وقال آخرون، في كثير من الرقة والرهافة، لا شك أن المؤلف قد رسم صورة نفسه، وصورة من يعرف من الناس... يا له من اتهام قديم تافه! إن كل شيء ليتجدد في روسيا، إلا هذه البلاهات. وما أعسر أن تنجو حكاية من الحكايات، مهما تغرق

في الخيال، من اتهامها بأنها أرادت أن تسيء إلى شخص بعينه.

أيها القراء الأعزة إن «بطل من هذا الزمان» لهو صورة حقاً، ولكنه ليس صورة رجل واحد. إنه صورة تضم رذائل جيلنا كله، وقد بلغت كمال التفتح. قد تقولون لي مرة أخرى: ما من إنسان يمكن أن يبلغ هذا المبلغ من الفساد. وجوابي: ترى لماذا تصدقون وجود جميع فجرة المآسي والروايات الرومنسية، ثم لا تصدقون بأن شخصاً مثل بتشورين يمكن أن يكون مستمداً الواقع؟ وكيف تطيب لكم أخيلة أفظع وأرهب، ثم لا تلقى منكم صورة هذا الشخص، حتى ولو كانت خيالاً، قبولاً ورضى؟ ترى ألا يرجع ذلك إلى أن هذه الصورة أصدق مما تحبون؟...

ورُبَ قائل منكم يقول: إن الأخلاق لا تجني من ذلك خيراً؛ فعلى رَسلكم. لقد طالما غُذِّيَ الناس بالحلوى حتى فسدت معدهم. وينبغي أن يتناولوا الآن عقاقير مُرَّة وحقائق لاذعة. ولا تظنوا مع ذلك أن مؤلف هذا الكتاب قد دار في خلده يوماً ذلك الحلم الدعي، وهو أن يقيم نفسه وصياً على الناس يصلح ما فسد من أخلاقهم. وقانا الله شر الادعاء العريض. وإنما أحببت على سبيل التفكه أن أصور إنسان هذا العصر، كما فهمته، وكما اتفق لي أن لقيته في كثير جداً من الأحيان، لسوء طالعي ولسوء طالعكم. وحسبي أن أشير إلى الداء أما وسائل البرء فعلمها عند الله.

الفصل الأول

1

بيلا

غادرت تفليس على عربة من عربات البريد. وكان متاعي كله حقيبة صغيرة تحتل نصفها مذكراتي عن رحلتي في جورجيا. ومن حُسن حظك أيها القارىء الصديق أن معظم تلك المذكرات قد ضاع، ولكن من حُسن حظي أنني احتفظت بالحقيبة مع أشيائي الأخرى.

كانت الشمس قد بدأت تغيب وراء سلسلة من الذرى التي يكسوها الثلج، حين دخلت وادي كويشاؤوري. وكان سائق العربة، وهو رجل أوسيتي، يستحث الخيل في كل لحظة، رجاة أن يصل إلى قمة جبل كويشاؤوري قبل الليل، وكان يغني ملء حنجرته. إن هذا الوادي لمكان رائع حقاً: فأينما تتجه ببصرك ترى جبالاً منيعة؛ والصخور الضاربة إلى الحمرة يتشبث بها اللبلاب وتتوجها مجموعات من أشجار الدلب؛ ومنحدرات وعرة صفراء تخددها مجاري السيول. فإذا نظرت إلى أعلى رأيت أهداب الثلوج تسطع بلون الذهب. وإذا نقلت بصرك إلى تحت رأيت نهر آراغفا، اتحدت مياهه بمياه نهر آخر لا إسم له، يتدفق صاخباً من مضيق أسود حافل بالضباب، ثم يمتد كخيط من الفضة طويل، ويسطع كحية في الشمس.

فلما وصلنا إلى سفح جبل كويشاؤوري توقفنا على مقربة من دكان[1]، وكان هنالك نحو عشرين جورجياً وجبلياً في جلبة ولغط. وكانت هنالك قافلة من الجِمال وقفت غير بعيد من ذلك المكان لقضاء الليل. وكان عليّ أن أكتري ثيراناً تجرّ عربتي على هذا الجبل الخطر، فلقد كان الوقت خريفاً والجليد يغشى الجبال. وكان عليّ أن أجتاز ما يقرب من فرستين[2].

استأجرت ستة بقرات، وبضعة رجال من أهل البلد، حمل أحدهم حقيبتي على كتفيه، وراح الآخرون يساعدون في سير العربة، ولكن مساعدتهم هذه كادت تكون بالصراخ في الدواب فحسب.

ورأيت وراء عربتي أربع بقرات تجر عربة أخرى بلا جهد ظاهر، مع أن العربة تعج بأحمال كثيرة. فأدهشني ذلك. وكان يتبعها رجل يدخن غليوناً صغيراً من كاباردا مزيناً بالفضة. كان الرجل يرتدي لباس ضابط بلا شارات على الكتفين، وعلى رأسه قلبق شركسي. وكان وجهه يدل على أنه في نحو الخمسين من عمره. وكانت بشرته السمراء تدل على أن شمس القفقاس قد لفحته مدة طويلة، وكان شارباه اللذان ابيضَّا من الشيب قبل الأوان لا يتناسبان مع خطواته القوية وملامحه الحازمة. فاقتربت منه وانحنيت له، فرد على تحيتي صامتاً، وسحب من غليونه نفساً كبيراً. قلت له:

ـ أظن أننا نسير في طريق واحدة؟

فانحنى مرة ثانية، صامتاً أيضاً، فاستأنفت أسأله:

ـ لعلك ذاهب إلى ستافروبول؟

ـ هو كما تقول. . . وأحمل هذه الأشياء كلها إلى الإدارة.

ـ هل لك أن تُفهمني، من فضلك، كيف تستطيع هذه الأبقار الأربعة أن تجر عربتك الثقيلة، بمثل هذه السهولة، في حين لا تكاد تقدر ثيراني الستة التي يعاونها جميع هؤلاء الأوسيتيين أن تجر عربتي مع أنها فارغة؟

فابتسم ابتسامة ماكرة. وقال وهو ينظر إليّ نظرة معبِّرة:

ـ أراهن على أنك لا تقيم في القفقاس إلا منذ مدة قصيرة.

قلت:

ـ منذ سنة.

فابتسم مرة أخرى.

قلت: لماذا لا تجيب؟

ـ اسمع. إن هؤلاء الآسيويين خبثاء! أتظن أن صراخهم هذا يفيد؟ حاول أن تفهم هذا الكلام الذي يجأرون به! إن ثيرانهم وحدها تستطيع أن تفهمه. لو كدنت عشرين ثوراً، فلن تتحرك الثيران، متى أخذوا يصيحون هذا الصياح الذي يعرفونه. . . إنهم ماكرون رهيبون! وماذا يمكن أن نأمل منهم؟ إنهم يحبون أن يبتزوا من المسافر مالاً. . . لقد أسرفنا في تدليل هؤلاء اللصوص! سترى أنهم سيطلبون إليك فوق أجرتهم عطاء. ولكني أعرفهم، ولا أدع لهم أن يخدعوني!

ـ أأنت تخدم هنا منذ مدة طويلة؟ فأجاب وهو ينتصب:

ـ نعم لقد خدمت منذ أيام ألكسي بتروفتش[3]. كنت ملازماً حين وصل إلي الجبهة. وقد رُفّعت مرتين أثناء مقاتلتي سكان الجبال بقيادته.

ـ والآن، أنت؟...

ـ أنا الآن أنتمي إلى الكتيبة الثالثة من الجبهة. وأنت؟ هل يحق أن أسألك من أنت؟

فقلت له من أنا. ووقف الحديث عند هذا الحد، وواصلنا السير صامتين جنباً إلى جنب. وفي قمة الجبل وجدنا ثلوجاً. كانت الشمس قد غابت، وأعقب الليلُ النهارَ فوراً على ما هو مألوف في الجنوب. ولكن كان يسهل علينا، من التماع الثلج، أن نميز الطريق الصاعدة، ولو ببطء. وأمرت بوضع الحقيبة في العربة، وأبدلت الثيران خيلاً، وغرق بصري مرة أخيرة في الوادي. إلا أن ضباباً كثيفاً كان يتصاعد من فجاج الجبل، ويغطي الوادي بسحب يتلو بعضها بعضاً، وما كان يرقى إلينا أي صوت من تحت. وأحاط بي الأوسيتيون صاخبين يطلبون عطاء. ولكن الضابط أومأ إليهم بقسوة، فغابوا بلمحة عين. قال صاحبي:

ـ يا لهؤلاء الناس! إنهم لا يعرفون كيف يسمون الخبز بالروسية، ولكنهم تعلموا أن يسألوك بالروسية: «سيدي الضابط، هل لي منك بعطاء». إني لأوثر عليهم رجال التتر، فالتتر لا يشربون الخمرة، في أقل تقدير...

وكان علينا أن نقطع فرستا قبل أن نصل إلى المحطة التالية. كان كل شيء من حولنا ساكناً هادئاً، حتى ليستطيع المرء أن يتابع طيران الذبابة من سماع دندنتها. وكان على شمالنا فج عميق بشكل ثغرة كبيرة سوداء، وراءه وأمامنا ذرى الجبال، وقد خددتها الغضون وغشيتها الثلوج، تبدو بلون أزرق قاتم، وتنتصب في الأفق الشاحب الذي كان لا يزال يحتفظ بشيء من التماعات الشفق. وكانت

النجوم تشتعل في السماء القاتمة نجمة نجمة، ومن الغريب أنها لاحت لي أعلى مما نراها في بلادنا بالشمال. وعلى حافتَيْ الطريق، تقوم الصخور سوداء عارية. وهذي شجيرات تبرز هنا وهناك من تحت الثلج، ولكن ما من ورقة جافة تتحرك؛ كان يحلو لنا، في صمت الموت هذا الذي يرين على الطبيعة، أن نسمع شخير أفراسنا الثلاث المكدودة، ورنين الأجراس الروسية تجلجل. قلت:

ـ سيكون الجو جميلاً في الغد!

فكان جواب الضابط أن أومأ بإصبعه إلى جبل عال كان ينتصب أمامنا. قلت:

ـ ما هذا الجبل؟

ـ إنه جبل الجود.

ـ وماذا تريد أن تقول؟

ـ أنظر كيف يتصاعد منه الدخان!

حقاً، لقد كانت تتصاعد من جنباته سحائب خفيفة من البخار، وكانت تمتد على ذروته غيمة سوداء، كأنها من سوادها بقعة في السماء القاتمة.

وأمسينا نميز المحطة، ونرى سقوف الأكواخ التي تحف بها، وتتراءى لنا الأضواء المتراقصة، حين أخذت تهب ريح رطبة باردة، وحين أخذ الفج يئن، وراح يهطل رذاذ من المطر. فما أن وضعت معطفي على كتفيّ حتى طفق الثلج يهطل سبائخ كبيرة. ونظرت إلى الضابط الرئيس ممتثلاً، فقال في مضض:

ـ سنضطر إلي التلبث هنا طوال الليل، فمن المستحيل أن نجتاز الجبال في جو كهذا.

ثم التفت إلى السائق يسأله:

ـ قل لي، أيها الصديق، هل يتهافت الثلج من جبل كرستوفايا؟

فأجابه الأوسيتي بقوله:

ـ لم يتهافت بعد يا سيدي، ولكنه يوشك، يوشك.

ولما لم تكن في المحطة غرف للمسافرين، اقتادونا إلى كوخ مدخن نقضي فيه الليل. ودعوت رفيق الطريق إلى احتساء قدح من الشاي معي، فقد كنت أملك غلاّية من المعدن، وهي سلواي الوحيدة في أسفاري عبر القفقاس.

كان الكوخ ملتصقاً بالصخرة من أحد جوانبه، وكانت هناك ثلاث درجات رطبة منزلقة تؤدي إلى الباب. فدخلت متلمساً، واصطدمت ببقرة. (إن الزريبة تقوم لدى هؤلاء الناس مقام حجرة المدخل). ولم أعرف إلى أية ناحية أتجه، فها هنا خِراف تثغو، وها هنا كلب ينخر. ومن حُسن حظي أن ضوءاً كابياً في ركن من الأركان أتاح لي أن أكتشف فتحة أخرى تشبه باباً، فدخلت، فإذا أنا أمام لوحة شائقة: إن الكوخ الواسع الذي يسند سقفه عمودان اسودّا من الدخان، كان يعج بالناس. وفي وسطه تلتمع نار أوقدت على الأرض، والدخان الذي تصدره ريح آتية من فتحة السقف، ينتشر كأنه غطاء كثيف، حتى لقد ظللت مدة طويلة لا أميز شيئاً. كانت هناك امرأتان عجوزان، وأطفال كثيرون، وجورجي نحيل، وكانت تغطيهم جميعاً أسمال بالية، وقد تحلقوا حول النار يستدفئون. ولم يبق علينا، نحن أيضاً، إلا أن نجلس على مقربة من النار، وأن نشعل غليونَيْنا.

وما هي إلا لحظة حتى أخذت الغلاية تغني غناء حبيباً إلى القلب.

قلت للرئيس، وأنا أشير إلى هذه المخلوقات القذرة التي كانت تنظر إلينا صامتة بنوع من الحيرة:

ـ مساكين هؤلاء الناس.

ـ إنهم أغبياء. هل تصدق ذلك؟ إنهم لا يجيدون أي عمل، يعجزون عن تعلُّم أي شيء. إن جماعتنا الكاباردين والتشتشينين، على أنهم من الصعاليك وقُطّاع الطرق، يمتازون بحرارة الدم في أقل تقدير. أما هؤلاء فلا يميلون حتى إلى السلاح أي مَيْل. وما من واحد منهم يملك خنجراً مناسباً! إنهم أوسيتيون وكفى!

ـ وهل عشت في تشتشينيا مدة طويلة؟

ـ نعم، لقد ظللت مع سريتي عشر سنوات، بقلعة كامني برود. هل تعرفها؟

ـ سمعت عنها.

ـ يا ويلنا مما لقينا من هؤلاء الناس أيها السيد! الحمد لله على أنهم هدأوا الآن بعض الهدوء. أما في ذلك الوقت فكان يكفي أن تخرج عن المتاريس مسافة مائة خطوة حتى تكون على يقين من أن شيطاناً رجيماً يتربص بك، فإذا ذهلت لحظة واحدة وجدت نفسك وقد تلقفك حبل ينزلق على عنقك أو تصيبك رصاصة في نقرتك! يا لخشونتهم وقوة بأسهم!

قلت له، يدفعني حب الاستطلاع:

ـ لا شك أن مغامرات كثيرة وقعت لك.

ـ مغامرات؟... هه!...

قال هذا، وأخذ يفتل شاربه الأيسر، مطرقاً حالماً. واستبدت بي رغبة جامحة في استدراجه إلى سرد قصة من القصص، وهي رغبة طبيعية لدى جميع الذين يقومون برحلات ويسجلون ملاحظات. وغلى الماء أثناء ذلك، فتناولت من حقيبتي قدحين

ملأتهما شاياً، ووضعت أحدهما أمام صاحبي. فجرع جرعة، ثم قال كمن يحدِّث نفسه:

ـ طبعاً وقعت لي مغامرات!...

وملأتني هذه الكلمات أملاً. كنت أعرف أن القفقاسيين الأقدمين يحبون أن يتكلموا وأن يقصُّوا، فذلك لا يتاح لهم إلا قليلاً: حتى لقد يقضي بعضهم مع سريته في ركن مجهول من الأرض خمس سنين طوال، ثم لا يسمع خلال هذه السنين الخمس كلمة «صباح الخير» (لأن الضابط لا يحييهم إلا بالصيغة الرسمية). ومع ذلك فما أكثر الأشياء التي يمكن أن يتحدثوا عنها: إنهم محاطون بأناس همج يحلو للمرء أن يدرسهم؛ والخطر يحف بهم في كل يوم؛ وقد تقع أغرب الحالات، ومن المؤسف حقاً أنهم قلّما يسجلون.

قلت لصاحبي:

ـ هل لك بقليل من خمرة الروم تضيفها إلى الشاي؟ إن لديّ روما أبيض، من تفليس... وهذا مساء بارد.

ـ كلا، فأنا لا أشرب. شكراً.

ـ لماذا لا تشرب؟

ـ لأنني حلفت لن أشرب. ففي ذات مرة، وقد شربنا قليلاً ـ كنت يومئذ ملازماً ثانياً ـ انطلقت إشارة الخطر في الليل، فمضينا إلى مقدمة جنودنا نترنح قليلاً. آه ما كان أشد حنق ألكسي بتروفتش حين بلغه الأمر! لقد غضب يومئذ غضباً شديداً، وكاد يقدمنا للمحاكمة أمام مجلس حربي. ثم إنه ليتفق أن يبقى المرء سنة كاملة لا يرى خلالها أحداً من الناس، فإذا أخذ يشرب فقد أضاع نفسه... هذا أمر لا مراء فيه.

فلما نطق بهذه الكلمات أوشكت أن أفقد كل أمل، ولكنه استأنف كلامه يقول:

ـ من ذلك أن الشراكسة إذا شربوا البوزا[4] في احتفال من احتفالات الأعراس أو الدفن، انتهى ذلك دائماً بطعان. وفي ذات مرة، لم أستطع أن أنجو إلاّ بكثير من العناء، رغم أنني كنت في ضيافة أمير موال.

ـ قصّ عليّ ما وقع.

ـ إليك ما وقع (وهنا حشا غليونه ونشق منه نفساً كبيراً وبدأ يتحدث): منذ ما يقرب من خمس سنين، كنت مع سريتي في قلعة وراء التيريك. وفي ذات يوم من أيام الخريف وصلت إلينا شحنة من المؤن مع ضابط في نحو الخامسة والعشرين من عمره، قدم إليّ نفسه بكامل ملابسه الرسمية، وصرّح أنه أرسل إلى هذه القلعة ليعمل بأمرتي. كان الرجل شديد النحول، شديد الشحوب، وكان جاكيته جديداً بحيث أدركت فوراً أنه حديث العهد بالقفقاس. فقلت له «لعلك قادم من روسيا؟»، قال: «نعم سيدي الرئيس»، قلت وأنا أصافحه: «يسعدنا أن تكون بيننا. سيتنابك الملل قليلاً. . . غير أننا سنكون أصدقاء، سترى ذلك. وأرجوك أن تخاطبني باسمي على غير كلفة، اسمي مكسيم مكسيمتش، ودع عنك هذا اللباس الرسمي، وتعال إليّ دائماً بقبعة عادية». ثم أمرت له ببيت، وأقام في القلعة.

ـ وماذا كان اسمه؟

ـ كان إسمه جريجوري ألكسندروفتش **بتشورين**. أجرؤ أن أقول إنه فتى طيب، ولكنه عجيب بعض الشيء. كان يتفق لنا أن

ننفق يوماً بكامله في الصيد، تحت وابل من المطر المنهمر في البرد القارص، فكان كل واحد يرتجف، وقد هدَّنا التعب، إلاّ هو. وفي أحيان أخرى كان يشكو، وهو في غرفته، من قرّ الريح، ويؤكد أنه أصيب منه بزكام. إذا قرقع الباب، ارتعش وامتقع لونه من الخوف، وفي ذات مرة رأيته يصطاد خنزيراً برياً وحده. وكثيراً ما يصمت ساعات طوالاً لا تستطيع خلالها أن تنتزع منه كلمة واحدة، حتى إذا أخذ يتحدث، ضحكت ثم ضحكت حتى أغرقت في الضحك. نعم، لقد كان مليئاً بالغرائب، ولا شك أنه كان غنياً، لأنه كان يملك أشياء ثمينة كثيرة.

ـ وهل عاش بينكم مدة طويلة؟

ـ سنة كاملة. سنة سأذكرها ما حييت. لشد ما أحدث لي من قلق، عفا الله عنه. هناك أناس كتب عليهم أن تقع لهم مغامرات خارقة!

هتفت وقد ظهر عليّ الاهتمام، ورحت أملأ قدح صاحبي:

ـ خارقة؟

ـ اسمع واحكم بنفسك. كان يقطن، على بُعد ستة فرستات من القلعة، أمير انعقدت بيني وبينه أواصر الصداقة. وقد تعوَّد ابنه، وهو صبي في الخامسة عشرَة من عمره، أن يأتي إلى القلعة يزورنا، فكان يجيء كل يوم لأمر من الأمور. وكنا في الحق ندلله كثيراً أنا وبتشورين، وكان الصبيُّ عفريتا حقاً. يا لحيويته! كان يستطيع من على صهوة جواده الذي يعدو عدواً سريعاً أن يلتقط قبَّعة من الأرض، وأن يصوّب بندقيته إلى هدف فيصيبه. ولكن آفته الكبرى أنه يحب المال كثيراً. حتى لقد وعده بتشورين ذات يوم بدينار إذا

هو سرق له من قطيع أبيه أحسن تيس، فلما كان المساء من الغد دخل علينا يجر التيس من قرنيه. وكنا نحب في بعض الأحيان أن نناكده، فإذا بعينيه تحتقنان بالدم، وإذا هو يمد يده إلى خنجره على الفور. فكنت أقول له: «يا عزمت، لن تحمل رأسك على كتفيك طويلاً!... ولا بد أن تحل به يوماً كارثة!».

وفي ذات يوم وصل إلينا أبوه الأمير بنفسه، يدعونا إلى حفلة زواج ابنته الكبرى. لقد كنا أصدقاء. فكان يستحيل أن نرفض الدعوة، رغم أن الرجل تتري. وسرنا إليه، فلما وصلنا، استقبلتنا الكلاب بنباح قوي، وأخذت النساء تخفي وجوهها إذ ترانا. واللواتي استطعنا أن نرى وجوههن لم يكن لهن خط من جمال. قال بتشورين: «كان ظني في الشركسيات أنهن أجمل من ذلك». فأجبته مبتسماً: «انتظر ولسوف ترى». كنت قد بيّتّ أمراً.

كان بيت الأمير يعج بالناس. فالشرقيون، كما تعلم، يدعون إلى حفلات الأعراس من هب ودب. واستقبلنا الناس في كثير من الاحترام، وقادونا إلى القاعة الكبرى. وحرصت على أن أعرف أين يضعون خيلنا، فليس يدري أحد ما الذي يمكن أن يقع!

- وكيف يُحتفل عندهم بالأعراس؟

الأمر بسيط! يقرأ «الملاّ» آيات من القرآن قبل كل شيء. ثم تقدم الهدايا للعروسين وأقربائهما جميعاً. ثم يأكل الناس ويشربون البوزا. وبعد ذلك يبدأ استعراض ألعاب الفرسان. ولا بد أن يؤتى بشخص قذر، يرتدي أسمالاً، فيمتطي حصاناً أعرج، ويقوم بحركات مضحكة، يسلي بها الناس! حتى إذا جاء المساء بدأ في القاعة شيء يشبه أن يكون حفلة رقص. فيأخذ عجوز فقير بالضرب

على الأوتار الثلاثة من آلة يسمونها... نسيت كيف يسمونها... إنها تشبه البالالايكا[5] عندنا، فينهض الشباب والصبايا يصطفون صفّيْن متقابلين، ويصفقون، ثم يتقدم إلى وسطهم فتاة وفتى، يتناشدان بصوت رتيب ما يخطر على بالهما من أبيات يرددها الناس بعدهما كأنهم جوقة. كنا جالسين أنا وبتشورين في صدر القاعة. وفجأة تقدمت نحوه صغرى بنات صاحب البيت (لا تكاد تبلغ السادسة عشرة من عمرها)، وغنته ـ كيف أقول؟ ـ نوعاً من المديح.

ـ ماذا قالت له على وجه الضبط؟ هل تتذكر؟

ـ قالت له، تقريباً: «فرساننا الشبان وسيمون وأثوابهم مطرّزة بالفضة ولكن الضابط الروسي الشاب أجمل منهم وأبهى بريمه من ذهب كأنه بينهم شجرة حور لكنه لن يكبر في بستاننا ولن يزهر». فنهض بتشورين، وحيّاها برفع يده إلى جبينه ثم إلى قلبه، ورجاني أن أترجم لها جوابه، لأنني أجيد لغتهم.

فلما ابتعدت همست في أذن بتشورين أسأله:

ـ كيف تراها؟

ـ فاتنة! ما اسمها؟

ـ اسمها بيلا.

كانت حقاً فاتنة: فارعة القوام، دقيقة الخصر، عيناها سوداوان كأنهما عينا غزال تنفذان إلى صميم القلب. ورأيت بتشورين يحلم، ولا يفارقها ببصره، وكانت هي أيضاً تختلس النظر إليه كثيراً. ولكنه لم يكن الشخص الوحيد المعجب بالأميرة الجميلة. فلقد كانت هنالك عينان أخريان تسددان إليها من أحد

أركان الغرفة نظرة ساكنة حارة. إنه كازبتش، أحد الذين أعرفهم منذ مدة طويلة. كان لا يمكن أن نعرف أهو خاضع أم متمرد؟ كانت تحوم حوله شبهات كثيرة، ولكنه لم يفاجأ مرة واحدة متلبساً بالجرم. وكان يقود إلى القلعة في بعض الأحيان شِياهاً نشتريها منه بسعر غير باهظ. ولكن المساومة معه كانت مستحيلة، فهو لا يخفض السعر الذي يطلبه مثقال ذرة... ولأن يموت خير عنده من النزول عن السعر الذي طلبه. قالوا إنه كثيراً ما كان يمضي مع الأبريكيين[6] إلى ما وراء الكوبان. والحق أن هيئته هيئة رجل من رجال العصابات: كان قصيراً، نحيلاً، معروق المنكبين. وكان كالشيطان خفة وسرعة حركة. وكنت لا ترى قميصه إلا ممزقاً مرقَّعاً، ولكن أسلحته كانت مرصعة بالفضة. وكانت ألسن جميع الناس في كاباردا تكيل المديح لحصانه. والحق أن من الصعب على المرء أن يتخيل حصاناً أجود من ذلك الحصان. كان جميع الفرسان يحسدونه عليه. وقد حاول بعضهم غير مرة أن يسرقه من دون أن يظفر بطائل. ما زلت أتخيل ذلك الحصان حتى لكأنني أراه. كان أسود فاحماً، وكانت عراقيبه دقيقة كأنها الحبال، وكانت عيناه لا تقلان جمالاً عن عيني بيلا. أما قوته فحدِّث عنها ولا حرج! كان يستطيع أن يعدو مسافة خمسين فرستاً بلا توقف. وكان مروّضاً مطواعاً يتبع صاحبه كالكلب، بل كان يعرف صاحبه من صوته. وكان كازبتش لا يربطه أبداً. كان الحصان يليق برجل من رجال العصابات...

لم أر كازبتش مكفهر الوجه كما رأيته في ذلك المساء. ولاحظت أنه يرتدي تحت قميصه زرداً. قلت في نفسي: «لأمر ما لبس كازبتش زرداً، فلا شك أنه يبيِّت أمراً».

كانت الحرارة خانقة في الكوخ. فخرجت أتنشق الهواء الرطب. وكان الليل قد خيّم على الجبال، وأخذ الضباب يغشى الفجاج.

وخطر ببالي أن أقترب من السقيفة، حيث رُبِطت خيولنا، لأطمئن إلى أنها تعتلف، ثم إن الحيطة واجبة... كان لي حصان جميل، رآه كثير من الكاباردييين، فهتفوا من العجب: «**ياكشي تخيه، تشيك ياكشي**»![7].

وسرت أحاذي السياج، فإذا أنا أسمع صوتين على حين غرة. كنت أعرف أحد هذين الصوتين معرفة تامة، إنه صوت ذلك المتسكع عزمت، ابن صاحب الدعوة، وكان الصوت الآخر لا يتكلم إلا قليلاً، وكان خافتاً. تساءلت: «ترى فيم يتحدثان؟ أَعَنْ حصاني مثلاً؟» ثم جثوت عند السياج، وأصخت بسمعي، أحاول أن لا تفوتني كلمة مما يقولان. ولكن ما يصل إليّ من البيت من غناء وجلبة وصخب كان يصمّني في بعض اللحظات عن سماع هذا الحديث الذي أحرص على سماعه كل الحرص.

قال عزمت:

ـ ما أجمل حصانك! لو كنت الآمر الناهي في هذا البيت، وكان لي ثلاثمائة فرس، لأعطيتك نصفها ثمناً لحصانك يا كازبتش!

«ها... إنه إذن كازبتش...» وتذكرت الزرد الذي يرتديه تحت القميص.

قال كازبتش بعد لحظة من صمت:

ـ ليس له في كاباردا كلها نظير... ذهبت ذات مرة مع الأبريكيين، وراء تيريك، نغزو الروس، ونسلب خيولهم، ولكن

الحظ لم يسعفنا، فتفرق شملنا، وراح يطاردني أربعة من القوزاق[8] كنت أسمع من ورائي صراخ الكفار وشتائمهم. وكانت أمامي غابة كثيفة. فانبطحت على سرجي، اتكلت على الله... لأول مرة في حياتي أسأت إلى حصاني إذ ضربته بالسوط... فراح يشق طريقه بين أوراق الشجر كالطير. كان الشوك يمزق ثيابي، وكانت أغصان الدردار اليابسة تضرب وجهي ضرباً شديداً. وحصاني يقفز فوق أرومات الأشجار المقطوعة، ويقتحم بصدره الأدغال اقتحاماً. كان من الأفضل أن أدعه عند طرف الغابة، وأن أمضي على قدمي أختبىء بين الأشجار، ولكن قلبي لم يقبل أن أنفصل عن الحصان، وجزاني النبي على ذلك خيراً... وأزّت رصاصات فوق رأسي، وكنت أسمع وقع أقدام القوزاق وقد ترجَّلوا يَعدون ورائي... ثم إذا بأخدود عميق يظهر أمامي على حين غرة، فتردد حصاني لحظة ثم وثب. ولكن رجليه انزلقتا على الحافة الثانية من الأخدود، فظل معلَّقاً بيديه. فتركت الزمام، وتدحرجت في الأخدود. واستطاع حصاني أن ينقذ نفسه، وأن يستأنف عَدْوه... ورأى القوزاق كل ما وقع، ولكن لم ينزل أحد منهم ليبحث عني، ولعلهم اعتقدوا أنني مت. وسمعتهم ينطلقون في ملاحقة حصاني كاراخيز. كان قلبي يدمى. وأخذت أزحف على الأعشاب الكثيفة في الأخدود. ثم نظرت فإذا هي نهاية الغابة. لقد انطلق عدد من القوزاق في السهل. وكان حصاني يعدو أمامهم، وهم يلاحقونه صارخين. وظلوا يطاردونه مدة طويلة طويلة، حتى أوشك أحدهم أن يقبض عليه بالحبل مرتين. كنت أرتعد فخفضت عينيّ، وأخذت أدعو. ثم نظرت بعد لحظة فإذا كاراخيز ينطلق سريعاً حراً كالريح، ناشراً

ذيله، والكَفَرة يتقاطرون في السهب على جيادهم التي أنهكها التعب فعجزت عن مواصلة العَدو. أقسم لك بالله إني أقول الحقيقة، الحقيقة صرفة بلا زيادة ولا نقصان! لقد بقيت في الأخدود حتى ساعة متأخرة من الليل. وفجأة ـ هل تصدق ذلك يا عزمت؟ ـ سمعت في الظلام وقع حوافر حصان يعدو على حافة الأخدود... إنه ينخر، ويصهل، ويضرب الأرض بسنابكه: عرفت صوت حصاني كاراخيز... إنه هو، رفيقي الأمين!... ومنذ ذلك الحين لم نفترق قطّ يوماً.

وسمعت كازبتش يربت على عنق حصانه الدقيقة، ويناديه بأرق الأسماء. قال عزمت:

ـ لو كنت أملك ألف فرس لبادلتك بها على كاراخيز.

فأجابه كازبتش بعدم اكتراث:

ـ وما كنت لأقبل.

قال عزمت وقد رق صوته:

ـ اسمع يا كازبتش، أنت رجل شهم، وفارس شجاع، في حين أن أبي يخاف من الروس، يمنعني من المضي إلى الجبال؛ أعطني حصانك أفعل لك ما تريد: أسرق لك من أبي بندقيته، وسيفه، وكل ما تشتهي... وأنت تعلم أن سيف أبي دمشقي أصلي، يكفي أن تلمس شفرته الجسم حتى تنفذ في اللحم من تلقاء نفسها، لا تبالي زرداً كزردك!

وصمت كازبتش، فأردف عزمت يقول:

ـ حين رأيتك على صهوة حصانك أول مرة، كان يتثنى ويتوثب ويرتعش منخراه، وتخرج حوافره من الصخر شرراً. لا

أستطيع أن أصف لك شعوري يومئذ. أصبح كل شيء بعد ذلك اليوم يثير في نفسي الاشمئزاز. أحقرت أجود خيول أبي، وأصبحت أستحي أن أمتطيها، ويحرقني الشوق إلى حصانك كاراخيز. أصبحت أقبع أياماً بكاملها على صخرة، أستعرض بخيالي حصانك الأسود، وأتصور شموخه، وظهره اللين، المستقيم كالسهم. وأراه يُغرق في عينيّ نظرة عينيه الحادتين، كأنه يهم أن يكلمني. يا كازبتش، سأموت إن لم تبعني هذا الحصان...

ـ قال: عزمت ذلك بصوت مرتعش.

وبدا لي أنه يبكي. يجب أن أذكر لك أنه كان عنيداً لا يشبهه في عناده أحد، يستحيل أن تنهطل دموعه لأي سبب من الأسباب، حتى منذ كان أصغر سناً، وألين عوداً.

وسمعت شيئاً يشبه أن يكون ضحكة يرد بها كازبتش على بكاء صاحبه. وأردف عزمت يقول بصوت حازم:

ـ إنني مستعد لكل شيء. هل تريد؟ سأسرق لك أختي. آه ما أجمل رقصها، ما أجمل غناءها! وإنها لتطرز بالذهب تطريزاً يخطف العقول. إن سلطان الترك نفسه لا يملك مثلها... هل تريد؟ انتظرني غداً في الفج عند مجرى السيل: فسنمر من هناك بحجة الذهاب إلى القرية المجاورة، فتأخذها... ألا تساوي بيلا حصانك؟

ولزم كازبتش الصمت طويلاً، وكان جوابه في آخر الأمر أنه أخذ ينشد أغنية من الأغاني القديمة بصوت خافت:

في قرانا كثير من حسان الصبايا،

تلمع عيونهن في الظلام كالنجوم.

ما أجمل أن نهواهن!

ولكن الحرية العارمة أجمل...

بالذهب يمكن أن يشتري المرء أربع نساء،

ولكن الحصان الجواد لا ثمن له:

فهو يسابق الرياح في السهوب،

لا يخون، ولا يخيِّب الظن.

وعبثاً كان عزمت يضرع إليه ويتملقه ويبكي ويقسم الإيمان. وضاق كازبتش ذرعاً به في آخر الأمر، فقاطعه قائلاً:

ـ إذهب أيها الغلام، فأنت مجنون! أأنت تستطيع أن تركب حصاني؟ يميناً لو ركبته لرماك على الأرض ودقّ عنقك قبل أن تمضي به ثلاث خطوات.

فهتف عزمت وقد ثارت ثائرته، وبلغ منه الغضب كل مبلغ:

ـ أنا؟

وسمعت شفرة خنجره، خنجر الطفل، تصلّ على زرد كازبتش. فدفعه كازبتش بيده القوية، فاصطدم بالسياج اصطداماً عنيفاً اهتز منه السياج. قلت في نفسي: «ستبدأ المعركة!» وهرعت إلى الإسطبل، فلجمت الحصانين، وأخرجتهما من الردهة الخلفية. وما انقضى على ذلك دقيقتان حتى كان البيت قد انقلب عاليه سافله، ذلك أن عزمت سارع، فمزق الجلباب، يعلن أن كازبتش أراد أن يقتله. لقد وثب جميع الناس إلى بندقياتهم، واستعرت نار المعركة. وأصبحت لا تسمع إلا صراخاً وضجيجاً وطلقات الرصاص. ولكن كازبتش كان قد وثب إلى حصانه، ومرق بين الناس كالسهم وهو يهز بسيفه.

قلت لبتشورين وأنا أجره من ذراعه: «أعتقد أنه من الأفضل أن نبارح هذا المكان حالاً: الهزيمة ثلثا الغنيمة».

ـ انتظر، أريد أن أرى كيف ينتهي هذا كله.

ـ تستطيع أن تكون على يقين من أن النهاية سيئة! إن الأمر يجري دائماً هكذا عند هؤلاء الشرقيين: يسكرون بالبوزا، ثم تبدأ المذبحة.

ووثب كل منا إلى حصانه، ومضينا نعدو.

قلت للرئيس وقد نفد صبري:

ـ وماذا وقع لكازبتش؟

ـ وما عسى أنّ يقع لهؤلاء الناس؟ إن كازبتش قد لاذ بالفرار!

قال ذلك وهو يفرغ قدحه.

ـ ولم يجرح؟

ـ الحق أنني لا أدري. ولكن هؤلاء الناس يتحملون ويكابرون. رأيت منهم من ثقبت جسومهم أسنة الحراب حتى صاروا كالغربال، وظلوا يهزون أسيافهم.

وبعد لحظة من صمت استأنف الرئيس كلامه، وهو يضرب الأرض بقدمه، قائلاً:

ـ لن أغفر لنفسي مدى الحياة تلك الخطيئة التي ارتكبتها حين عدنا إلى القلعة. لقد قصصت على بتشورين كل ما سمعته من وراء السياج. فأخذ يضحك ـ هذا الماكر! ـ ولكنه كان قد بيّت أمراً. . .

ـ ماذا بيّت من أمر؟ أرجوك أن تقص عليّ ذلك!

ـ ما دمت قد بدأت، فيجب أن أستمر. وصل إلينا عزمت

بعد انقضاء أربعة أيام على ذلك الحادث. وعلى عادته، دخل إلى بتشورين الذي كان يهدي إليه شيئاً من الحلوى دائماً، وكنت ساعتئذ هناك، فدار الحديث عن الخيل. وأخذ بتشورين يكيل المديح لحصان كازبتش، قائلاً إنه نشيط رشيق كالغزال، وليس في الدنيا كلها حصان يدانيه.

كانت عينا التتري الفتى تلتمع. ولكن لم يُظهِر بتشورين أنه كان يلاحظ ذلك. وحاولت عبثاً أن أصرف الحديث إلى شيء آخر، فكان بتشورين يرده دائماً إلى الكلام عن حصان كازبتش. واستمرت الحال على هذا المنوال، فكلما جاء عزمت إلى القلعة دار الحديث عن حصان كازبتش. ولاحظت بعد ثلاثة أسابيع أن الفتى صار ممتقع اللون، هزيل الجسم، كالعشاق الذين تحدثنا عنهم الروايات. ولم أفهم من ذلك كله شيئاً...

لأنني لم أدرك سر الأمر إلا فيما بعد. لقد أهاج بتشورين رغبة الفتى في الحصان، حتى أصبح الفتى قادراً على أن يقذف بنفسه إلى الماء... وقال له بتشورين يوماً:

ـ إنني أرى، يا عزمت، إن هذا الحصان يعجبك كثيراً... والحق أنك لن تراه أكثر مما تستطيع أن ترى عنقك! ولكن قل لي، ماذا تعطي لمن يهدي إليك هذا الحصان؟

قال عزمت:

ـ كل ما يريد.

ـ سوف أعطيك هذا الحصان إذن. ولكن على شرط: أن تحلف أنك ستحقق هذا الشرط...

ـ حلفت... احلف أنت أيضاً.

ـ ليكن ما تريد. أحلف أن الحصان سيكون لك... إذا سلمتني أختك بيلا: إن كاراخيز هو مهرها. هل تعجبك الصفقة؟

وصمت عزمت.

ـ ألا تريد؟ لك ما تشاء. كنت أحسبك رجلاً، ولكنني أرى الآن أنك ما زلت طفلاً. أنت أصغر سناً من أن تمتطي صهوة جواد.

واحمرَّ عزمت، ثم قال:

ـ وأبي؟

ـ ألا يغيب عن البيت أبداً؟

ـ يغيب...

ـ هل توافق؟...

فقال عزمت، وقد امتقع لونه حتى صار كالميت:

ـ أوافق، ومتى تريد ذلك؟

ـ متى سيجيء كازبتش. لقد وعدنا أن يأتينا بعشرة خِراف. الباقي عليّ. ولكن لا تنس وعدك يا عزمت!

وهكذا تمت الصفقة... يا لها من صفقة وضيعة ذميمة! صارحت بتشورين بذلك فيما بعد، ولكنه اكتفى بأن قال: ينبغي لهذه الشركسية المتوحشة الصغيرة أن تعد نفسها سعيدة بالزواج من رجل مهذب مثلي. (لاحظ أن بتشورين سيعد نفسه زوجها رغم كل شيء). ثم إن كازبتش لص تجب معاقبته بما يستحق أن يعاقب به. قل لي بربك: كيف يمكنني أن أجيب على هذا الكلام؟ فقد كنت في ذلك الحين أجهل كل شيء عن المؤامرة التي بيتاها. وفي ذات يوم، جاء كازبتش يسألني هل بنا حاجة إلى خِراف وعسل، فأمرته أن يأتينا بالخِراف والعسل غداً.

وبادر بتشورين فأبلغ عزمت النبأ. قال له:

- سيكون كاراخيز غداً في حوزتي. فإذا لم تجئني بأختك هذا المساء، فلن ترى الحصان...

فأجابه عزمت بقوله:

- نعم!

ومضى إلى القرية عدواً.

وفي المساء تناول بتشورين أسلحته وخرج من القلعة. أما كيف ائتمرا على هذا كله، فذلك ما أجهله. المهم أنهما عادا إلى القلعة في الليل معاً ورأى الخفير على سرج عزمت امرأة شُد ذراعاها وساقاها بوثاق، وأسدل على وجهها حجاب.

فسألت الرئيس قائلاً:

- والحصان؟

- انتظر لحظة، فقد وصلنا إلى الحديث عن الحصان. في البكرة من صباح الغد وصل كازبتش يسوق أمامه عشرة خِراف يريد أن يبيعها، فربط حصانه عند السياج ودخل عليّ. فقدمت له قدحاً من الشاي، فهو، على أنه من قُطَّاع الطرق، صديقي.

وتجاذبنا أطراف الحديث في أمور شتى... وفجأة رأيته يرتجف، ويتبدل وجهه، ويقفز إلى النافذة. كانت النافذة لسوء الحظ، تطل على الباحة الخلفية. قلت له:

- ما بك؟

قال وهو يرتعد:

- حصاني!... حصاني!...

وسمعت وقع الحوافر حقاً.

ـ لا شك أن أحد القوزاق يصل إلى القلعة.

فزأر يقول:

ـ لا! «أوروس يامان، يامان!»[9].

ثم وثب إلى خارج الغرفة كالفهد، وبقفزتين صار بالباحة. وسد الخفير عليه باب القلعة ببندقيته، ولكنه قفز فوقها وأخذ يركض في الطريق، فرأى عزمت يعدو بالحصان القوي الجبار كاراخيز وسط عاصفة من العجاج، وقد ابتعد كثيراً. فلم يتمهل، بل صوب بندقيته وأطلق النار. وتوقف لحظة فعرف أن رصاصته أخطأت الهدف، فأطلق صرخة حادة وحطم بندقيته على صخرة، وألقى بنفسه على الأرض ينتحب كطفل... وهرع رجال القلعة، وتحلقوا حوله، ولكنه لم ير أحداً. وأخذوا يعلقون على الحادث، ثم قفلوا راجعين. وأمرت بأن يوضع ثمن الخِراف لكازبتش إلى جانبه. فلم يمَّسه! كان مستلقياً على الأرض كالميت، وقد تمرغ وجهه بالتراب. وصدقني إذا قلت لك: إنه ظل على هذه الحال طوال الليل، حتى إذا طلع الصباح، عاد إلى القلعة يسأل أن يسمى له الشخص الذي خطف الحصان. وكان الخفير قد رأى عزمت يفك وثاق الحصان ثم يمضي به عَدْواً، فلم يجد من الضروري أن يخفي عنه اسمه. فلما سمع كازبتش اسم عزمت، طار الشرر من عينيه، واتجه نحو القرية التي يعيش فيها أبو عزمت.

ـ ثم ماذا؟

ـ لم يجد الأب في البيت، فلقد سافر الأب، وسيغيب ستة أيام وإلا فهل كان يتاح لعزمت أن يقتاد أخته؟

ولما عاد الأب من رحلته لم يجد ابنته ولا ابنه. كان عزمت

يُقدِّر عاقبة عمله، ويعرف أن ما فعله يمكن أن يكون جزاؤه الموت. ولم ير أحد عزمت بعد ذلك. لعله التحق بعصابة من الإبريك، ثم هلك في مكان ما وراء التيريك أو الكوبان... نهاية يستحقها!...

أعترف أن ذلك كله أزعجني كثيراً. وحين علمت أن الشركسية عند بتشورين، وضعتُ شارة رتبتي العسكرية على كتفي، وتناولت سيفي، وذهبت إليه.

كان مستلقياً على سريره في الغرفة الأولى، وقد وضع إحدى يديه تحت ذقنه، وأمسك بالأخرى غليونه المنطفىء. وكان باب الحجرة الثانية مغلقاً، والمفتاح ليس على القفل. رأيت هذا كله بلمحة واحدة... وأخذت أسعل وأضرب نعليّ بالأرض، ولكنه تظاهر بأنه لا يسمع. فقلت بلهجة صارمة:

ـ أيها السيد الملازم الثاني، ألا ترى أنني هنا؟

ـ ها! أهلاً وسهلاً بك يا مكسيم مكسيمتش! هل تريد غليوناً؟

قال ذلك من دون أن ينهض.

ـ عفواً! لست مكسيم مكسيمتش، بل أنا رئيسك!

ـ سيان. هل تريد قدحاً من الشاي؟ ليتك تعرف الأمر الذي يعذبني ويرهقني.

قلت وأنا أقترب من السرير:

ـ أعرف كل شيء.

ـ حسن أنك تعرف كل شيء، وتعرف أن مزاجي لا يساعدني الآن على الكلام.

ـ أيها السيد الملازم الثاني، لقد اقترفت عملاً ربما سئلت عنه أنا أيضاً. . .

ـ دعك من هذا الكلام! ألم نتعود أن نتقاسم كل شيء؟

ـ كفاك مزاحاً، سلمني سيفك، من فضلك!. . .

ـ ميتكا، هات السيف!. . .

وجاءني ميتكا بالسيف. فلما فرغت من واجبي على هذه الصورة جلست على السرير وقلت:

ـ اسمع يا جريجوري ألكسندروفتش، إعترف بأن ما فعلته إساءة!

ـ أي إساءة تعني؟

ـ إنك خطفت بيلا! لا شك أنه ذلك الوغد عزمت! هيا، اعترف.

ـ ولكنها تعجبني!. . .

ما عسى أن أجيب على هذا الكلام؟ لقد صمت، ولكنني قلت بعد لحظة:

ـ إذا طلبها أبوها فيجب أن تردها إليه.

ـ لا! لا يجب أن يحصل ذلك.

ـ لكنه سيعرف أخيراً أنها هنا.

ـ وكيف يمكن أن يعرف ذلك؟

ومرة أخرى، لم أجد ما أجيب به على كلامه. فقال بتشورين وهو ينتصب قائماً:

ـ اسمع يا مكسيم مكسيمتش، أنت رجل شهم، وإذا نحن رددنا الفتاة إلى ذلك المتوحش فسيقتلها أو يبيعها. ما وقع قد وقع.

وإنما ينبغي الآن أن لا نفسد كل شيء سدى. دعها عندي، واحتفظ بسيفي.

ـ أَرِنِيها على الأقل.

ـ إنها وراء هذا الباب. ولكنني عبثاً حاولت أن أراها اليوم. إنها قابعة في ركن من أركان الحجرة. وقد أسدلت عليها حجابها. إنها لا تتكلم، ولا تنظر إلى أحد. إنها كثيرة الخوف كالغزال. لقد دعوت زوجة صاحب الدكان إلى خدمتي اليوم، فهي تعرف اللغة التترية، وسوف تُعنى بالفتاة، وتعوِّدها على فكرة أنها لي. ذلك أنها لن تكون لأحد غيري.

قال تلك الجملة الأخيرة وهو يضرب المنضدة بقبضة يده. وافقت على كل شيء، وهل يمكن أن أفعل غير ذلك؟ إن هناك أشخاصاً يضطر المرء دائماً إلى الموافقة على ما يريدون.

قلت لمكسيم مكسيمتش:

ـ وبعد ذلك؟ هل استطاع أن يروِّضها وأن يجعلها أنيسة أم أنها ضوت في سجنها حنيناً؟

ـ حنيناً؟ دعك من هذا الكلام! لقد كانت ترى، وهي في قلعتنا، الجبال التي كانت تراها وهي في قريتها. وهل يحتاج هؤلاء المتوحشون إلى أكثر من ذلك؟ وكان بتشورين يقدم إليها في كل يوم هدية جديدة. فكانت في أول الأمر ترفض الهدايا صامتة متكبرة. واستفادت من ذلك كله المرأة التي عهد إليها بخدمتها، فازدادت من ذلك فصاحة وبلاغة. آه من الهدايا كم تفعل في النساء! أي شيء ترفض امرأة أن تفعله من أجل خرقة ملونة؟!. ولكن دعنا من هذا الآن. لقد تعب بتشورين كثيراً. وكان يتعلم اللغة التترية أثناء

ذلك، وبدأت هي تفهم اللغة الروسية. وتعودت شيئاً فشيئاً أن تنظر إليه، فكانت تنظر إليه في أول الأمر من تحت، ثم أصبحت تنظر إليه بعد ذلك من جانب. ولكنها ظلت حزينة كاسفة البال؛ وكانت تغني بصوت خافت، حتى إن الكآبة كانت تتسرب إلى نفسي أنا أيضاً، حين أسمع غناءها من الغرفة المجاورة. وشهدت ذات يوم منظراً لن أنساه مدى الحياة: مررت قريباً من النافذة فألقيت نظرة على الحجرة، فرأيت بيلا جالسة على الفراش، وقد أطرقت برأسها، ورأيت بتشورين واقفاً أمامها يقول:

- اسمعي يا عزيزتي! ألا تعرفين أنك ستكونين لي عاجلاً أو آجلاً؟ فلماذا تعذبينني إذن؟ أم أنك تحبين أحداً من التشتشينيين؟ إذا كان الأمر كذلك تركتك تذهبين إلى بيتك فوراً. (وهنا ارتعشت ارتعاشة لا تكاد تُرى، وهزت رأسها بالإنكار). أم تُراك تكرهينني وتشمئزين مني؟ (وهنا تنهدت). أم أن دينك يمنعك أن تحبيني؟ (وهنا اصفر وجهها، وظلت صامتة). صدقي ما أقوله لك. إن الله هو رب جميع النّاس، وكيف يسمح لي أن أحبك ثم لا يسمح لك أن تبادليني حباً بحب؟ فنظرت إليه ملياً، كأن هذه الفكرة قد أثرت فيها. وكانت عيناها تعبّران في آن واحد، عن الشك في ما يقول، والرغبة في تصديق ما يقول، يا لهاتين العينين؟ إنهما تلتمعان كجمرتين.

وأردف بتشورين يقول:

- اسمعي يا بيلا. إنك ترين كم أحبك. وإني قادر على أن أفعل كل شيء من أجل أن تكوني سعيدة. أريد أن تكوني سعيدة. فإن عاد إليك الحزن، مت من ذلك غماً. عديني بأنك ستكونين مرحة.

كانت بيلا تفكر دون أن تنفصل عيناها السوداوان عن عيني بتشورين، ثم افترّ ثغرها عن ابتسامة رقيقة، وهزت رأسها بنعم. فتناول بتشورين يدها وأراد أن يقنعها بتقبيلها، فتمنعت بضعف، واكتفت بأن تكرر قولها: «لا، لا، دعني». وألحّ بتشورين. فأخذت ترتعش وتبكي.

ثم قالت:

ـ إنني أسيرتك، أنا عبدتك، وتستطيع أن تحملني على ما تشاء.

وأجهشت تبكي مرة أخرى. فضرب بتشورين جبينه بيده، ومضى إلى الحجرة الأخرى. فدخلت عليه، فرأيته بذرع الغرفة جيئة وذهاباً، وقد شبك يديه، واكفهرّ وجهه.

ـ ما بك يا صديقي؟

ـ إن هذه المرأة هي الشيطان بعينه، ولكنها ستكون لي، أقسم على ذلك. . .

فلما هززت رأسي منكراً، قال:

ـ هل تراهن؟ ستكون لي بعد أسبوع!

ـ أراهن!

وتراهنا، ثم خرجت.

وفي الغداة، أسرع بتشورين، فابتاع من كزليار أنواعاً كثيرة من النسيج الفارسي، لا أستطيع أن أحصي عددها. . .

وقال لي، وهو يعرض علي هذه الأشياء كلها:

ـ هل تستطيع هذه الحسناء الشرقية أن تقاوم إغراء كهذا؟

أجبته قائلاً:

ـ إنك لا تعرف الشركسيات. شتان بينهن وبين الجورجيات، أو تتريات القفقاس، شتان. إن لهن قواعد في السلوك مختلفة، وقد نشأن على تربية أخرى.

فابتسم بتشورين، وأخذ يصفر معزوفة عسكرية.

كنت على حق: إن الهدايا لم تؤثر فيها إلا نصف تأثير: لقد غدت أرق حاشية، وأكثر ثقة... هذا كل شيء. فعزم بتشورين على اللجوء إلى وسيلة أخيرة. ففي ذات صباح، أسرج حصانه، وارتدى لباساً شركسياً، وحمل أسلحته، وجاء إليها يقول:

ـ بيلا، إنك لترين كم أحبك. ولقد اختطفتك لاعتقادي بأنك ستحبينني متى عرفتني. والآن أدرك أنني أخطأت التقدير، فوداعاً. كل ما أملك فهو لك. وتستطيعين أن تعودي إلى أبيك، إذا أحببت ذلك: أنت طليقة. لقد أسأت إليك، وأريد الآن أن أعاقب نفسي، وداعاً. إنني ذاهب. إلى أين؟ لا أدري! وقد لا أنتظر طويلاً الرصاصة أو الطعنة التي تحيلني جثة هامدة. اذكريني، واغفري لي.

قال هذا، ثم استدار، ومد إليها يده مودِّعاً. فلم تتناول بيلا يده، ولزمت الصمت. كنت وراء الباب، وكنت أنظر من أحد شقوقه فأرى وجهها. لقد أشفقت عليها، ورثيت لحالها. كان وجهها اللطيف شاحباً شحوب الموتى. فلما رأى بتشورين أنها لا تجيبه، اتجه نحو الباب بضع خطوات. كان يرتجف. وأؤكد لك أنه كان قادراً على أن يفعل حقاً ما قد زعمه مازحاً: إنه كذلك. ولكن ما كاد يلامس الباب حتى وثبت إليه بيلا وارتمت على عنقه، تجهش بالبكاء. هل تصدق ذلك؟ وبكيت أنا أيضاً وراء الباب... ما كان أغباني!

وصمت الرئيس، ثم أردف يقول وهو يفتل شاربه:

ـ يجب أن أعترف لك أنني حزنت على نفسي أشد الحزن، إذ رأيت أنني ما أحبتني امرأة في حياتي مثل هذا الحب. قلت:

ـ وهل دامت سعادتهما مدة طويلة؟

ـ نعم، لقد اعترفت لنا بأنها منذ رأت بتشورين أول مرة أصبحت تراه في أحلامها؛ وأنها ما من رجل أثر في نفسها مثلما أثر فيها بتشورين. نعم لقد سعد كل منهما بصاحبه!...

قلت على غير إرادة مني:

ـ يا لها من خاتمة باهتة! كنت أتوقع أن تنحل العقدة بفاجعة، وها قد خاب ظني. ولكنني أردفت أقول:

ـ وهل يعقل أن أباها لم يشتبه في أن ابنته عندكم بالقلعة؟

ـ أعتقد أن هذه الظنون قد راودته. ولكننا علمنا بعد الاختطاف ببضعة أيام أنه قتل.

وعاد اهتمامي بالقصة فانتعش. وسألته عن ظروف مقتله. قال الرئيس:

ـ يجب أن أذكر لك أن كازبتش اعتقد أن عزمت سرق الحصان بموافقة أبيه. هذا ما أقدِّره أنا على الأقل. وفي ذات يوم، تربص بالأب في الطريق، على مسافة ثلاثة فرستات من القرية. وكان الأب عائداً إلى قريته بعد أن ظل يبحث عن ابنته في كل مكان من دون أن يظفر بطائل. وكان رجاله بعيدين وراءه. وكان حصانه يسير الهوينى، وقد استغرق الرجل في التفكير. فخرج كازبتش من أحد الأدغال، ووثب إلى ردف الحصان كالهر، ورمى العجوز على الأرض بطعنة من خنجره، واستلم أزمة الحصان،

وولى هارباً. ولقد رأى بعض رجال الأمير ما وقع، فاندفعوا في أثر القاتل يطاردونه ولكنهم لم يستطيعوا أن يدركوه.

قلت محاولاً أن أعرف رأي الرئيس:

ـ وهكذا عوَّض خسارته، وانتقم لنفسه، أليس كذلك؟

ـ كان سلوكه، من وجهة نظرهم، سليماً لا غبار عليه.

ولم يسعني إلا أن أدهش للروس كيف يتلاءمون بسرعة مع عادات الشعوب التي يضطرون إلى الحياة بينها. ولست أدري أهذا جدير بالذم أم بالمدح. ولكنني لا أشك في أنه يدل على مرونة نفسية عظيمة، ويكشف عن حس سليم يغفر الشر متى رأى ضرورة لذلك، أو متى رأى أن تحطيمه مستحيل.

وكنا قد شربنا الشاي أثناء ذلك. وكانت خيولنا التي ربطناها منذ مدة طويلة في الثلج ترتعد فرائصها. وكان القمر يشحب في جهة الغرب من السماء، ويهمّ أن يدخل في الغيوم السوداء المعلقة على الذرى البعيدة كأنها مزق من ستارة مشققة. وخرجنا من البيت... فإذا الجو مشرق رغم تنبؤات رفيقي؛ وكل شيء يبشر بصباح جميل. كانت النجوم التي تطوف في الأفق البعيد، تنتشر كأنها زخارف رائعة، ولكنها كانت تنطفىء واحدة بعد أخرى على قدر ما كان الضوء الشاحب الآتي من الشرق يجتاح السماء، يصبغها بلون بنفسجي قاتم، وينير منحدرات الجبال الوعرة المغطاة بالثلج البكر، شيئاً فشيئاً. كانت تلوح ذات اليمين وذات الشمال مهاوٍ حزينة خفية، كأنها بقع سوداء وكان الضباب الذي يتلفف ثم ينتشر كالأفاعي، يزحف نحوها في الأخاديد الكبيرة بين الصخور المتجاورة، كأنه يشعر باقتراب النهار ويخشاه.

كان كل ما في السماء وما في الأرض هادئاً كقلب الإنسان ساعة الصلاة في الصباح. غير أن ريحاً باردة متقطعة كانت تهب من الشرق تنفش أعراف خيولنا المغطاة بالصقيع. وسرنا. كانت الخيول الخمسة الضعيفة الهزيلة تجد كثيراً من العناء في جر عربتينا على هذا الطريق المتعرج الذي يؤدي إلى جبل الجود. فكنا نسير على الأقدام، ونسند العجلات بالحجارة حين تعجز الخيل عن مواصلة السير. لكأن هذا الطريق يؤدي إلى السماء، فلقد كان صاعداً على مدى البصر كله إلى أن يغيب في السحاب الذي امتد على جبل الجود منذ مساء أمس، كأنه حدأة تتربص بفريستها. كان الثلج يصرّ تحت أقدامنا. وكان الهواء من الخفة بحيث يصعب التنفس. فكان الدم يصعد إلى رؤوسنا في كل لحظة. غير أن شيئاً من الارتياح كان يسري في عروقي، وكنت أشعر بشيء من الفرح لأنني بلغت هذا المبلغ من العلو فوق العالم. وإني لأعترف بأن هذا الشعور شعور طفل، ولكن الإنسان حين يبتعد عن المواضعات الاجتماعية ويقترب من الطبيعة يغدو طفلاً رغم أنفه. فالنفس تتحرر من المعاني التي اكتسبتها، وتعود إلى ما كانت عليه من قبل، وما قد تصير إليه يوماً ما. إن من سيتاح له، كما أتيح لي، أن يجتاز الجبال المنعزلة، وأن يتأمل مناظرها الساحرة طويلاً طويلاً، وأن يتنشق هواء الفجاج المنعش في نهم، سيفهم من غير شك رغبتي هذه في الحديث عن تلك المشاهد الخلابة وفي وصفها والكلام عنها. ووصلنا أخيراً إلى قمة جبل الجود، فتوقفنا نسرح أبصارنا حولنا. إن سحابة رمادية تحلق في الجو، وتنذر أنسامها بأن عاصفة ستهب بعد قليل. غير أن ما يسطع به المشرق من ذهب وضياء أنسانا كلياً وجود السحابة...

نعم، حتى الرئيس نسي وجود السحابة. إن القلوب البسيطة تحس بعظمة الطبيعة إحساساً أقوى وأعنف مائة مرة من إحساسنا بها نحن الذين نتحمس كثيراً في الكلام وعلى الورق.

قلت لصاحبي:

ـ لا شك أنك معتاد على هذه المناظر الرائعة؟

ـ نعم، إن المرء ليتعود حتى على أزيز الرصاص، أو قل على إخفاء ضربات قلبه الذي يدق على غير إرادة منه.

ـ ولكنني سمعت من بعض قدماء الجنود أن لهذه الموسيقى فتنتها.

ـ نعم، إنها ممتعة، بمعنى واحد من المعاني، وهو أن ضربات القلب تزداد قوة.

ثم أشار إلى المشرق وأضاف يقول:

ـ أنظر ما أجمل هذا البلد!

حقاً إنه لمنظر رائع، ما أظن أنني ستتاح لي رؤية مثله. كان تحتنا وادي كويشاؤوري، يمر به، كخيطين من الفضة، نهر آراغفا ونهر رخر، ويزحف فوقه بخار أزرق يتجه نحو الفجاج المجاورة كأنه يريد أن يحتمي بها من أشعة الصباح الدافئة. وذات اليمين وذات الشمال ذرى ما تنفك في صعود، تتصالب وتتطاول ويغمرها الثلج، ويغطيها النبات. وفي البعد تبدو الجبال هي نفسها، بيد أنه ما من صخرة فيها تشبه الأخرى. وهذه الثلوج كلها تلتمع بضياء كأنه الفضة المذهَّبة، ضياء فرح نيّر تراه العين فيحب المرء أن يقضي في هذا المكان حياته كلها. وكانت الشمس تهم أن تشرق من وراء جبل أزرق قاتم لا تفرقه عن السحابة إلا عين بصيرة

متمرسة. ولكن خطّاً دامياً كان يمتد فوق الشمس، رآه صاحبي فقال:

ـ لقد كنت على حق. سيكون الجو رديئاً هذا اليوم. يجب أن نغذ في السير، وإلا فوجئنا بالعاصفة على كرستوفايا...

قال ذلك، ثم هتف بالسائقين:

ـ هلما!...

ووضعت السلاسل على العجلات لتكون مكبحاً يمنعها من الانزلاق السريع، وأمسك السائقان بأزمة الخيل، وبدأ الانحدار. كانت على يميننا صخرة وعلى شمالنا فج تبدو لنا منه القرية الأوسيتية التي تقبع في آخره، كأنها عش من أعشاش السنونو. وارتعدت حين تصورت أن هذا الطريق الذي لا يمكن أن تتلاقى فيه عربتان يمر فيه ساعي البريد تحت جنح الليل، عشر مرات في السنة، حتى من دون أن ينزل من عربته المرتجة. كان أحد سائقينا روسياً، فلاحاً من ياروسلافل، والآخر أوسيتياً. وكان الأوسيتي يقود حصان مجر العجلة بالزمام، ويحترز ويحتاط كثيراً، بعد أن حل أحصنة العارض. أما صاحبنا الروسي فكان لا يبالي، حتى إنه لم يغادر مقعده في العربة! حتى إذا نبهته إلى أنه يستطيع، في أقل تقدير، أن يهتم بحقيبتي التي لا أريد أبداً أن أمضي إلى قاع الهوة لالتقاطها متى سقطت، أجابني بقوله: «هوّن عليك يا سيدي، سنصل بإذن الله سالمين! ولسنا نقوم بهذه الرحلة أول مرة!» لقد كان على حق: كان يمكن أن لا نصل، ولكننا وصلنا مع ذلك. ألا ليت الناس يبذلون مزيداً من الجهد في التفكير، إذن لأدركوا أن الحياة لا تستحق أن نُعنى بها كل هذه العناية...

لعلكم تريدون أن تعرفوا خاتمة قصة بيلا! ولكنني لا أكتب الآن قصة، وإنما أسجل مذكَّرات رحلة، ولا أستطيع أن أحمل الرئيس على متابعة قصته قبل أن يريد هو ذلك. فتجملوا إذن بالصبر، أو فاقلبوا بضع صفحات إذا شئتم. ولكنني لا أنصح لكم بهذا، لأن قصة مرورنا بكرستوفايا (أو جبل سان كرستوف، كما أسماها الحكيم جامبا) جديرة باهتمامكم.

لقد هبطنا إذن من جبل الجود إلى وادي تشرتوفا... إن الإسم لَرومانسي! لا شك أنكم تتصورون مغارة روح الشر بين هذه الصخور التي لا يمكن الوصول إليها! ولكنكم مخطئون. إن كلمة تشرتوفا مشتقة من «تشرتا» (بمعنى خط) لا من «تشورت» (بمعنى شيطان)، فها هنا كانت حدود جورجيا في القديم. إن الوادي مليء بالثلج، حتى ليذكِّر كثيراً بساراتوف، وتامبوف وغيرهما من الأمكنة **الفاتنة** في وطننا.

حين وصلنا إلى وادي تشرتوفا، قال الرئيس وهو يشير إلى ذروة يغطيها الثلج:

ـ هذه كرستوفايا[10].

إن صليباً من الحجر يلوح أسود في ذروتها التي يؤدي إليها طريق لا يكاد يُرى ولا يسير فيه السائرون إلا حين يتكاثر الثلج، فيتعذر السير في الطريق الجانبي. وقال السائقان إن الثلوج لم يبدأ تهافتها من الجبل بعد؛ ودارا بنا حول كرستوفايا، مراعاة للخيل، فما أن سرنا في الطريق قليلاً حتى التقينا بخمسة أوسيتيين عرضوا علينا خدماتهم وتعلقوا بالعجلات، وراحوا يجرون عرباتنا ويقوِّمونها، وهم يصرخون. لا شك أن الطريق لم تكن خالية من

الخطر. كنا نرى على يميننا أكواماً من الثلج منتصبة فوق رؤوسنا، تهم أن تتهافت في الفج عند أول نسمة تهب. وكان الثلج يغطي بعض أجزاء الطريق الضيق، يتهاوى تحت أقدامنا في بعض المواضع؛ وقد أذابته أشعة الشمس في مواضع أخرى فاستحال إلى جليد في ليالي الصقيع. فكنا لا نتقدم، نحن أيضاً، إلا في كثير من العناء. والخيل تقع من حين إلى حين. وكان على شمالنا صدع عميق فاغر، يجري فيه سيل يختبىء تحت قشرة من الثلج تارة، ويتواثب مزبداً على الصخور السوداء تارة أخرى. أنفقنا ساعتين حتى درنا حول كرستوفايا، ساعتين من أجل فرستين. وفي أثناء ذلك هبطت السحب. وأخذ البرَد والثلج يهطلان. وأخذت الريح تفوّر في الفجاج، وتزأر وتصفر كأنها وسولوفيى رازبوينك[11]، وسرعان ما غاب الصليب الحجري في الضباب الذي تتلاحق أمواجه من الشرق، وما تنفك تزداد كثافة وسرعة... يجب أن أذكر عابراً أن هناك رأياً تتناقله الأجيال، بصدد هذا الصليب، وهو أن الإمبراطور بطرس الأول هو الذي نصبه في هذا المكان إبان رحلة قام بها إلى القفقاس. ولكننا نعلم أن بطرس لم يذهب أبداً إلى غير داغستان، ثم لقد كُتب على الصليب بأحرف كبيرة أنه نُصب بأمر الجنرال يرمولوف عام 1824. ولكن هذا الرأي كان راسخاً في عقول الناس، حتى ليحتار المرء ماذا يصدق وماذا يُكذِّب، لا سيما وأننا لم نتعود الركون إلى صدق ما يُكتب.

بقي علينا أن نهبط ستة فرستات بين الصخور التي يغطيها الجليد وفي الثلج الموحِل، حتى نصل إلى محطة كوبي. لقد أصبحت الخيل عاجزة عن مواصلة السير، وكانت فرائصنا ترتعد.

وازدادت زمجرة الإعصار. إن هذه العاصفة تشبه عواصف الشمال، ولكن نبراتها المتوحشة كانت أشد تأوهاً وأعمق حزناً. خاطبتها بيني وبين نفسي: «وأنت أيضاً، أيتها المنفية، تبكين السهوب الواسعة! السهوب التي لا يحدها حد، حيث تستطيع أجنحتك الباردة أن تنتشر ما شاء لها الانتشار! أما هنا فأنت في مكان ضيق، تختنقين كنسر سجين يلطم قضبان الحديد من قفصه صارخاً».

قال الرئيس:

ـ إن الجو رديء. انظر من حولك. إننا لا نرى إلا ضباباً وثلجاً، وقد نهوي في منحدر أو نخسف في حفرة. ولا شك بأن نهر بايدارا، تحت، يطفح بماء الفيضان، حتى ليستحيل أن نجتازه. آه من هذه الآسيا التي لا يمكن أن يطمأن فيها إلى شيء ولا إلى أحد!

وكان السائقان يضربان الخيل بالسياط صارخين شاتمين، والخيل تنخر وتحرن كأنها لا تريد أن تخطو خطوة واحدة بحال من الأحوال، رغم بلاغة ضربات الأسواط كلها. وقال أحد السائقين أخيراً:

ـ يا صاحب المعالي لن نستطيع الوصول إلى كوبي هذا المساء فهلّا انعطفنا شمالاً ما دام في الوقت متسع إلى الآن؟ هل ترى هناك على ذلك السفح شيئاً أسود؟ تلك بيوت يتوقف فيها المسافرون متى فاجأهم جو رديء. يقول هؤلاء الأوسيتيون أنهم يقودونكم إلى ذلك المكان إذا منحتموهم عطاء.

قال الرئيس:

ـ أعرف ذلك، يا عزيزي، أعرفه بدون أن تقوله. إنه ليسعد هؤلاء الخبثاء أن يبتزوا منا العطاء تلو العطاء.

فتدخلت قائلاً:

ـ يجب الاعتراف بأن حالتنا تسوء كثيراً لولاهم.

فدمدم الرئيس يقول:

ـ نعم، نعم، إن هؤلاء الناس يشمّون، نعم، يشمّون كل فرصة تسنح للاستفادة منا. كأننا لا نستطيع أن نهتدي إلى الطريق بدونهم.

وانعطفنا شمالاً، فوصلنا إلى الملجأ البائس في غير قليل من العناء، هو بيتان بُنيا بالبلاط والحصى، وأُحيطا بجدار من هذه المواد نفسها... وفيهما أناس يرتدون أسمالاً بالية، استقبلونا بغير قليل من الترحيب والود. وقد عرفت فيما بعد أن الحكومة تأجرهم وتطعمهم على شرط أن يستقبلوا المسافرين الذين تباغتهم العاصفة.

قلت وأنا أجلس أمام النار:

ـ لا بد لكل ما يحدث من نتيجة طيبة. تستطيع هنا أن تكمل سرد قصة بيلا. فإني على يقين من أن القصة ما انتهت.

ـ ومن أين أتاك هذا اليقين؟

قال الرئيس ذلك وهو يطرف عينه ويبتسم ابتسامة متخابثة.

فأجبته:

ـ لأن هذا ليس من طبيعة الأمور: فالقصة التي تبدأ تلك البداية العجيبة لا بد أن تنتهي بنهاية عجيبة كذلك.

ـ يميناً لقد حزرت.

ـ يسعدني أن أحزر.

ـ أما أنا فإن إيقاظ هذه الذكريات يحزنني. كانت فتاة رائعة، بيلا تلك. لقد أَلِفتها في نهاية الأمر، فكنت أشعر نحوها شعور

الأب نحو ابنته، وكانت تحبني هي أيضاً! يجب أن أذكر لك أن ليس لي أسرة. فأنا منذ زهاء اثنتي عشرة سنة لا أعرف شيئاً عن أمي ولا عن أبي. ولم يخطر ببالي أن أتزوج حين كنت شاباً، وأحسب أن الأوان قد فات الآن. فأسعدني أن أجد شخصاً أدلّله. كانت بيلا تغنينا وترقص لنا رقصة الليزغينكا... آه ما كان أجمل رقصها! لقد سبق لي أن رأيت صبايانا في الأرياف، بل لقد كنت ذات يوم في موسكو في حفل يضم النبلاء، منذ عشرين سنة، ولكن ما شاهدته، هناك من رقص لا يُعدّ شيئاً إذا قِيسَ برقصها. وكان بتشورين يكسوها أجمل اللباس، كأنها دمية من الدمى، وكان يحيطها بألوان من الرعاية، ويدللها ويغنجها، وكانت تزداد رونقاً وسناء. ما كان أروعها! لقد زالت سفعة وجهها ويديها، وتورَّد خداها... وما أكثر ما كانت تضحك! كانت لا تكف عن السخر مني، تلك الشيطانة الصغيرة، غفر الله لها!...

ـ ومتى أنبأتموها بموت أبيها؟

ـ كتمنا ذلك عنها مدة طويلة، إلى أن تحسنت حالها. فلما صارحناها بالأمر، بكت يومين ثم نسيت.

انقضى على ذلك أربعة أشهر، كانت تجري الأمور خلالها على أحسن حال. وكان بتشورين يحب الصيد أظنّ أنني ذكرت لك ذلك). وكثيراً ما كانت تستبد به الرغبة في المضي إلى الغابة لمطاردة اليحمور والخنزير البري. ثم أصبح الآن يقضي وقته كله في القلعة لا يبارحها. ولكن هأنذا أفاجئه ذات يوم حالماً مستغرقاً في التفكير، يذرع غرفته جيئة وذهاباً، وقد وضع يديه وراء ظهره. وفي يوم آخر، مضى إلى الصيد من دون أن يخبر بذلك أحداً،

وظل غائباً عن القلعة طوال الضحى. وفعل ذلك مرة ثانية، فثالثة، ثم ما انفكت روحاته إلى الصيد تزداد. قلت في نفسي: هذا نذير سوء فلا بد أن شيئاً وقع بينهما.

ودخلت إلى بيتهما ذات صباح. كانت بيلا جالسة على سريرها بجلباب من الحرير الأسود، وقد بدا على وجهها من أمائر الشحوب والحزن ما أخافني... إنني لأتصورها الآن كأنني رأيتها أمس.

ـ أين بتشورين؟

ـ في الصيد.

ـ ذهب هذا الصباح؟

صمتت كأنه يشق عليها كثيراً أن تجيب، وقالت أخيراً وهي تزفر زفرة طويلة:

ـ بل ذهب أمس.

ـ لعل شيئاً قد وقع له؟

قالت وقد ترقرقت في عينيها الدموع:

ـ لازمتني هذه الفكرة أمس، النهار كله. كنت أتصوره وقد جرحه خنزير بري أو اختطفه إلى الجبل أحد التشتشينيين... كنت أتخيل جميع المصائب. أما اليوم، فأنا أعتقد أنه أصبح لا يحبني.

ـ دعي عنك هذه الوساوس يا صغيرتي، ما هذه الأفكار!

وأخذت تبكي، ثم ما لبثت أن رفعت رأسها بكبرياء، وجففت دموعها، وأردفت تقول:

ـ إذا كان لا يحبني فمن ذا الذي يمنعه من ردّي إلى بيتي؟ هل أكرهته على الاحتفاظ بي هنا؟ إذا استمر الحال هكذا فسأذهب، أنا لست أَمَةً له، أنا ابنة أمير!...

وأحببت أن أهدئها فقلت:

ـ اسمعي يا بيلا، إنه لا يستطيع أن يبقى دائماً بين يديك. إنه شاب، وهو يحب الصيد. ذهب وسيعود. وإذا رآك دائماً حزينة، فلا شك أن هذا لن يلبث أن يضجره.

ـ نعم، نعم، أريد أن أكون مرحة!

قالت ذلك، ثم ضحكت، وتناولت طبلها، وأخذت تغني، وترقص، وتثب حولي. ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فسرعان ما عادت فتهاوت على سريرها، وأخفت وجهها بيديها.

شعرت بارتباك شديد. فأنا لم يسبق لي أن اعتنيت قبل ذلك بامرأة! وتساءلت كيف أواسيها، فلم يفتح الله عليّ بشيء. ودام ذلك لحظة طويلة. صمتنا نحن الاثنين... إنه لموقف مزعج. وقلت لها أخيراً:

ـ هل تريدين أن نقوم بجولة على السور؟ إن الجو جميل جداً!

كان ذلك اليوم من أروع أيام سبتمبر، فالسماء صافية، والحرارة معتدلة. وكنا نستطيع أن نميز كل جبل من الجبال بوضوح. ظللنا نتجول على السور جيئة وذهاباً، من دون أن ينبس أحدنا بحرف. وأخيراً جلست هي على العشب، فجلست إلى جانبها. إني لأضحك كلما تذكرت ذلك الموقف: كنت لها كالوصيفة.

كانت قلعتنا تقوم على قمة، وكان المنظر الذي يُرى من على السور رائعاً حقاً، فمن جهة نرى أرضاً فسيحة طليقة يخددها بعض الوديان، ثم الغابة تمتد حتى ذروة الجبال؛ ودخاناً يصعد من القرية

هنا وهناك، وخيلاً ترعى. ومن جهة أخرى نرى نهراً غير عميق تبدأ عنده أدغال مكتظة تغطي الأعالي الصوانية التي تمضي إلى لقاء سلسلة القفقاس الكبرى. لقد جلسنا على الزاوية من نتوء في الحصن بارز. فكان ذلك يتيح لنا أن نرى كل ما قد يقع في الجهتين. وأنا لفي ذلك، إذا أنا ألمح رجلاً يمتطي جواداً أشهب، يخرج من الغابة، ويقترب حتى يصبح على مسافة من القلعة لا تتجاوز مائة ذراع، ثم يتوقف وراء النهر، يلفت حصانه بحركة فيما يشبه الجنون. ما معنى هذا؟

ـ أنظري، يا بيلا، بعينيك الفتيتين، إلى هذا الفارس تُرى ما جاء يصنع هنا؟

فنظرت بيلا حيث أنظر، وهتفت:

ـ هذا كازبتش!...

ـ آه من هذا اللص! أهو يسخر منا؟ وأنعمت النظر، فعرفت فيه حقاً كازبتش، بسحنته الغبراء. رأيته قذراً كما كان، ورأيت ثيابه رثة خلقة كما كانت أيضاً.

وصرخت بيلا وهي تمسك بيدي:

ـ هذا حصان أبي.

وأخذت ترتعد ارتعاد ورقة من أوراق الشجر والتمعت عيناها بشرر. قلت في نفسي: «ها ـ ها! أفأنت أيضاً، أيتها الصغيرة، تجري في عروقك دماء قُطّاع الطرق!».

وناديت الخفير، وقلت له:

ـ صوب بندقيتك، واقتل لي ذلك الرجل الباسل هناك، إذا أردت أن تربح روبلاً من فضة!

ـ أمرك مطاع يا صاحب المعالي، ولكن الرجل لا يستقر في مكان.

ـ قل له إذن أن يهدأ.

قلت ذلك ضاحكاً.

وصاح الخفير وهو يحرك يده:

ـ أيها الصديق! قف قليلاً، ما لك تدور كما تدور الدوامة.

ووقف كازبتش ليصيخ بسمعه. كان يحسب أن الخفير يريد أن يحادثه... طبعاً! وسدد الجندي الممتاز بندقيته وأطلق النار. طاشت الرصاصة. فما كاد يشتعل البارود، حتى كان كازبتش قد دفع حصانه، وجعله يثب من جانب، ثم اعتلى ركابه، وصرخ ببعض الكلام، ورفع سوطه بحركة من يهدد، ومضى لا يلوي على شيء.

قلت للخفير:

ـ ألا تخجل؟

فأجابني مبرراً فشله بقوله:

ـ لقد أصبته ولكنه لم يسقط هنا وإنما ذهب ليلقى مصرعه في مكان آخر، يا صاحب المعالي. إذ لا سبيل إلى قتل هؤلاء الشياطين بإصابة واحدة.

وعاد بتشورين من صيده بعد ربع ساعة. فوثبت بيلا إلى عنقه، بلا شكوى ولا عتاب لغيابه الطويل... أما أنا فكنت ساخطاً عليه. فقلت:

ـ هل تعرف أن كازبتش كان هنا وراء النهر منذ بضع دقائق، وأننا أطلقنا عليه النار؟ كان يمكن أن يلقاك منذ برهة، وهؤلاء

الجبليون لا ينقضي حقدهم. هل تظن أنه لم يُقدِّر أنك ساعدت عزمت؟ وأني لأراهن على أنه عرف اليوم بيلا. أنا أعرف أنها كانت تعجبه كثيراً منذ سنة. فلقد صارحني هو نفسه بهذا. ولو كان يأمل بجمع مهر كاف، إذن لطلب يدها، ما في ذلك شك...

واستغرق بتشورين في التفكير، ثم أجاب:

ـ نعم يجب أن نكون أشد حذراً... يا بيلا، لا تصعدي إلى السور بعد اليوم!

وفي تلك الليلة قام بيني وبينه حديث طويل. كان يؤلمني أن أرى أن شعوره نحو هذه الفتاة البائسة قد تغير. لقد صار ينفق نصف وقته في الصيد، وفترت عاطفته، وأصبح لا يحبها كما كان يحبها من قبل. وكانت تهزل هزالاً واضحاً، وشحب وجهها الصغير كثيراً، وفقدت عيناها ما فيهما من بريق.

فكنت أسألها في بعض الأحايين:

ـ لماذا تتنهدين يا بيلا، أأنت حزينة؟

ـ لا.

ـ هل ترغبين في شيء؟

ـ لا.

ـ هل بك حنين إلى أهلك؟

ـ لم يبق لي أهل.

وكان يتفق أن ينقضي النهار بكامله لا أستطيع أن أنتزع منها غير «نعم» و«لا». وتحدثت في هذا إلى بتشورين. فأجابني بقوله:

ـ اسمع يا مكسيم مكسيمتش. إن لي طبعاً رديئاً، لا أدري هل يعود ذلك إلى تربيتي أم إلى أن الله خلقني هكذا. ولكنني

أعرف أنني إن كنت أسبب شقاء لغيري، فلست من ذلك في سعادة. وليس في هذا كبير عزاء لهم، ولكن الأمر هو ذاك. في شبابي، منذ تحررت من وصاية أبوي، أخذت أتمتع بجميع ما يمكن الوصول إليه بالمال من الملذات. وانتهيت، بطبيعة الحال، إلى الاشمئزاز من جميع تلك الملذات. ثم دخلت مجتمع الطبقة الراقية، ولكنني سرعان ما سئمت منه. ووقعت في غرام عدد من حسناوات ذلك المجتمع، ووقعن هن في غرامي. ولكن هذا الغرام ما كان يزيد على أن يذكي خيالي وحبي لنفسي، أما قلبي فظل خاوياً... وعندئذ أخذت أقرأ وأتثقف. ولكنني نفرت من العلوم أيضاً، فقد رأيت أن المجد والسعادة لا يتوقفان عليها، لأن أسعد الناس جهلاء، ولأن المجد رهن بالحظ، ولا حاجة للمرء إلا إلى البراعة إذا شاء الوصول إليه... وغدوت ضجراً. ثم ما لبثت أن أُمرت بالرحيل إلى القفقاس: ـ تلك أسعد لحظة في حياتي. كنت أظن أن الضجر لا سبيل له إلى النفس تحت رصاص التشتشينيين: ولكن ظني أخطأ، فما كاد ينقضي شهر واحد حتى ألفت أزيز الرصاص ومجاورة الموت، وصرت أهتم بذلك كله أقل مما أهتم بدندنة الذباب... وغدوت أشد ضجراً مما كنت في أي عهد مضى، لأنني فقدت هنالك آخر أمل. وحين رأيت بيلا في غرفتي، حين وضعتها على ركبتي أول مرة، وقبَّلت ضفائرها السود، شعرت ـ ويا لها من غباوة ـ أن القدر قد رحمني، فأرسل إليّ هذا الملاك، ينتشلني مما أنا فيه. لقد أخطأت الظن هذه المرة أيضاً. إن حب هذه الصغيرة المتوحشة ليس أفضل كثيراً من حب سيدة. فهذه تزعجني ببساطتها وسذاجتها مثلما تزعجني تلك بتكلفها وتغندرها. إنني ما أزال أحب بيلا، إن

شئت. ولن أنسى لها لحظات كانت عذبة حقاً، وإني قادر على أن أضحّي بحياتي من أجلها. ولكن البقاء إلى جانبها يضجرني. لا أدري أأنا أحمق أم أنا وغد. ولكن هناك شيئاً لا مراء فيه، وهو أنني جدير بالشفقة، ولعلني أجدر بها منها. إن لي نفساً أفسدَتْها حياة المجتمع الراقي وخيالاً قلقاً، وقلباً لا يشبع من جوع، لا شيء يرويني. فسرعان ما آلف الألم واللذة كليهما. وإن وجودي ليزداد فراغاً يوماً بعد يوم. ولم يبق لي إلا مخرج واحد: السفر. وسأسافر متى استطعت ذلك. غير أنني لن أسافر إلى أوروبا، وقاني الله شر ذلك. بل أسافر إلى أمريكا، أو إلى جزيرة العرب، أو إلى الهند. وقد أقضي نحبي في الطريق! ولكنني أحسب، على الأقل، أن هذه السلوى الأخيرة لا تنفد سريعاً، بفضل العواصف والطرق الوعرة.

واسترسل في مثل هذا الكلام مدة طويلة، ولقد رسخت أقواله في ذاكرتي، لأنني ما سمعت قبل ذلك كلاماً مثل هذا الكلام من فتى في سنه، وأرجو الله أن لا أسمع مثله طوال حياتي... أمر لا يصدق. ولكن قل لي، أنت الذي كنت في العاصمة منذ مدة غير طويلة فيما أظن، هل كل الشباب هناك يشبهون هذا الشاب؟

فأجبته بأن كثيرين يقولون ما يقول، وربما كان بينهم من يقوله صادقاً؛ وأن زوال الافتتان هذا قد نشأ، كسائر الدُّرْجات، في أعلى طبقات المجتمع، ثم هبط إلى أدناها حتى صار مبتذلاً؛ وأن اللذين يشعرون اليوم بالضجر حقاً أكثر من غيرهم يحاولون إخفاء هذا الداء على أنه آفة وعيب.

ولم يفهم الرئيس هذه الأمور المرهفة، فهز رأسه، وابتسم ابتسامة متخابثة، وهو يقول:

ـ لعل الفرنسيين هم الذين جعلوا الضجر موضة؟

ـ بل هم الإنجليز.

ـ هل... حقاً لقد كان الإنجليز دائماً سِكِّيرين عربيدين!...

ولم أستطع أن أمتنع عن التفكير في تلك السيدة الموسكوفية التي كانت تؤكد أن بايرون لم يكن إلا سِكِّيراً. إن الرئيس يعذر أكثر مما تعذر تلك السيدة: فهو يريد أن يمتنع عن الشراب، فلا عجب إن حاول أن يقنع نفسه بأن كل ما في الدنيا من شرور مردّه إلى السكر.

وأردف الرئيس يكمل سرد قصته بقوله:

ـ ولم يظهر كازبتش بعد ذلك. غير أنني (لا أدري لماذا) ما كنت أستطيع أن أطرد من ذهني هذه الفكرة، وهي أنه لم يجىء إلى القلعة عبثاً، وأنه يدبر أمراً.

وفي ذات يوم، أصر بتشورين على أن أصحبه إلى صيد الخنازير البرية. فرفضت في أول الأمر... إذ لم أر في حياتي خنزيراً برياً. ولكنه استطاع أخيراً أن يجرني إلى ما أراد. فمضينا في الصباح يصحبنا خمسة جنود. وظللنا حتى الساعة العاشرة نجوس القصب والغابة، من دون أن نعثر على شيء. قلت له: «ألا نعود؟ لماذا العناد؟ لقد كتب علينا أن لا يسعفنا اليوم حظ!» ولكنه كان لا يريد أن يعود خاوي الوفاض، رغم الحرارة والتعب... هكذا خلق: إذا عزم على شيء، لا يرجع عنه قيد أنملة. لا شك أن أمه قد أفسدته بالدلال في صغره... وفي نحو الظهر، وقعنا أخيراً على واحد من هذه الخنازير البرية اللعينة. وأطلقنا النار... ولكن الخنزير كان قد ولى الإدبار بين القصب. كان الحظ يصر

على أن لا يواتينا في ذلك اليوم... وبعدما استرحنا قليلاً، قفلنا راجعين.

كنا نسير جنباً إلى جنب صامتين، وقد أرخينا الأعنة. وفيما نحن على وشك الوصول (وكانت بعض الأشجار تخفي القلعة عنا) إذا نحن نسمع صوت رصاص ينطلق... فتبادلنا النظر، وراودتنا شبهة واحدة، فعدونا نحو الجهة التي جاء منها الصوت. رأينا الجنود يهرعون على السور جماعة، ويشيرون إلى شيء في السهل: إنه فارس يهرب سريعاً، ويحمل على سرجه شيئاً أبيض، فصرخ بتشورين صرخة حادة يحسده عليها أي تشتشيني، واستل بندقيته من جرابها، واندفع وراء الفارس، وتبعته.

ومن حسن الحظ أن خيلنا لم تكن مكدودة من الصيد، فكانت تنهب الأرض نهباً، فإذا المسافة بيننا وبين الفارس الهارب ما تنفك تتناقض... وأخيراً عرفت أن الفارس هو كازبتش، ولكنني لم أستطع أن أميِّز ما يحمل. فاندفعت بحصاني حتى حاذيت بتشورين، وصحت به: «هذا كازبتش»، فنظر بتشورين إليّ، وهزّ رأسه، وجلد حصانه.

وأصبحنا من كازبتش على مرمى البندقية. عبثاً يحاول أن يسرع. كان حصانه لا يتقدم إلا في مشقة، إما لأنه متعب، وإما لأنه دون خيلنا. لا شك أنه تذكر في تلك اللحظة حصانه السابق كاراخيز.

ورأيت بتشورين يسدد إليه وهو يعدو... فصحت به «لا تطلق النار، احتفظ بطلقتك، فسندركه!» آه من هؤلاء الشباب الذين يتحمسون حين لا تجب الحماسة!... وانطلقت الرصاصة،

فحطمت إحدى قدمي الحصان، فما سار بضع قفزات بقوة اندفاعه، حتى كبا ثم خرّ على ركبتيه. ووثب كازبتش على الأرض، فرأينا أنه يحمل بين ذراعيه امرأة يغطيها حجاب أبيض. إنها بيلا. مسكينة بيلا! وصاح كازبتش يقول لنا بلغته كلاماً لم نفهمه، ثم أشهر على بيلا خنجره... لم يبق من الوقت لحظة نضيِّعها، فأطلقت أنا النار من دون أن أخطىء الهدف. أعتقد أن الرصاصة أصابته في كتفه، لأن ذراعه ما لبثت أن سقطت... فلما تبدد الدخان، رأينا الحصان الجريح مجندلاً على الأرض، ورأينا بيلا إلى جانبه. أما كازبتش فكان قد ترك بندقيته، وراح يتسلق إحدى الصخور متسللاً بين الشوك كالهر. كنت أرغب في أن أسقطه، ولكن وقتي لا يتسع لشحن بندقيتي. فوثبنا إلى الأرض، وهرعنا نحو بيلا. كانت المسكينة بلا حراك، وكان الدم ينزف من جرحها غزيراً... كان في وسع هذا الوغد أن يطعنها في قلبها، فينتهي كل شيء فوراً... ولكنه طعنها في ظهرها!... إنها لطعنة لص من قُطَّاع الطرق حقاً!

كانت قد غابت عن وعيها، فمزقنا حجابها، وعصبنا جرحها بقوة. عبثاً أغرق بتشورين شفتيها الباردتين بقبلاته، فما من شيء كان يمكن أن ينعشها.

وعاد بتشورين إلى سرجه، فحملت إليه بيلا ووضعتها بين ذراعيه، وقفلنا راجعين إلى القلعة. وبعد بضع دقائق من صمت، قال لي بتشورين: «اسمع يا مكسيم مكسيمتش، إذا نحن سرنا بهذه الخطى البطيئة، فلن نصل بها حية»، فأجبته قائلاً: «هذا صحيح»، وأخذنا نعدو. كان ينتظرنا عند أبواب القلعة جمهور غفير. فحملنا بيلا، في كثير من الاحتراز، إلى بيت بتشورين، وأرسلنا نستدعي

الطبيب. كان الطبيب سكران، ولكنه جاء، فأعلن بعد أن فحصها أنها لن تعيش أكثر من يوم واحد. ولكنه كان مخطئاً. . .

قلت للرئيس وأنا أتناول يده بفرح لم أستطع أن أكبحه:

ـ وهل شفيت؟

فأجابني قائلاً:

ـ لا . . . ولكن الطبيب كان مخطئاً، لأنها عاشت يومين لا يوماً واحداً.

ـ ولكن كيف استطاع كازبتش أن يختطفها؟

ـ الأمر بسيط: لقد تركت القلعة وذهبت إلى النهر، رغم أن بتشورين منعها من ذلك. وكان الجو حاراً. فجلست على صخرة، وأغطست قدميها في الماء. اقترب منها كازبتش خلسة، فأمسك بها، وكمّ فمها، وحملها إلى الغابة، ثم وثب بها إلى حصانه، وولّى هارباً. صرخت، فأطلق الخفراء صفارة الإنذار، وأطلقوا عليه الرصاص، ولكنهم أخطأوه، وفي أثناء ذلك وصلنا نحن.

ـ ولكن لماذا أراد كازبتش أن يختطفها؟

ـ لماذا؟ إن هؤلاء الشراكسة رجال نهب وسلب، لا يستطيعون أن يمتنعوا عن مد أيديهم إلى أي شيء، ولو كان غير ذي فائدة. . . هذي طباعهم، ولا يمكن تقويمها! ثم إن بيلا تعجبه منذ مدة طويلة.

ـ وماتت بيلا؟

ـ نعم بعد أن تألمت كثيراً، وبعد أن آلمتنا كثيراً. ففي نحو الساعة العاشرة من المساء، عاد إليها وعيها، وكنا جالسين على حافة سريرها، فما أن فتحت عينيها حتى نادت بتشورين. فأجابها

وهو يمسك بيدها: أنا هنا ـ جانيتشكا! (هذا بلغتهم كقولنا بلغتنا «يا حبيبتي»).

ـ سأموت!

وحاولنا أن نهدىء روعها، فأكدنا أن الطبيب أقسم ليشفيها. فهزت رأسها، واستدارت إلى جهة الدار: كانت لا تريد أن تموت!...

وفي الليل أخذت تهذي. كان رأسها يحترق. وكانت تنتابها أحياناً قشعريرة من الحمى، تهز جسمها هزاً قوياً. وراحت تقول كلاماً مضطرباً يدور على أبيها وأخيها... تريد أن ترى جبالها، وأن تعود إلى بيتها... ثم تكلمت عن بتشورين، فكانت تناديه بأرق الأسماء أو تعاتبه على أنه أصبح لا يحب جانيتشكا كما كان يحبها من قبل...

وكان بتشورين يصغي إليها صامتاً، وقد وضع رأسه بين يديه. ولكن ما من دمعة ترقرقت في عينيه خلال ذلك كله. ألأنه كان عاجزاً عن البكاء؟ ألأنه كان يسيطر على نفسه؟ لا أدري. أما أنا فلم أر في حياتي شيئاً أجدر من هذا المشهد بالرثاء.

فلما طلع الصبح ما عادت تهذي. وظلت خلال ما يقرب من ساعة، ساكنة، شاحبة، ضعيفة لا يكاد يرى المرء أنها تتنفس. ثم شعرت أنها أحسن حالاً، فأخذت تتكلم. ولكن هل تدري ماذا قالت؟ إن فكرة كهذه لا يمكن أن تراود إلا شخصاً يحتضر... قالت إنها تأسف على أنها ليست مسيحية، ذلك لأن روحها وروح بتشورين لن تلتقيا في العالم الآخر، وأن امرأة أخرى ستكون خليلته في الجنة. فبدا لي أن أنصِّرها قبل أن تموت، فاقترحت عليها

ذلك، فنظرت إليّ، مدة طويلة، مترددة لا تستطيع أن تقول كلمة... ثم أجابت بقولها: بل أموت على ديني الذي ولدت عليه. وانقضى على هذا النحو نهار بكامله. ما أشد ما تغيرت في هذه الساعات القليلة؟ لقد تجوّف خداها الشاحبان، واتسعت عيناها، وجفَّت شفتاها... كان ثمة ما يحرق جوفها، كأن في صدرها ناراً حامية.

ثم جاء الليل. لم يغمض لنا جفن، ولم نتركها لحظة واحدة. كانت تتألم ألماً هائلاً، وتئن، وكانت، متى هدأ ألمها قليلاً، تحاول أن تقنع بتشورين بأنها أحسن حالاً، وتتوسل إليه أن يمضي إلى فراشه وينام. وكانت تلثم يده وتظل ممسكة بها. وفي الصباح استبد بها الخوف من الموت، فأخذت تضطرب، وانتزعت ضمادها فعاد الدم ينزف من جرحها، وأعدنا تضميد الجرح. فهدأت قليلاً، وطلبت إلى بتشورين أن يقبِّلها. فركع بتشورين إلى جانب السرير، وأنهض رأس المحتضرة، وألصق فمه بشفتيها اللتين أخذ البرد يدب فيهما، فأحاطت عنقه بذراعيها المرتجفتين، كأنها تريد في هذه القبلة أن تسلمه روحها... لقد أحسنت بموتها صنعاً! وإلا كيف كانت تصبح لو هجرها بتشورين، وهذا ما كان لا بد أن يقع في يوم من الأيام!...

وفي صباح الغد، ظلت هادئة، صامتة، طيِّعة، رغم جميع لزقات طبيبنا، وجميع جرعاته. قلت للطبيب: «ألم تقل إنها لن تعيش؟ فما فائدة جميع هذه الأدوية إذن؟» فأجابني بقوله: «لراحة الضمير، يا مكسيم مكسيمتش»، نعم الضمير!

وبعد الظهر أخذت تتألم من العطش. ففتحنا النافذة، ولكن

الجو كان في خارج الغرفة أشد حرارة. فوضعنا إلى جانب سريرها ثلجاً، فلم يُجْدِها ذلك شيئاً. كنت أعلم أن هذا الظمأ الشديد دليل على أن النهاية قد شارفت، ونبهت بتشورين إلى ذلك.

ـ أعطوني ماء، أعطوني ماء...

هذا ما كانت تقوله بصوت أجش، وهي تنهض قليلاً.

وأصبح بتشورين شاحباً كالبياض، فتناول كأساً ملأه بالماء، وناولها إياه. فغطيت عيني بيدي، وأخذت أتلو دعاء لا أذكر الآن ما هو... نعم، أيها السيد الطيب، لقد رأيت قبل ذلك أناساً يموتون، في مستشفيات عسكرية أو في ساحة القتال. ولكن شتان. ويجب أن أعترف لك مما زاد ألمي أنها قبل موتها لم تذكر اسمي مرة واحدة... وكنت مع ذلك أحبها حب الأب لابنته!... ولكن سامحها الله... فما كان لها أن تذكرني ساعة الموت!...

وشعَرت براحة بعد أن شربَت الماء. وما هي إلا دقائق ثلاث حتى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة... وقربت من شفتيها مرآة، فظلت المرآة صافية!... فأخرجت بتشورين، وذهبت به إلى السور... وظللنا نمشي مدة طويلة جنباً إلى جنب من دون أن ينبس أحدنا بكلمة. كان وجهه لا يعبِّر عن شيء خاص. وشعرت من ذلك بشيء من الأسف: فلو كنت مكانه إذن لمت حسرة! وجلس أخيراً على الأرض، في الظلام، وأخذ يخط شيئاً على الرمل بقطعة من الخشب. وأردت أنا ـ على سبيل اللياقة في حقيقة الأمر ـ أن أواسيه، فإذا هو يرفع رأسه، وينفجر ضاحكاً... شعرت بقشعريرة في ظهري، ومضيت أوصي بالتابوت.

أعترف لك بأنني ما توليت الاهتمام بهذا الأمر، إلا لأسلو.

وكان عندي حرير، فغطيت به التابوت، ثم زينته بشرائط كان بتشورين اشتراها لها.

وفي الصبح من الغد، دفناها عند ضفة الساقية، وراء القلعة، غير بعيد من المكان الذي جلست إليه آخر مرة. كانت أشجار الأكاسيا والبيلسان تحيط بالقبر. وددت لو أغرس على قبرها صليباً، ولكنني لم أجرؤ أن أفعل، لأنها ليست مسيحية على كل حال...

ـ وبتشورين؟

ـ بتشورين ظل مريضاً مدة طويلة، وهزل كثيراً، هذا الفتى المسكين. ولكننا لم نتحدث بعد ذلك عن بيلا. كنت أعلم أن ذلك يحز في نفسه، فعلام أتحدث إذن عنها؟ وبعد ثلاثة أشهر نقل إلى فوج ي...، فسافر إلى جورجيا، ولم أره بعد ذلك... وقيل لي أخيراً أنه عاد إلى روسيا، ولكن ذلك لم يذكر في البلاغات. ثم إن الأخبار تصلنا متأخرة جداً.

وهنا اندفع في كلام طويل لا ينتهي، عن انزعاجه من أن الأنباء لا تصل إلا بعد سنة كاملة. لعله كان يريد أن يخنق ذكرياته الحزينة.

فتركته يتكلم، من دون أن أصغي إليه.

واستطعنا بعد ساعة أن نستأنف سيرنا، فقد هدأت الزوبعة، وصفا أديم السماء. وفي الطريق أدرت الحديث مرة أخرى على بيلا وبتشورين. قلت:

ـ ولا تعرف ماذا حل بكازبتش؟

فقال:

ـ لا أعرف ماذا حل به. ولكنني سمعت أخيراً من يقول إن

هناك على طرفنا الأيمن، لدى شابسوغ[12]، رجلاً متهوراً اسمه كازبتش، يرتدي جلباباً أحمر، ويذهب ويجيء تحت وابل رصاصنا من دون أن يستحث خطاه، حتى إذا مرت رصاصة على مقربة منه، حيَّاها في أدب. ولكنني لا أظن أنه هو نفسه.

وافترقنا في كوبي. فلقد ركبت عربة البريد، ولم يستطع هو أن يتبعني لكثرة أحماله. وما كنا نظن أننا سنلتقي بعد ذلك. ولكننا التقينا. فإن شئتم قصصت عليكم ذلك. إنها لحكاية طويلة... ولكن اعترفوا أن لمكسيم مكسيمتش حقاً في تقديركم واحترامكم، فعندئذ أكافأ كل المكافأة على قصتي التي قد تكون طويلة بعض الطول.

- 2 -

مكسيم مكسيمتش

بعد أن استأذنت مكسيم مكسمتش بالسفر، اجتزت مضيقي تيريك وداريال عَدْواً، أفطرت في كازبك، ثم تناولت الشاي في لارس، ووصلت إلى فلاديقفقاس في وقت العشاء. سأعفيكم من وصف الجبال، ومن عبارات الدهشة، ومن رسم اللوحات، فهي جميعاً لا تمثل شيئاً (ولا سيما لمن لم يكن يوماً في تلك المناطق)، وسأعفيكم من الملاحظات التي لن يقرأها أحد.

لقد نزلت في الفندق الذي ينزل فيه جميع المسافرين، والذي ليس فيه أحد تأمره بدراج أو بحساء. فإن العجزة الثلاثة الذين عُهِد إليهم بالبيت كانوا أكثر غباء أو أكثر سكراً من أن نستطيع الحصول منهم على شيء.

وقال لي هؤلاء أن عليّ أن أمكث هنالك ثلاثة أيام، لأن «الفرصة» لم تصل بعد من ييكاتيرينوجراد فلا يمكن أن تعود إليها. يا لها من فرصة!... والروسي لا تسليه نكتة باردة لذلك عمدت، على سبيل التسلية، أن أبسط على الورقة قصة بيلا التي رواها لي مكسيم مكسيمتش، من دون أن يدور بخلدي أنها ستكون بداية سلسلة طويلة من القصص: فانظروا كيف يمكن أن يكون لظرف طارىء تافه من سوء العواقب!... ولكن لعلكم تجهلون ما هي «الفرصة»؟ إنها عدد من الخفراء هو نصف سرية من المشاة وقطعة

من المدفعية تصاحب النقليات عبر كاباردا، من فلاديقفقاس إلى ييكاتيرينوجراد.

وضجرت في اليوم الأول كثيراً. حتى إذا جاء الصباح من الغد، رأيت عربة تدخل ساحة النُّزل... ها إنه مكسيم مكسيمتش!... وتلاقينا كما يتلاقى صديقان قديمان. واقترحت عليه أن يشاركني غرفتي، فقبل بلا كلفة حتى ربت على كتفي، وتجعد وجهه بابتسامة. ما أكثر ما كان مضحكاً!...

وكان لمكسيم مكسيمتش معرفة عميقة بفن الطهي: فشوى دراجاً، وبدا له أن يرشها بماء الخيار المملح، فكانت فكرة موفقة يجب أن أعترف أنني لولاه ما أكلت شيئاً ساخناً. وساعدتنا زجاجة من خمر كاخيتيا على أن ننسى أن ليس ثمة إلا طبق واحد. ثم أشعل كل منا غليونه وجلسنا، أنا بالقرب من النافذة، وهو بالقرب من الموقد الذي أشعلناه لأن النهار كان بارداً ورطباً. وصمتنا. وما عسى أن نقول؟ لقد قصّ عليّ كل ما قد وقع له من حوادث شائقة ولم يكن لديّ أنا ما أقصه عليه. ونظرت من النافذة. هذه بيوت صغيرة واطئة كثيرة تتناثر وراء الأشجار على طول تيريك الذي أخذ يزداد في هذا المكان عرضاً؛ وهذا خط الجبال المسنن يبدو من بعيد أزرق اللون، ووراءه يظهر كازبك بقبعته البيضاء كقبعة الكاردينال. وأخذت أودع هذه الأمكنة بيني وبين نفسي، وكنت أشعر منذئذ بالأسف لفراقها...

وظللنا على هذه الحال مدة طويلة. كانت الشمس تختبىء وراء الذرى المتجلدة، وكان ضباب بلون اللبن ينتشر فوق الوديان، حين سمعنا جرس مركبة يرن في الشارع، وسمعنا صرخات السائقين. ودخلت ساحة النزل عدة مركبات تصحبها جماعة من

الأرمن قذرة، وتتبعها عربة ذات مظلة خفيفة، رشيقة، أنيقة، يبدو أنها صنعت في الخارج. وكان يمشي وراءها رجل ذو شاربين طويلين، يرتدي سترة من الطراز المجري، وتبدو عليه أمائر الخادم الراقي. يستحيل أن يخطىء المرء في رتبته متى رأى طلاقته في هز رماد غليونه وصراخه وراء السائق: لا شك أنه خادم مدلل لسيد كسول ولا شك أنه نوع من فيغارو روسي.

فهتفت به من النافذة:

ـ إيه أيها الصديق، أهذه هي «الفرصة» تصل؟

فنظر إليّ في شيء من العجرفة، وأصلح ربطة عنقه، وأشاح بوجهه عني. وكان يسير إلى جانبه رجل من الأرمن فأجابني، وهو يبتسم، بأنها هي «الفرصة» حقاً، وأنها ستسافر في صباح الغد.

قال مكسيم مكسيمتش، وهو يقترب من النافذة:

ـ هذا حسن!

ثم أضاف:

ـ ما أجمل هذه العربة! لا شك أن صاحبها موظف كبير، ذاهب إلى تفليس للتفتيش. وواضح أنه لا يعرف جبالنا. أؤكد لك، غير مازح، أن هذه العربة لن تمضي بعيداً، حتى ولو كانت قد صنعت في إنجلترا... دعنا نعرف من هو...

وخرجنا من الدهليز. كان في آخر الدهليز باب ينفتح على غرفة جانبية رأينا الخادم والسائق يحملان إليها الحقائب. صاح الرئيس:

ـ قل لي، أيها الصديق، لمن هذه العربة الجميلة؟... هه؟... إنها لرائعة حقاً!...

فدمدم الخادم ببضع كلمات لم نفهمها، من دون أن يلتفت إلينا، وهو يحل إحدى الحقائب. فغضب مكسيم مكسيمتش، فأمسك بالرجل غير المؤدب من كتفه وقال:

ـ اسمع، يا صاحبي، إليك أوجه الكلام.

ـ هذه العربة؟... إنها لسيدي...

ـ من هو سيدك؟

ـ بتشورين...

ـ بتشورين؟ هل قلت بتشورين؟...

ـ هتف مكسيم مكسيمتش بذلك، وهو يشدني من كمي، وأشرقت عيناه ببريق من الفرح.

فأجابه الخادم بقوله:

ـ أظن أنه كان في القفقاس، لست في خدمته إلا منذ مدة قصيرة...

ـ حسن؟ واسمه جريجوري ألكسندروفتش؟... أليس كذلك؟... إن سيدك صديقي؟ قال ذلك ثم هوى على كتف الخادم بضربة ودية جعلته يترنح.

فقطب الخادم ما بين حاجبيه، وقال:

ـ من فضلك، يا سيد، إنك تزعجني.

ـ هوّن عليك يا صاحبي؟ هل تعلم أننا كنا صديقين حميمين؟ أنا وسيدك، نتخاطب بصيغة المفرد؟ وأننا كنا في الخدمة معاً... ولكن هو، أين هو؟...

فأجاب الخادم بأن بتشورين نزل في بيت الكولونيل ن... للعشاء وقضاء الليلة.

ـ ألا يأتي إلى هنا هذا المساء؟ ألا تذهب أنت إلى هناك لأمر من الأمور؟ قل له، إذا ذهبت، إن مكسيم مكسيمتش هنا نعم، قل له ذلك فحسب... وسيعرف هو كل شيء. وسيكون أجرك على عنائك ثمانين كوبيكاً.

فمط الخادم شفته شزراً يحتقر هذا الوعد الطفيف، ولكنه رغم ذلك أكد لمكسيم مكسيمتش أنه سيبلِّغ سيده الرسالة.

قال لي مكسيم مكسيمتش وقد أشرق وجهه:

ـ سيأتي مهرولاً، سترى. أنا ذاهب إلى الشارع أنتظر. خسارة أنني لا أعرف ن...

ومضى فجلس على مقعد في خارج البيت. وعدت أنا إلى غرفتي. لا بد أن أعترف بأنني كنت، أنا أيضاً، أنتظر مجيء بتشورين بفارغ صبر فلئن كانت الصورة التي ارتسمت في ذهني عن شخصيته من حديث الرئيس ليست بالصورة المشرّفة كثيراً، فلقد كنت أرى في بعض ملامح طبعه أمارات بارزة تلفت النظر. وبعد ساعة من الزمان، جاء أحد العجزة يحمل السماور يغلي وإبريق الشاي.

فصحت بمكسيم مكسيمتش من النافذة أقول:

ـ مكسيم مكسيمتش، هل تريد شاياً؟

ـ لا، شكراً، ليس بي ظمأ.

ـ قدح واحد على الأقل، لقد تأخر الوقت، والجو بارد.

ـ لا، لا، شكراً...

ـ لك ما تريد!

وتناولت الشاي وحدي. وبعد عشر دقائق، عاد الرئيس العجوز، وهو يقول:

ـ إنك على حق، فمن الأفضل أن أحتسي قدحاً من الشاي الساخن. ولكنني خفت أن أفوّته. . . لقد ذهب الخادم منذ مدة طويلة، لا شك أنه حبس عن المجيء.

وتجرع مكسيم مكسيمتش قدحاً من الشاي بسرعة عظيمة، ورفض أن يتناول قدحاً آخر، وعاد إلى مقعده، وقد بدت عليه علائم العصبية قليلاً. كان واضحاً أن عدم اهتمام بتشورين بالرئيس العجوز يحزنه أشد الحزن ـ لا سيما أنه كان يحدثني عن صداقتهما منذ قليل، وأنه كان قبل ساعة واحدة، على يقين من أن بتشورين سيهرع إليه متى سمع اسمه.

انقضى وقت طويل، وجاء الليل، ففتحت النافذة مرة أخرى، وناديت مكسيم مكسيمتش قائلاً إن ساعة النوم قد حانت. فدمدم ببعض الكلام، فكررت أدعوه إلى النوم، فلم يجب بشيء.

تمددت على الأريكة، وغطيت جسمي بمعطفي، وتركت الشمعة مشتعلة. وسرعان ما غفوت. كان يمكن أن أنام نوماً هادئاً لو لا أن مكسيم مكسيمتش أيقظني حين عاد في ساعة متأخرة من الليل. لقد رمى غليونه على المنضدة، وأخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ثم حرّك النار في الموقد واستلقى أخيراً لينام. غير أنني ظللت أسمعه، خلال مدة طويلة، يسعل، ويبصق، ويتقلب.

قلت له:

ـ هل يمنعك البق من النوم؟

فقال وهو يطلق زفرة حرّى:

ـ ها! نعم، هو البق.

واستيقظت في صباح الغد مبكراً، ولكن مكسيم مكسيمتش

كان قد سبقني، ووجدته خارج البيت جالساً على مقعده.

قال:

ـ يجب أن أذهب إلى الكومندان، فأرجوك إذا جاء بتشورين أن ترسل إليّ من يستدعيني.

فوعدته بذلك. فمضى يركض ركضاً، كأن أعضاءه قد استردت، فجأة، قوة الصبا ومرونةِ الشباب.

كان الصباح منعشاً جميلاً بين الإصباح. السُّحُب المذهَّبة تبدو فوق الجبال كأنها سلسلة أخرى من الذرى الساحرة. وعلى الجهة الأخرى من الساحة الواسعة التي تمتد أمام البيت، يعج السوق بالناس، لأن اليوم أحد. وأخذ يدور حولي صِبية أوسيتيون حُفاة، يحملون على ظهورهم سلالاً ممتلئة بأقراص العسل، فطردتهم شرّ طردة: كان في رأسي شيء آخر. لقد بدأت أقاسم رفيقي الرئيس الطيب قلقه.

وما انقضى على ذلك عشر دقائق حتى ظهر في الطرف الآخر من الساحة الشخص الذي كنا ننتظره. كان معه الكولونيل ن... صحبه حتى النُّزُل، ثم استأذنه، وعاد إلى القلعة. فأرسلت أحد العجزة فوراً، ينبيء مكسيم مكسيمتش بذلك.

وخرج الخادم إلى لقاء بتشورين، وأبلغه أنهم سيكدنون الخيل؛ ثم مدّ إليه علبة السيجار، وتلقى أوامره، ومضى. فأشعل السيد سيجاراً، ثم تثاءب مرتين، وجلس على المقعد أمام البيت. ينبغي لي الآن أن أصوّره لكم.

إنه متوسط القامة، ويدل قده الدقيق وكتفاه العريضان على بنية قوية تستطيع أن تتحمل جميع متاعب الحياة المترحلة، وجميع

تبدلات الجو، لم ينتصر عليها الإفراط في حياة المجون بالعاصمة، ولا العواصف النفسية الداخلية، وكان يرتدي ردنجوتا من المخمل علاه شيء من الغبار، ولم يربط من أزراره إلا الزران الأخيران، فكان يكشف عن قميص ناصع البياض، يدل على أن الرجل من وجهاء القوم... وكأن قفازيه قد صنعا خصيصاً ليديه الصغيرتين الأرستقراطيتين، فلما خلع أحدهما عجبت من نحول أصابعه الشاحبة. وكان يمشي بغير مبالاة. ولكنني لاحظت أنه لا يهز يديه، وهذه أمارة من أمائر الطبع الكتوم، ذلك رأي أقيمه على ملاحظاتي الشخصية، ولست أطمع في أن تقبلوه قبولاً أعمى. وحين جلس رأيت قامته المنتصبة المستقيمة تنثني كأن ليس له عمود فقري. وكان وضع جسمه كله يكشف عن شيء من الضعف العصبي، ويذكر بتلك المرأة الغندورة ذات الثلاثين عاماً التي وصفها لنا بلزاك جالسة على مقعدها المزين بالمخدات، بعد حفلة راقصة منهكة. إذا ألقيت عليه نظرة أولى لم تُقدِّر أنه تجاوز الثالثة والعشرين من عمره. ولكنك بعد أن تنعم فيه النظر تقدر عمره بثلاثين عاماً. وكان في ابتسامته شيء من معاني الطفولة وكان جلده ناعماً رقيقاً كأنه جلد امرأة. وكان شعره الأشقر المتجعد يحيط إحاطة جميلة بجبينه الشاحب الذي يفيض نبلاً والذي لا ترى فيه إلا العين مع آثار غضون متصالبة لا شك أنها تغدو أظهر وأوضح في ساعات الغضب والاضطراب. وكان شارباه وحاجباه سوداً، رغم أن شعره أشقر، وهذا يدل على نبل المحتد، كما يدل سواد اللبدة والذنب في الحصان الأصهب على أنه كريم العِرق. ويجب أن أذكر، إتماماً للصورة، أن أنفه مدبّب قليلاً، وأن أسنانه ناصعة،

وأن عينيه كستناويتان. ولكنني أحب أن أقول بصدد عينيه بضع كلمات:

ـ أولاً كانت عيناه لا تضحكان، حتى يضحك! هل أتيح لكم أن تروا هذا الأمر العجيب؟... إن هذا يدل إما على طبع رديء، وإما على حزن عميق دائم. كانت عيناه تلتمعان، من خلال أهدابه المغضية قليلاً، ببريق متوهج كتوهج الفوسفور، إن صح التعبير. وليس هذا البريق انعكاساً لروح حارة أو خيال ملتهب؛ وإنما هو بريق الفولاذ المصقول، يبهر ولكنه بارد. وكانت نظراته متحركة، ولكنها نافذة ثقيلة، تخلِّف فيك شعوراً مزعجاً بأنها نظرات تساؤل خفي، وكان يمكن أن تحس فيها الوقاحة، لولا أنها هادئة لا تبالي. هذه ملاحظاتي، ولعلها ما كانت لتدور في خلدي لولا أنني كنت أعرف من حياته بعض التفاصيل، ورب شخص آخر يشعر شعوراً مختلفاً عن شعوري كل الاختلاف. ولكن أحداً لم يحدثكم عنه غيري، فلا بد لكم من الاكتفاء بهذا الوصف الذي سقته. وينبغي أن أقول لكم، في الختام، إن له شخصية جميلة، وإن وجهه لهو من الوجوه الفريدة التي تعجب نساء المجتمع الراقي على الخصوص.

وقرنت الخيول، وأخذ الجرس يرن في رقابها، واقترب الخادم من بتشورين مرتين ليقول له إن كل شيء مهيأ ولم يصل مكسيم مكسيمتش بعد. ومن حسن الحظ أن بتشورين الذي تعلقت نظراته بقمم القفقاس المسننة الزرقاء كان مستغرقاً في تفكيره ولا يلوح عليه أنه يتعجل المسير.

ـ إذا تفضلت بالانتظار قليلاً، فلسوف يسرك أن ترى صديقاً قديماً.

فقال بسرعة:

ـ ها، نعم لقد قالوا لي ذلك أمس. ولكن أين هو؟ فالتفتت نحو الساحة، فإذا أنا أرى مكسيم مكسيمتش يركض بأقصى سرعة يستطيعها... وما هي إلا دقائق قليلة حتى كان إلى جانبنا. كان يلهث، وكان العرق يتصبب منه قطرات كبيرة، وكانت خصلات من شعره الرمادي قد أفلتت من تحت قبعته والتصقت بجبينه، وكانت ركبتاه تصطكان... أراد أن يرتمي على عنق بتشورين، ولكن بتشورين مد إليه يده في غير قليل من البرود، وإن يكن قد ابتسم له أيضاً ابتسامة لطيفة. فتجمد الرئيس لحظة، ثم شد على اليد الممدودة بكلتا يديه: لم يكن قادراً بعد على الكلام. قال بتشورين:

ـ ما أشد سروري برؤيتكم يا مكسيم مكسيمتش! ولكن كيف صحتكم؟

فدمدم العجوز يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

ـ وأنت؟... وأنتم؟... كم من السنين... كم من الأيام مضت ولم ير أحدنا الآخر!... ولكن إلى أين أنتم ذاهبون؟...

ـ أنا ذاهب إلى بلاد... فارس... وإلى أبعد من ذلك أيضاً...

ـ ولكن لا تذهبوا فوراً؟... انتظروا قليلاً يا عزيزي!... ليس يعقل أن نفترق بمثل هذه السرعة، بعد سنين كثيرة...

فكان كل جواب بتشورين أن قال:

ـ آن أوان ذهابي، يا مكسيم مكسيمتش.

ـ يا إلهي، يا إلهي! أين تسرعون هكذا؟ إن في نفسي أموراً يجب أن أقولها لكم... وأسئلة كثيرة يجب أن أطرحها عليكم...

إذن، لقد قدمتم استقالتكم؟ وماذا كنتم تفعلون خلال ذلك الوقت كله؟

فأجاب بتشورين مبتسماً:

ـ كنت أضجر؟

ـ وهل تتذكرون حياتنا في القلعة؟ ما كان أجمل تلك البلاد للصيد! هه؟ لأنكم كنتم تحبون الصيد أنتم... وبيلا؟

فاصفرَّ بتشورين قليلاً، وأدار وجهه، ثم قال:

ـ نعم، أتذكرها!

ثم لم يلبث أن تثاءب تثاؤباً حمل عليه نفسه حملاً. أراد مكسيم مكسيمتش أن يقنعه بالبقاء معه ولو ساعتين. قال: سنتناول غداءاً ممتازاً. عندي دراجان وخمر طيب من كاخيتيا... طبعاً، هو لا يعدل خمر جورجيا... ولكن هذا لا يمنع أنه مشهور... وسنتحدث... وستقصّون عليّ أخبار حياتكم في بطرسبرغ... أليس كذلك؟

ـ أؤكد لكم يا عزيزي مكسيم مكسيمتش أنه ليس لدي ما أقصه عليكم... وداعاً... آن لي أن أسافر... إنني مستعجل... ثم أضاف إلى ذلك، وهو يتناول يده:

ـ شكراً على أنكم ما نسيتموني.

فقطب العجوز حاجبيه... كان حزيناً غاضباً في آن واحد، وإن حاول أن لا يظهر من ذلك شيئاً. ودمدم متذمراً يقول:

ـ أنسى! أنا لم أنس شيئاً، أنا... إذن لن أحبسكم عن الذهاب... ما هكذا كنت أتصور أن ألقاكم...

فقال بتشورين وهو يعانقه في مودة وصداقة:

ـ هيا، هيا... أنا لم أزل من كُنته... ماذا تريدون؟ إن على كل امرىء أن يسير في طريقه... الله يعلم هل نلتقي بعد اليوم قط!...

ـ قال ذلك وهو يصعد عربته، وكان السائق قد جمع الأعنة وهمّ بالمسير.

فصرخ مكسيم مكسيمتش فجأة وهو يمسك بقبضة باب العربة، يقول:

ـ انتظر، انتظر! لقد نسيت... أوراقك التي بقيت عندي... ما زلت أحتفظ بها... كنت أظن أنني سألقاك في جورجيا... أما وأننا التقينا هنا... فماذا أصنع بها؟

ـ اصنع بها ما تشاء!... وداعاً...

فصاح مكسيم مكسيمتش مرة أخرى:

ـ أنت ذاهب إذن إلى بلاد فارس؟... ومتى تعود؟...

ولكن العربة كانت قد ابتعدت، فلوح بتشورين بيده كأنه يقول: قد لا نلتقي قط، وعلام نلتقي؟...

وانقضى وقت طويل، وأصبحنا لا نسمع رنين الجرس ولا قرقعة العجلات على أرض الطريق الحجري، ولكن العجوز المسكين ظل واقفاً في مكانه، غارقاً في تفكيره. وقال أخيراً:

ـ نعم، ـ كان يحاول أن يظهر بمظهر من لا يبالي، ولكني رأيت دموع الحسرة تلمع في أهدابه، ـ لا شك أننا كنا صديقين... ولكن هل بقي في أيامنا هذه أصدقاء؟... مَنْ أنا بالنسبة له؟ إنني لا أملك ثروة طائلة، ولا رتبة عالية. ثم إننا متفاوتان كثيراً في السن... ها قد رأيته، لقد أصبح على الموضة

منذ زيارته مرة أخرى ليطرسبرغ... يا لها من عربة! يا له من متاع! وهذا الخادم المتعجرف!...

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة. ثم التفت إليّ يسألني:

ـ ولكن قل لي أنت، ما رأيك في كل ذلك؟... ما ذهابه إلى بلاد فارس؟... أما أنا فهذا يضحكني!... كنت أعرف أنه رجل طائش لا يمكن الاعتماد عليه... ولكن يؤسفني مع ذلك أن ينتهي إلى أسوأ العواقب... لا بد مما ليس منه بد... لطالما قلت له: ماذا تنتظر من أولئك الذين ينسون أصدقاءهم؟...

ابتعد مكسيم مكسيمتش، ليخفي عني انفعاله، ومضى إلى الباحة يدور حول عربته، ويتظاهر بأنه يفحص عجلاتها، ولكن عينيه كانتا تمتلئان بالدموع في كل لحظة.

قلت له وأنا أقترب منه:

ـ مكسيم مكسيمتش، ما هي تلك الأوراق التي تركها لك بتشورين؟

ـ والله لا أعرف شيئاً! لعلها مذكرات...

ـ وما عسى أن تصنع بها؟

ـ ما أصنع بها؟ سأحشو بها الخراطيش.

ـ بل أعطني إياها.

فنظر إلي دهشاً، ثم دمدم بين أسنانه ببعض الكلام، وأخذ يبحث في طوايا حقيبته، ثم أخرج منها دفتراً ورماه على الأرض في ازدراء، ثم أخرج دفتراً ثانياً فثالثاً فعاشراً صنع بها كلها مثلما صنع بالأول. كان في غضبه شيء من غضب الأطفال؛ فكنت أشعر بالحاجة إلى الضحك وأشفق عليه في آن واحد.

قال:

ـ هي لك. أهنئك على هذه اللقطة...

ـ وهل أستطيع أن أصنع بها ما أشاء؟ اطبعها في الجرائد إذا أحببت... أما أنا فأسخر من ذلك كله. لست صديقه ولا قريبه... صحيح أننا عشنا مدة طويلة تحت سقف واحد... ولكنه، على كل حال، ليس الوحيد بين الناس...

فتناولت الأوراق، وذهبت بها بسرعة، خشية أن يعدل الرئيس عن رأيه. وجاء بعد قليل من يقول لنا إن «الفرصة» تسافر بعد ساعة فأمرت بكدن الخيل. ودخل عليّ الرئيس وأنا أضع قبعتي على رأسي تهيؤاً للرحيل فلم يبد لي أنه يتهيأ للسفر. كان وجهه عابساً بارداً.

ـ وأنت يا مكسيم مكسيمتش، ألا تسافر؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لم أر المقدم بعد وهناك أشياء يجب أن أنقلها إليه...

ـ ولكنك ذهبت إليه؟

فقال مرتبكاً:

ـ نعم ذهبت إليه، ولكنني لم أجده فلم أنتظره...

فهمت كل شيء: لعلها أول مرة في حياة العجوز يؤثر فيها **أمراً شخصياً**، كما يقال بلغة القراطيس، على أمور الخدمة... وانظر كيف كوفىء على ذلك! قلت له:

ـ إنه ليؤسفني، إنه ليؤسفني كثيراً، يا مكسيم مكسيمتش، أن نفترق بمثل هذه السرعة.

ـ نحن لسنا إلا شيوخاً جهالاً . . . أما أنتم فشباب من الطبقة الراقية. أنتم أناس متكبرون. . . ترضون أن تعاشرونا تحت رصاص الشراكسة، ولكنكم بعد ذلك تستحون أن تمدوا أيديكم إلينا.

ـ لا أستحق هذا التقريع يا مكسيم مكسيمتش!

ـ آ. . . ما قلت هذا من أجلك ثم إنني أتمنى لك كل أنواع السعادة، وسفراً ميموناً!

كان فراقنا جافاً بعض الجفاف. لقد غدا مكسيم مكسيمتش رئيساً عجوزاً متذمراً لا أكثر. لماذا؟ لأن بتشورين مد إليه مجرد يده، عن غفلة أو لأي سبب آخر، في حين أن مكسيم مكسيمتش كان يريد أن يعانقه، أن يثب إلى عنقه. إنه ليحزن المرء أن يرى شاباً في ريعان صباه يفقد أجمل آماله وأحلامه حين ترفع عن بصره الغشاوة الوردية التي كان ينظر من خلالها إلى أفعال الناس وعواطفهم. ولكن الشاب يمكن أن يستبدل بأوهامه القديمة أوهاماً جديدة، تنقضي كالأولى، ولكنها عذبة كالأولى. أما في سن مكسيم مكسيمتش فماذا يستبدل الإنسان بأوهامه القديمة؟ لا بد أن يقسو القلب، وأن تنغلق النفس. . .

وسافرت وحدي.

يوميات بتشورين

مقدمة

علمت منذ مدة قصيرة أن بتشورين مات بعد عودته من بلاد فارس. ولقد سرني هذا النبأ كثيراً، فهو يهب لي حق نشر هذه المذكرات. لقد استفدت منها فمهرت باسمي أثراً ليس لي. أرجو أن لا يؤاخذني القارىء على هذه السرقة الأدبية البريئة!

ويجب الآن أن أشرح قليلاً الأسباب التي حفزتني إلى أن أنشر في الناس أسراراً شخصية لرجل لم أعرفه أبداً. لو كنت صديق ذلك الرجل، لفهم كل إنسان ما يتصف به الصديق الحقيقي من إفشاء للأسرار خبيث. ولكنني لم أر الرجل إلا مرة واحدة في حياتي، حتى لقد رأيته على قارعة الطريق. فأنا إذن لا يمكن أن أكنَّ له ذلك الكره الذي لا يُفسَّر، ذلك الكره الذي يتقنع بقناع الصداقة، ولا ينتظر إلا أن يموت الشخص المحبوب أو أن يفجع حتى يصب على رأسه ألوان التقريع والنصح والسخر والأسف.

حين أعدت قراءة هذه المذكرات، اقتنعت بصدق هذا الرجل الذي كشف عن ضعفه وعن نقائصه بلا رحمة. ورُبَّ قصة نفس من النفوس مهما تكن صغيرة تكون أشيق وأنفع من قصة شعب بأسره، ولا سيما حين تكون ثمرة ملاحظات أجراها على نفسه فكر ناضج، ثم كتبها لا تدفعه إلى كتابتها رغبة عابثة في إثارة الدهشة والشوق في أنفس القراء. إن مما يعيب «اعترافات» روسو أنه كان يقرؤها لأصدقائه.

فالرغبة في نفع الناس هي وحدها التي دفعتني إذن إلى نشر هذه الأجزاء من يوميات ألقت بها الصدفة بين يديّ. ولقد غيرت جميع الأسماء، غير أن الأشخاص الذين يدور الكلام عليهم سيعرفون أنفسهم من غير شك، وقد يجدون في هذه المذكرات تبريراً لأفعال كانوا إلى هذا اليوم يأخذونها على شخص فارق هذا العالم ـ إننا نغفر ما نفهمه، نغفره دائماً تقريباً.

لم أضمِّن هذا الكتاب إلا ما له صلة بإقامة بتشورين في القفقاس. وقد بقي عندي دفتر كبير يروي قصة حياته كلها. وسأنشر هذا الدفتر أيضاً ذات يوم، ليرى الناس فيه رأيهم. ولكنني لا أجرؤ أن أتحمل هذه التَّبِعَة بعد، وذلك لأسباب كثيرة هامة.

ولعل بعض القراء يريدون أن يعرفوا رأيي في خُلُق بتشورين. إن عنوان الكتاب يتضمن الجواب. ورب قائل يقول: «ولكن في هذا سخرية قاسية». من يدري؟

1

تامان

لا شك أن تامان هي أسوأ مدينة صغيرة بين جميع المدن البحرية بروسيا. لقد كدت أموت فيها جوعاً، وأكثر من ذلك أنهم أرادوا إغراقي في تلك المدينة. وصلت مع البريد في ساعة متأخرة من الليل وأوقف السائق أحصنته المكدودة الثلاثة أمام البيت الحجري الوحيد الذي كان يقوم عند مدخل المدينة. كان الخفير، وهو قوزاقي من البحر الأسود، نائماً نصف نوم، فلما سمع رنين

جرسنا، استيقظ وصاح بصوت أجش: «من هذا؟»، وهرع نحونا وكيل ضابط مع ديسياتنيك[13] فشرحت لهما أنني ضابط، وأنني أسافر إلى الجيش المقاتل. وطلبت منهما أن يجدا لي مكاناً أبيت فيه. فقادني الديسياتنيك، وطاف بي المدينة كلها، ولكننا لم نستطع أن نجد عزبة واحدة خالية. وكان الجو بارداً، وكنت لم أعرف النوم منذ ثلاث ليال، كنت مرهقاً حقاً، فغضبت وصرخت:

ـ أيها اللص، خذني إلى حيث تريد، خذني إلى الشيطان إن شئت، على شرط أن تجد مكاناً!

فأجابني وهو يحك نقرته:

ـ بقي بيت واحد حقير، لن يعجبك يا صاحب المعالي. إنه مكان سيىء.

فأمرته بأن يقودني إليه، دون أن أفهم معنى قوله على وجه الدقة. فأخذ يطوف بي مدة طويلة في أزقة صغيرة قذرة لا أرى فيها على يميني وعلى شمالي إلا جدراناً متهدمة حتى وصلنا إلى بيت صغير على شاطىء البحر.

كان القمر بدراً، يضيء سقف مسكني الجديد، وهو سقف من قصب، ويضيء جدرانه البيضاء. وفي الباحة التي يحيط بها جدار، كان يقوم بيت حقير مائل، وهو أصغر وأقدم من البيت الأول، ويقع تقريباً على حافة منحدر وعر، ومن تحته تتلاطم الأمواج الزرقاء القاتمة، فتُحدِث هديراً لا ينقطع. كان القمر الهادىء يتأمل البحر الهائج الذي يطيعه. واستطعت أن أرى على ضوء القمر، بعيداً عن الشاطىء سفينتين تنتصب أجهزتهما السوداء ساكنة على خط الأفق الشاحب، كأنها نسيج العنكبوت. قلت في

نفسي «إن في المرفأ سفناً، وسأسافر غداً إلى غيليندجيك».

وكان ناصفي[14] قوزاقياً من جنود الجبهة، فأمرته بأن يأخذ حقيبتي وأن يصرف العربة. ثم ناديت صاحب البيت: فلم أسمع جواباً. وقرعت الباب فلم أسمع جواباً أيضاً. ما معنى هذا؟ وأخيراً خرج إليّ من الظلام صبي في نحو الرابعة عشرة من عمره. قلت له:

ـ أين صاحب البيت؟

فأجاب بروسية ركيكة:

ـ ليس له صاحب.

ـ كيف؟ ليس له صاحب؟

ـ نعم، ليس له.

ـ وصاحبة البيت؟

ـ ذهبت إلى الطرف الآخر من المدينة.

ـ ومن يفتح لي الباب؟

قلت ذلك وأنا أضرب الباب بقدمي، فانفتح من تلقاء نفسه. كانت تفوح من البيت رائحة الرطوبة. فأشعلت عود ثقاب، وقربته من وجه الصبي، فإذا أنا أرى عينين بيضاوين. كان الصبي أعمى، أعمى تماماً منذ الولادة. كان واقفاً أمامي بلا حراك. فأخذت أتفرس فيه.

يجب أن أعترف أنني أتطير من جميع العمي، والعور، والصم، والبكم، والمُقعَدين، ومن قُطعت أيديهم، ومن تحدبت ظهورهم، إلى آخر ما هنالك. فلقد لاحظت أن ثمة علاقة بين ظاهر الإنسان ونفسه، كأن فقد المرء عضواً من أعضائه يؤدي إلى فقدان مَلَكَة من ملكاته.

أخذت إذن أتفرس في وجه الأعمى. ولكن ما عسى أن يقرأ المرء في وجه بلا عينين؟ وكنت قد أطلت النظر إليه، مشفقاً على غير إرادة مني، حين لاحظت ابتسامة خفيفة لا تكاد تُرى، تطوف بشفتيه الدقيقتين، فأحدثت في نفسي تأثيراً مزعجاً إلى أبعد حدود الإزعاج: أهو يتظاهر بالعمى؟ وقلت لنفسي إن المرء يستحيل عليه أن يصطنع غشاوة على عينيه (وما عسى أن يقصد من ذلك؟)، ولكن الشك في ذلك ظل يراودني! وكثيراً ما تستبد بي ظنون كهذه... سألته أخيراً:

ـ أأنت ابن صاحب البيت؟

ـ لا.

ـ فمن أنت إذن؟

ـ يتيم، فقير.

ـ هل لصاحبة البيت أولاد؟

ـ لا، كانت لها بنت، ولكنها مضت إلى الطرف الثاني من البحر مع تتري.

ـ أي تتري؟

ـ لا أعرف أنا. هو تتري من القرم، ربان زورق من كرتش.

ودخلت الكوخ. كان كل أثاثه مقعَدَيْن ومنضدة، وصندوقاً كبيراً، وبالقرب من الموقد أيقونة على الجدار: هذا نذير سوء! وكانت ريح البحر تقتحم الغرفة من النافذة التي كُسِرَ لوح من زجاجها. فأخرجت من حقيبتي شمعة أشعلتها، ثم أخذت أرتّب أشيائي، ووضعت سيفي وبندقيتي في ركن من أركان الغرفة، ووضعت مسدساتي على المنضدة، وفرشت أحد المقعدين بمعطفي

وفرش القوزاقي بمعطفه المقعد الآخر وبعد عشر دقائق كان يغط في نوم عميق ويشخر. أما أنا فلم أستطع أن أنام. كنت لا أنفك أتصور في الظلام الصبيّ ذا العينين البيضاوين.

انقضى على ذلك ما يقرب من ساعة. كنت أرى القمر من النافذة يتلألأ وكانت أشعته تدخل إلى البيت، وتسقط على أرضه الترابية. وفجأة رأيت على الجانب المضيء من الأرض خيال شخص يمر. فرفعت رأسي ونظرت من النافذة فرأيت شخصاً يمر بسرعة ويختفي. كنت لا أستطيع أن أصدق أن الشخص نزل منحدر الشاطىء ولكنه لا يستطيع أن يمضي إلى مكان آخر. فنهضت واندسست في جلبابي، ووضعت خنجري في زناري، وخرجت أسير بخطى محترسة فرأيت الأعمى مقبلاً، فالتصقت بالجدار، فمر على مقربة مني بخطى واثقة ولكنها محاذرة. كان يحمل تحت إبطه رزمة فلما انعطف نحو المرفأ أخذ يهبط ممراً ضيقاً وعراً. فتبعته على مسافة منه، بحيث أظل أراه فلا يغيب عني، وقلت لنفسي: «اليوم يتكلم الخرس ويبصر العمي».

وأخذت السحب تغشى القمر أثناء ذلك؛ وكان الضباب يصعد من البحر، فلا يكاد يرى المرء، من خلاله، إلا التماع فانوس على مؤخرة السفينة القريبة؛ وعلى الشاطىء يلتمع زبد الأمواج التي تلوح كأنها تهم بابتلاعه في كل لحظة. وبينما كنت أهبط المنحدر الوعر في كثير من العناء، رأيت الأعمى يتوقف لحظة، ثم ينعطف يميناً. كان يسير قريباً جداً من الماء حتى كان يتراءى لي في كل لحظة أن الأمواج ستتلقفه وتمضي به. لا شك أنها ليست نزهته الأولى، لقد كان يمضي في سيره على ثقة

واطمئنان، يتنقل من صخرة إلى صخرة، ويتحاشى الفجوات. ووقف أخيراً، ورأيته كأنه يصيخ بسمعه إلى صوت لا أعرف أي صوت هو، ثم جلس على الأرض، ووضع الرزمة التي كان يحملها. فاختبأت أنا وراء نتوء من الصخر، وكنت أرى حركاته جميعها. وما هي إلا دقائق معدودة حتى لاح على الطرف الآخر شكل أبيض، اقترب من الأعمى ثم جلس إلى جانبه. فكانت الريح تنقل إليّ من حين إلى حين بعض ما دار بينهما من كلام. قال صوت امرأة:

ـ أيها الأعمى، إن الجو رديء ولن يصل يانكو.

ـ يانكو لا يخشى العاصفة.

ـ الضباب في تكاثف متزايد.

وكان في صوت المرأة رنة من حزن.

ـ المرور بين حرس السواحل في الضباب أسهل.

ـ وإذا غرق؟

ـ عندئذ تذهبين إلى الكنيسة يوم الأحد بلا شريط حريري جديد.

وكان صمت. ثمة شيء لفت نظري: إن الأعمى الذي لم يكلمني إلا بلهجة روسية ركيكة، قد انطلق لسانه الآن بكلام روسي فصيح.

قال وهو يصفِّق بيديه:

ـ هل ترين؟ لقد كنت على حق. إن يانكو لا يخشى البحر ولا الريح ولا الضباب ولا حرس الجمرك. اسمعي! ليس هذا صوت اصطخاب الماء، بل صوت مجدافيه الطويلين، أنا واثق من ذلك.

فوثبت المرأة واقفة، وأخذت تتفحص الأفق قلقة. قالت:

ـ أنت تخرف. لا أرى شيئاً.

وأعترف أنني أمعنت النظر أيضاً فلم أر شيئاً يشبه أن يكون قارباً. وانقضت عشر دقائق، فإذا أنا ألمح نقطة سوداء بين جبلين من الأمواج. كانت النقطة تكبر تارة وتصغر تارة أخرى. إنها قارب يرتفع بطيئاً على الذرى المتحركة، ثم يهبط سريعاً وما ينفك يقترب من الشاطىء. لا شك أنه جريء جداً ذلك الشخص الذي تجاسر في ليلة كهذه أن يشرع في قطع مضيق طوله عشرون فرستاً، ولا شك أن الدافع الذي حفزه إلى ذلك خطير. وكنت، وأنا أحدث نفسي بذلك، أراقب القارب المسكين واجف القلب على غير إرادة مني. كان يغطس كالبطة، ثم يتحرك مجذافاه بسرعة كأنهما جناحان، فيخرج من الهوة وسط سبائخ الزبد. ولحظة لاح لي أنه من اندفاعه سيرتطم بالشاطىء ويتمزق إرباً إرباً، رأيته يستدير للموجة برشاقة، ويدخل في خليج صغير، سليماً لم يمسسه أذى. وخرج منه رجل متوسط القامة، يضع على رأسه قلبقاً تترياً من فرو الخروف. ولوّح بيده، فأخذ الثلاثة يخرجون من القارب أشياء كثيرة، بلغت من الكثرة أنني ما زلت إلى اليوم أتساءل كيف لم يغرق بها القارب. وحمل كل منهم على كتفه حزمة كبيرة، وابتعدوا على محاذاة الشاطىء، وسرعان ما غابوا عني. كان عليّ أن أعود إلى البيت. ويجب أن أعترف أن هذه الحوادث قد أحدثت في نفسي شيئاً من الاضطراب، فكنت أنتظر الصباح بفارغ الصبر.

ودهش القوزاقي كثيراً حين استيقظ فرآني بثيابي، ولكنني لم أشرح له سبب ذلك.

وظللت أمتِّع طرفي، من النافذة، بجمال السماء الزرقاء تطوف فيها مزق من الغيوم، وبشاطىء القرم ـ يلوح من بعيد خطاً بلون البنفسج، ويعلوه برج منارة أبيض فوق صخرة مرتفعة. ثم ذهبت إلى قلعة فاناجوريا لأسأل قائدها متى أستطيع أن أركب السفينة إلى غيليندجيك.

ولكن القائد لم يستطع أن يجزم لي بشيء واأسفاه! فالسفن التي رأيتها في الميناء، بعضها لخفر السواحل، وبعضها الآخر مراكب تجارية لم تشحن بأي بضاعة بعد. وقال القائد:

ـ قد تصل سفينة البريد بعد ثلاثة أيام أو أربعة، وعندئذ نرى ما يكون. فرجعت مكدر المزاج، فرأيت القوزاقي ينتظرني على عتبة الباب، وقد ظهرت على وجهه علائم الاضطراب، قال:

ـ الحالة سيئة، يا صاحب المعالي!

ـ نعم يا صديقي، يعلم الله متى نسافر من هنا!

فزادت هذه الكلمات قلقه، وانحنى عليّ يقول بصوت خافت:

ـ هذا مكان مريب. لقد التقيت اليوم بوكيل ضابط أعرفه، وهو قوزاقي من البحر الأسود، كان من مفرزتي في العام الماضي، فلما ذكرت له أين نسكن، أجابني بقوله: «هذا، يا صاحبي، مكان مريب... هؤلاء أناس مشبوهون!...» وهذا صحيح. فما هذا الأعمى الذي يذهب وحده إلى السوق وإلى البئر وإلى الخباز؟... يظهر أنهم معتادون هنا على هذا.

ـ وهل رأيت صاحبة البيت اليوم؟

ـ نعم لقد جاءت أثناء غيابك عجوز وابنتها.

ـ ابنتها؟ ولكن ليس لها ابنة.

ـ إن لم تكن ابنتها، فلست أدري من تكون؛ اسمع، إن العجوز في البيت.

ودخلت الكوخ فرأيت في الموقد ناراً كثيرة، يطبخ عليها غداء فاخر لا يتناول مثله أناس في مثل فقرهم المدقع. ولم تجب على جميع أسئلتي إلا بأنها صماء لا تسمع. ماذا أعمل؟ التفت نحو الأعمى، وقد جلس أمام الموقد يغذي النار بأغصان يابسة، وقلت له وأنا أمسك بأذنه: وأنت يا أعمى النحس، ألا قلت لي أين ذهبت البارحة تحمل رزمتك؟

فأخذ الأعمى يتأوه ويبكي ويصرخ:

ـ أين ذهبت؟ لم أذهب إلى أي مكان... رزمة؟ أي رزمة؟

وسمعت العجوز في هذه المرة، فدمدمت تقول:

ـ لا يعرف الناس إلا أن يلفقوا! ماذا تريد من هذا الصبي البائس؟ ماذا صنع؟

فأزعجني هذا كله أخيراً، فخرجت وقد صممت على أن أجد مفتاح السرّ.

وتلفعت بمعطفي اللبادي، وجلست على حجر مسنداً ظهري إلى جدار السياج. كان البحر يمتد أمامي، وكان لا يزال يضطرب بعاصفة الليلة البارحة، وكان هديره الرتيب الذي يشبه جلبة مدينة تهم بالنوم يذكرني بالسنين الخوالي، فأنتقل بفكري إلى الشمال، إلى عاصمتنا الباردة. وغرقت في ذكرياتي، فذهلت عن كل ما حولي... وانقضت على ذلك ساعة كاملة أو يزيد، ولاح لي فجأة أنني أسمع غناءاً. نعم إنه غناء... هي امرأة تغني بصوت نضير. ولكن من أين يأتي هذا الغناء؟ وأرهفت سمعي. إنه غناء غريب،

بطيء حزين تارة، سريع نشط تارة أخرى. ونظرت حولي فلم أر أحداً. وعدت أرهف السمع. لكأن هذه النبرات تهبط من السماء؟ ورفعت بصري إلى فوق، فلمحت على سقف البيت فتاة ترتدي ثوباً مخططاً، يتموج شعرها في الهواء: إنها لحورية من حوريات البحر حقاً. وكانت تحمي عينيها من أشعة الشمس بيدها، وتتفرس في الأفق البعيد، ضاحكة مخاطبة نفسها تارة، ومستأنفة غناءها تارة أخرى. وإني لأتذكر أغنيتها كلمة كلمة:

في البحر الجميل
تسير السفن
السفن ذات الأشرعة البيض،
طليقة كالرياح.

بين هذه السفن
يسير قاربي
قاربي الذي ليس له جهاز،
وليس له إلا مجدافان.
حين تهب الزوبعة
تطوي جميع السفن القديمة
أجنحتها
وتتفرق فوق الأمواج.
أما أنا فأنحني للبحر
قائلة:
«حذار أيها البحر الخبيث

أن تقلب قاربي،
قاربي المليء
بألف شيء ثمين
يدير دفته في الظلام الدامس
رجل مُحنَّك».

ودار في خلدي فوراً أن هذا الصوت هو الصوت الذي سمعته في الليلة البارحة. فأذهلني ذلك قليلاً، حتى إذا نظرت بعد لحظة إلى السطح، كانت الفتاة قد بارحته... وفجأة رأيتها تمر أمامي راكضة. كانت تغني أغنية أخرى، وهي تصفق بأصابعها، ودخلت على العجوز بسرعة كأنها الريح. وسمعتهما تتشاجران. كانت هي تضحك في قهقهة عالية، وكانت العجوز تصرخ غاضبة. وفجأة رأيت حوريتي تستأنف ركضها المتواثب، حتى إذا اقتربت مني، توقفت، ونظرت في عينيّ كأن وجودي يدهشها، ثم تحولت عني في غير احتفال، وابتعدت نحو الشاطىء بخطى بطيئة. ولكنها لم تستقر هنالك، بل ظلت تحوم حول البيت طوال النهار، تثب وتغني بلا هوادة. ما أغربها من فتاة! لم يكن في وجهها أي أمارة من أمارات الجنون. بالعكس، كان فيما ترشقني به عيناها النافذتان من نظرة متحدية، قوة مغناطيسية لا أستطيع وصفها... وكان يتراءى لي أن عينيها تنتظران في كل لحظة سؤالاً، ولكنني ما أكاد أفتح فمي حتى تولي هاربة، وهي تبتسم ابتسامة متخابثة.

ما رأيت في حياتي امرأة مثلها، أبداً. لم تكن جميلة، ولكن لي في الجمال آرائي. إنها أصيلة العرق... وأصالة العرق هذه هي الشيء الهام في النساء كما في الخيول جميعاً. تلك حقيقة يرجع

الفضل في اكتشافها إلى فرنسا الفتية. وهي تتجلى (أعني أصالة العرق لا فرنسا الفتية) في المشية واليدين والساقين، وفي الأنف على وجه الخصوص. إن الأنف المستقيم أندر في روسيا من قدم صغيرة. ولاح لي أن مغنيتي لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها. إن مرونة قدها العجيبة، وطريقتها الخاصة في إحناء رأسها، وشعرها الكستناوي الطويل، والتماع جلدها الملوَّح عند الجيد والكتفين كبريق الذهب، وأنفها المستقيم خاصة، كل ذلك قد سحرني وملك عليّ عقلي ورغم أنني قرأت في نظراتها المراوغة ما لا أعرف من معاني الشراسة والشبهات، ورغم أن في ابتسامتها شيئاً لم أجد سبيلاً إلى فهمه، فلقد أسرتني أسراً قوياً، وأطاش أنفها الجميل صوابي. وتخيلت كأنني وجدت مينيون التي تصورها غوته، وابتدعها خياله الألماني الجامح. والحق أن بين الفتاتين لوجوهاً كثيرة من الشبه: انتقال مفاجىء من الحركة الصاخبة إلى الهدوء الشامل، كلام هو الألغاز، سير متواثب، غناء غريب. . .

فلما جاء المساء، استوقفتها عند العتبة، وجرى بيننا هذا الحديث:

ـ قولي يا بنتي الجميلة ما كنت تصنعين اليوم على السطح؟

ـ ذهبت أنظر من أين تهب الريح؟

ـ ولماذا؟

ـ لأن الريح تأتي بالسعادة.

ـ وهل كانت أغنيتك تستدعي السعادة؟

ـ السعادة تأتيك حيث تغني.

ـ وإذا أتتك أغنية بالشقاوة؟

ـ الشقاوة تنقض السعادة. وبين الخير والشر خطوة.

ـ من علَّمك هذه الأغنية؟

ـ ما علمنيها أحد. ما يخطر ببالي، أغنيه، يسمعه من يجب أن يسمعه، ومن لا يجب أن يسمعه لا يفهمه.

ـ وما اسمك أيتها المغنية الجميلة؟

ـ سل عن اسمي من سمّاني.

ـ ومن ذا الذي سمَّاكِ؟

ـ كيف تريد أن أعرف ذلك؟

ـ أيتها الماكرة الصغيرة! لا بأس... إنني عرفت عنك بعض الأمور (لم يتغير وجهها، ولم تمطّ شفتيها، كأنني أقصد بكلامي غيرها). أعرف أنك ذهبت في الليلة البارحة إلى الشاطىء.

ثم اصطنعت كل ما أستطيع من جدّ، وقصصت عليها ما رأيته بالأمس كاملاً. كنت أظن أنها ستضطرب. أبداً. لقد انفجرت تضحك مقهقهة.

ـ رأيت كثيراً، ولكنك عرفت قليلاً... وما عرفته، فاحتفظ به لنفسك.

ـ وإذا قصصت على القائد كل شيء؟

كنت قد اصطنعت هيئة جادة بل قاسية. فهربت فجأة وهي تغني، كما يهرب العصفور من دغل حين يجفل. لقد جاءت كلمتي الأخيرة في غير محلها. ولم يدر بخلدي ما عسى أن يكون لها من عواقب، وسأندم عليها في القريب.

هبط الليل. فأمرت صاحبي القوزاقي أن يسخن غلايتي كما كان يفعل في المعسكر، وأشعلت الشمعة، وجلست قريباً من

المنضدة أدخن غليوني. كنت أفرغ من احتساء القدح الثاني من الشاي حين سمعت فجأة صرير الباب، وسمعت ورائي حفيف ثوب، ووقْعِ أقدام خفيفة. فارتعشت والتفت، فإذا هي حوريتي! جلست أمامي في رفق، دون أن تقول كلمة واحدة. ورفعت عينيها، فرأيت نظرتها - لا أدري لماذا - تفيض عاطفة ورقة، وذكرتني بواحدة من تلك النظرات التي سبق أن عبثت بحياتي في كثير من الاستبداد والطغيان. لاح لي أنها تنتظر أن أسألها، ولكنني صمتّ وقد تملكني اضطراب لا سبيل إلى وصفه. كان وجهها قد اكتسى شحوباً يضرب إلى الزرقة، ويفضح ما بنفسها من قلق واضطراب. وكانت يدها تطوف على المنضدة بلا هدف، ولاحظت أنها ترتعش ارتعاشاً خفيفاً... وكان صدرها يعلو من حين إلى حين ثم يتجمد كأنها كانت تحبس نفسها. وضقت ذرعاً بهذه المهزلة في آخر الأمر، وأوشكت أن أقطع حبل الصمت بطريقة لا تخلو من غلظة، أي بأن أقدم لها قدحاً من الشاي، فإذا هي تنهض فجأة، فتطبع على شفتيّ قبلة رطبة محرقة، فزاغ بصري، ودار رأسي، وعانقتها عناقاً قوياً، عناق فتى مُولَه. ولكنها انسلت من بين يدي كالأفعى، وهمست في أذني تقول: «متى نام جميع الناس في هذا المساء، تعال إلى شاطىء البحر». ثم خرجت مسرعة كالسهم، فقلبت الغلاية والشمعة التي كانت على الأرض.

صاح صاحبي القوزاقي الذي كان قد استقر على فراشه وأمل أن يستدفىء مما بقي من الشاي:

- إن بها جناً!

عندئذ فقط، ثبتُ إلى نفسي.

وبعد ساعتين على وجه التقريب، حين صمت كل شيء في المرفأ، أيقظت القوزاقي وقلت له:

ـ متى سمعت طلقة مسدس، أسرع إلى الشاطىء.

ـ فجحظت عيناه، وقال لي دون وعي:

ـ نعم يا صاحب المعالي.

ووضعت المسدس في حزامي، وخرجت. كانت تنتظرني على حافة المنحدر، وكانت ثيابها أخف من خفيفة. وكان شال صغير يلف جسمها اللدن.

قالت وهي تمسك بيدي:

ـ اتبعني.

وأخذنا نهبط. ما زلت أتساءل إلى الآن كيف صنعت يومئذ حتى لم تُدقّ عنقي. فلما وصلنا إلى تحت، اتجهنا يميناً، سائرين في الممر الذي تبعت فيه الأعمى الليلة البارحة. ما كان القمر قد طلع بعد، وليس في قبة السماء الزرقاء القاتمة إلا نجمتان صغيرتان تتلألآن كأنهما مناران يهديان سراة الليل. وكانت الأمواج ثقيلة تتعاقب بحركة رتيبة، ولا تكاد تقوى على رفع القارب المنعزل الذي شد إلى الشاطىء. قالت:

ـ لنصعد إلى القارب.

فترددت قليلاً، لأنني لا أحب النزهات العاطفية في الماء كثيراً، ولكن أوان التراجع كان قد فات؛ فلقد وثبت إلى القارب، ففعلت مثلها، ولم أشعر إلا ونحن في عرض البحر، قبل أن أدرك ماذا يجري. قلت لها غاضباً:

ـ ما معنى هذا؟

فأجابت، وهي تجلسني وتطوقني بذراعيها:

ـ معناه أنني أحبك...

وجعلت خدها على خدي، فأحسست بزفراتها الحارة تلفح وجهي. وفجأة، سمعت شيئاً يسقط في الماء. فمددت يدي إلى حزامي فلم أجد شيئاً... المسدس! آ... لقد راودتني شبهة رهيبة، فصعد الدم إلى رأسي والتفت فرأيت أننا بَعُدنا عن الشاطىء مسافة خمسين ساجين[15] على وجه التقريب، وأنا لا أعرف السباحة! فأردت أن أدفعها عني، ولكنها تشبثت بثيابي كالهرة، ثم أوشكت فجأة أن تلقي بي إلى الماء بدفعة قوية. وترنح القارب. ولكنني صمدت. وكان بيننا عندئذ صراع مستميت. لقد ضاعف الغضب قواي، ولكنني سرعان ما لاحظت أنني دون خصمي خفة، فقبضت على يديها الصغيرتين وضغطتهما ضغطاً شديداً، وأنا أقول لها:

ـ ماذا تريدين؟

فقضقضت أصابعها، ولكنها لم تصرخ. إن طبيعة الأفعى، فيها تتحمل وتتجلد. قالت:

ـ لقد رأيت، وستشي بنا!

واستطاعت بجهد كبير أن تقلبني على حافة القارب، فأصبح نصف جسمي ونصف جسمها يتدليان خارج القارب، وأصبح شعرها يلامس صفحة الماء. فأشرفنا على الهلاك. فاستندت بركبتي إلى قاع القارب، وأمسكت غديرتها بإحدى يديّ، وأمسكت خناقها باليد الأخرى، فتركت ثيابي، فألقيتها إلى البحر بمثل لمح البصر.

كان الظلام مُخَيِّماً، ورأيت رأسها بين الزبد مرتين، ثم لم أر شيئاً...

ووجدت في قاع القارب نصف مجذاف قديم، فاستطعت بجهود مضنية أن أصل أخيراً إلى الشاطىء. وفيما كنت أسير إلى الضفة لأعود إلى منزلي حانت مني التفاتة إلى الجهة التي جاء إليها الأعمى أمس ينتظر بحّار الليل. وكان القمر قد بدأ يزحف في السماء، فتراءى لي شبح أبيض يجلس إلى الشاطىء، فاقتربت بخطى مختلسة يدفعني حب الاطلاع، وانبطحت على العشب، عند ذروة المنحدر، فكنت إذا مددت رأسي أستطيع أن أرى كل ما يجري تحت. ورأيت حوريتي... لم يدهشني ذلك كثيراً بل أسعدني تقريباً. كانت تعقف شعرها الطويل الذي يتقاطر منه الزبد. وكان قميصها المبلل يرسم جسمها اللدن، وصدرها الناهد. وما هي إلا لحظة حتى ظهر في الأفق البعيد زورق يقترب من الشاطىء سريعاً. فلما وصل خرج منه، كالأمس، رجل يضع على رأسه قلبقاً تترياً، ولكن شعره قد قصّ على طريقة القوزاق، وفي حزامه سكين كبيرة. قالت له:

ـ يانكو، لقد ضاع كل شيء.

واستمر الحديث بينهما طويلاً، ولكن صوتهما كان خافتاً جداً، فلم أستطع أن أسمع منه شيئاً.

وقال يانكو أخيراً بصوت مرتفع:

ـ والأعمى أين هو؟

قالت:

ـ لقد أرسلته...

وبعد بضع دقائق ظهر الأعمى يحمل على ظهره كيساً وضعوه في الزورق. قال يانكو:

ـ والآن أيها الأعمى، اسمع جيداً ما أقوله لك. ستحرس المكان... هل تفهم ماذا أعني؟... إن هناك بضائع ثمينة... قل لـ... (لم أسمع الإسم) أن لا يعتمد عليّ بعد الآن، فالحالة هنا سيئة. لن يراني أبداً. أصبح الأمر خطراً. سأمضي أبحث عن عمل في غير هذا المكان. ولن يسهل عليه أن يجد رفيقاً جسوراً مثلي. قل له لو دفع مبلغاً أكبر، لما تركه يانكو. لن أعدم أن أجد عملاً، حيثما هبت ريح، وهدر بحر.

ثم أردف يقول بعد لحظة صمت:

ـ إنها لا تستطيع أن تبقى هنا، فسوف آخذها معي. قل للعجوز إنه آن لها أن تموت... أن تذهب إلى جهنم! وهي لن ترانا على كل حال.

قال الأعمى بصوت متوسل:

ـ وأنا؟

فكان جواب يانكو:

ـ وماذا تريد أن أصنع بك؟

وفي أثناء ذلك كانت حوريتي قد وثبت إلى الزورق وأخذت تومىء لرفيقها أن يأتي؛ فوضع يانكو شيئاً في يد الأعمى، وهو يقول:

ـ إليك ما تشتري به حلوى.

ـ هذا كل شيء؟

ـ خذ أيضاً.

وسقطت قطعة من النقد على الصخرة ترن. فلم يتناولها الأعمى. ووثب يانكو إلى الزورق. كانت الريح تهب من الشاطىء

فنشرا شراعاً صغيراً، ورأيتهما يبتعدان بسرعة. وفي ضوء القمر رقص شراعهما الأبيض مدة طويلة بين الأمواج المظلمة. كان الأعمى لا يزال جالساً على الشاطىء، وفجأة سمعته يجهش منتحباً، وظل يبكي طويلاً طويلاً... أحزنني ذلك. لماذا رماني القدر في هذه البيئة الهادئة، بيئة هؤلاء **المهربين الشرفاء**؟ لقد كنت كالحصاة سقطت في نبع صافٍ فعكَّرته، لقد عكَّرت عليهم هدوءهم، وكدت أهوي إلى القاع أيضاً كالحصاة!

عدت إلى مسكني. فرأيت الشمعة تذوب عند المدخل، في طاس من الخشب، ورأيت القوزاقي يغط رغم أوامري في نوم عميق قابضاً على بندقيته بكلتا يديه. فتركته ينام، وحملت الشمعة ودخلت إلى الغرفة. واحسرتاه! إن صندوقي الصغير، وسيفي ذا الغمد الفضي، وخنجري الداغستاني الذي أهداه إليّ أحد الأصدقاء، كل ذلك قد اختفى. عندئذ فقط عرفت ماذا كان يحمل ذلك الأعمى اللعين على ظهره. فأيقظت صاحبي القوزاقي بضربة خشنة، وغضبت وزمجرت، ولكن ما عساي أصنع؟ ألا يكون من المضحك أن أشكو إلى السلطات صبياً أعمى سرقني، وفتاة في الثامنة عشرة من عمرها كادت تغرقني؟ من حسن حظي أنني أتيحت لي في الغد فرصة السفر فتركت تامان. أما ماذا صار إليه الأعمى البائس والعجوز، فلا أدري. ثم وفيم تعنيني أفراح الناس وآلامهم، أنا الضابط المترحل، المُكلَّف فوق ذلك بمهمة!...

نهاية القسم الأول

الفصل الثاني

تتمة يوميات بتشورين

2

الأميرة ماري

11 أيار

وصلت أمس إلى بياتيجورسك، واستأجرت بيتاً يقع عند طرف المدينة، على أعلى مكان، بسفح جبل ماشوك، حتى إن السحب تصل إلى سقفي أيام العواصف. وحين فتحت نافذتي في الساعة الخامسة من هذا الصباح امتلأت غرفتي برائحة الأزهار النابتة في الحديقة الصغيرة؛ وكانت أغصان الشجر المزهرة تطل عليّ من النافذة، وتنثر الريح على مكتبي في بعض الأحيان شيئاً من أوراق زهرها الأبيض. إني لأرى من الجهات الثلاث منظراً رائعاً. من الغرب أرى جبل بشتو، برؤوسه الخمسة الضاربة إلى الزرقة، كأنه «آخر سحابة من سحب العاصفة المتبددة»[16] وفي الشمال ينتصب جبل ماشوك، كأنه قبعة الفرو على رأس رجل من بلاد فارس، ويحجب عني كل ذلك الجزء من الأفق. أما في الشرق فالمنظر أبهى وأدنى إلى الفرح: في الأسفل تمتد أمامي زركشة المدينة الصغيرة، الجميلة النظيفة، وأسمع خرير الينابيع، ينابيع

الاستشفاء، وأصوات الناس تتكلم لغات شتى. ووراءها الجبال تدرج صاعدة، وتزداد زرقة وأبخرة كلما أمعنت في الصعود. وفي آخر الأفق تمتد سلسلة الذرى الفضية يغطيها الثلج، تبدأ بجبل كازبك وتنتهي بجل الألبروز ذي القمتين... يا لها من فرحة أن يعيش الإنسان في بلد كهذا البلد! إن نشوة مرحة لتسري في عروقي كلها، الهواء نقي غض كقبلة طفل، والشمس دافئة، والسماء زرقاء ـ ماذا أريد على هذا من مزيد؟ لا مكان للأهواء والرغبات والحسرات هنا... ولكن ها قد حانت الساعة، يجب أن أمضي إلى نبع أليزابت: فقد قيل لي إن صفوة الناس التي جاءت للاستشفاء بالماء تلتقي هناك.

....

سرت، وأنا أهبط إلى مركز المدينة، في شارع كبير، فالتقيت بجماعات من الناس عابسة، تصعد الجبل في بطء. إن معظمها أُسَر ملاكين كبار من السهوب، هذا ما يلاحظه المرء فوراً من أردية الأزواج التي رثّت وأصبحت لا تجاري الزيّ الحديث، وكذلك من إفراط نسائهم وبناتهم في التزيُّن. لا شك أنهم يستطيعون أن يعدّوا على الأصابع جميع شباب **مياه الاستشفاء** لأنهم نظروا إليّ مستطلعين في غير قليل من اللطف، غَرَّتهم تفصيلة ردائي البطرسبرغية، ولكنهم ما لبثوا أن أشاحوا بوجوههم في استياء، حين أبصروا على كتفي شارات ضابط من ضباط القتال.

أما زوجات القائمين على السلطات المحلية، وهن اللواتي يكرمن مثوى الضيوف، فقد كان استقبالهن ألطف وأجمل. كن يحملن في أيديهن نظارات ذات سواعد، ولا يلقين كبير بال إلى

البدلة العسكرية، كالأخريات. لقد تعودن أن يلقين في القفقاس قلوباً حارة تحت الأزرار ذات الأرقام، وعقولاً مثقفة تحت القبعات العسكرية البيضاء[17]. إن هاته السيدات لطيفات جداً. وليس للطفهن انقضاء. إن لهن عشاقاً جدداً كل سنة وربما في هذا سرّ لطفهن الذي لا ينضب له معين. وبينما كنت أصعد الدرب الضيِّق الذي يؤدي إلى ينبوع أليزابت مررت بجمهور من المدنيين والعسكريين الذين يشكلون ـ كما عرفت فيما بعد ـ طبقة خاصة بين الذين يأتون إلى هنا ينشدون الاستشفاء بالماء. إنهم يشربون ولكنهم يشربون شيئاً غير الماء وقلما يتنزهون وهم يغازلون الحسان بشكل عابر. وإنهم يقامرون ويشكون من الضجر الذي يستولي عليهم. إنهم متأنقون. فهم يصطنعون أوضاعاً أكاديمية، ويغطسون كؤوسهم المغلَّفة في بئر الماء الكبريتي؛ أما المدنيون فهم يضعون ربطات عنق زرقاء، والعسكريون يكشفون عن تخريم قمصانهم بفك ياقة البدلة. إنهم يتظاهرون باحتقار عميق لمنازل الأقاليم، ويتنهدون أسفاً على الصالونات الأرستقراطية في العاصمة التي حُرموا من استقبالاتها.

ووصلت أخيراً إلى البئر... إن على مقربة منه، في ساحة صغيرة، بيتاً ذا سقف أحمر فيه الحمامات، وبعده ممر مسقوف يتنزه فيه الناس حين تمطر السماء. وهؤلاء ضباط جرحى جلسوا على مقعد كبير، وقد شحبت وجوههم وظهرت عليهم أمارات الحزن، ووضعت عكاكيزهم إلى جانبهم. وهناك سيدات يذهبن ويجِئنَ في الساحة الصغيرة بخطى سريعة بانتظار تأثير الماء فيهن. إن بينهن وجهينْ جميلين أو ثلاثة. وفي الممرات المزروعة بأشجار

الكرمة التي تغطي سفح جبل ماشوك، كانت تظهر من حين إلى حين قبعات مزركشة هي قبعات النساء اللواتي يحببن العزلة اثنين اثنين، لأنني ألمح دائماً إلى جانب هذه القبعات قلنسوة عسكرية، أو قبعة مدورة كريهة. أما عشاق المناظر الطبيعية فقد برزوا على الصخرة التي يقع عليها الجناح المسمى «معزف أيول»، وينظرون إلى جبل الألبروز بنظارة مقرِّبة. وكان بينهم مربيان مع تلاميذهما، وفدوا إلى المياه استشفاء من داء الخنازير.

وكنت ألهث من التعب فتوقفت عند حافة الجبل، واستندت إلى زاوية بيت صغير، وأخذت أسرح طرفي في هذه المناظر الخلابة، فإذا بصوت أعرفه يهتف من ورائي:

ـ هه، بتشورين! أأنت هنا منذ زمان؟

فالتفتّ، فإذا هو جروشنيتسكي، فتعانقنا. لقد عرفته أثناء إحدى الحملات، وقد أصيب برصاصة في ساقه، ووصل إلى المياه قبلي بأسبوع.

إن جروشنيتسكي جندي قضى في الخدمة سنة واحدة لا أكثر. وهو يصرف غندرته إلى ارتداء معطف جندي مصنوع من جوخ غليظ ويحمل صليب القديس جرجس، وهو صليب يعطى للجنود من غير ذوي الرُّتَب. إنه فتى جميل، ملوَّح الجلد، أسود الشعر، يحسبه من يراه أول مرة أنه في الخامسة والعشرين من عمره، مع أنه ما كاد يبلغ الواحدة والعشرين؛ فإذا تكلم رمى رأسه إلى الوراء، وفتل شاربه في كل لحظة بيده اليسرى، لأنه يستند في اليمنى إلى عكازه. إنه يتحدث بسرعة وتصنُّع: وهو من أولئك الناس الذين يملكون لكل ظرف من ظروف الحياة جُمَلاً متفصحة جاهزة، ولا يهزهم

الجمال البسيط، ويرفعون لواء المشاعر النادرة، والأهواء الرفيعة، والآلام الفذة. فإدهاش الناس هو لذتهم الكبرى، والحالمات من بنات الأقاليم يفتتنّ بهم أيما افتتان، حتى إذا طعنوا في السن أصبحوا إما من ملاكي الأراضي الهادئين، وإما من السكيرين، وقد يصبح أحدهم هذا وذاك في آن واحد. وكثيراً ما يتصف هؤلاء الناس بمزايا عالية، ولكن لا في الشعر أبداً. ولقد كان هوى جروشنيتسكي أن ينشد الشعر، وكان لا ينضب معينه متى خرج الحديث عن نطاق الأفكار العادية. ولم أستطع يوماً أن أناقشه. إنه لا يجيب على اعتراضاتك، ولا يصغي إليك، بل ينتظر أن تتوقف عن الكلام، حتى يندفع في حديث طويل تظن أن له علاقة بما قلت، فإذا هو استمرار لخطابه لا أكثر.

وهو إنسان هجّاء، وكثيراً ما تكون لذعاته فكهة، ولكنتها لا تشتمل على حقد، ولا تصيب مقتلاً أبداً... فلن يستطيع أن يقتل أحداً بكلمة. وهو لا يعرف الناس، لا يعرف أوتارهم الضعيفة، لأنه طوال حياته لم يهتم إلا بنفسه، وكان غايته أن يصبح بطل رواية. وقد أراد أن يلقي في روع الناس أنه لم يخلق لهذا العالم، وأنه ميسّر لما لا أدري من آلام خفية ـ ومن كثرة ما كرر ذلك على مسامع الناس أصبح يصدقه هو نفسه. من أجل هذا يرتدي معطفه الخشن، معطف الجندي، في كثير من الاعتزاز والفخر. وقد أدركت أنا هذه الحقيقة، فهو لذلك لا يحبني، رغم أن علاقاتنا هي في الظاهر من أقوى علاقات الصداقة. وهو يدَّعي الشجاعة والبسالة، ولكنني رأيته أثناء القتال: كان يهز سيفه وهو يصرخ، ويهجم مغمضاً عينيه. ما هذه هي الشجاعة الروسية!...

وأنا أيضاً لا أحبه. وأشعر أننا سنصطدم يوماً على ممر ضيق، فتقع الطامة على واحد منا.

وإذا وُجد اليوم في القفقاس، فلا شك أن ذلك كان نتيجة تعصبه الرومانسي. وأنا على يقين أنه في صبيحة اليوم الذي ترك فيه قرية أبيه، قال لامرأة ما من الجيران، وهو متجهم الوجه: إنه لا يسافر للخدمة وكفى، بل يسافر باحثاً عن الموت، لأن... ولا شك أنه أضاف يقول وهو يغطي عينيه بيده: «لا، لا، يجب أن لا تعرفي (أو يجب أن لا تعرفن)! لأن نفسك بريئة نقية، فقد تهلعين أشد الهلع إذا عرفت! وفيم أقول لك السبب؟ من أنا بالنسبة لك؟ هل تستطيعين أن تفهميني؟...» إلى آخر ما هنالك.

ولقد قال لي هو نفسه: إن ما حمله على الالتحاق بفوج ك... سيبقى إلى الأبد سراً بينه وبين السماء.

على أنه حين يطرح عنه قناعه التعيس... شخص ممتع مسلٍّ بعض الشيء... ومن الشائق أن يراه المرء مع النساء، فلا شك أنه عندئذ ينشر ريشه!

التقينا إذن كما يلتقي صديقان قديمان، وسألته عن الحياة في بياتيجورسك، وعن الأشخاص الذين يجدر أن يعرفهم المرء ممن يعيشون فيها، فقال وهو يتنهد:

ـ الحق أننا نعيش حياة خالية من الشِّعر. في الصباح نشرب الماء ونكون واهنين كجميع المرضى، وفي المساء نشرب الخمر ونصبح ثقيلي الظل كسائر الأصحاء. وهناك نساء، ولكن المرء لا يجد في صحبتهن كبير متعة: يلعبن الورق، ولا يجدن التأنق في الملبس، ويتحدثن بلغة فرنسية رديئة. ولم يأت من موسكو هذا

العام إلا الأميرة ليجوفسكايا وابنتها، ولكنني لا أعرفهما. إن معطف الجنود الذي أرتديه أشبه بخاتم البؤس، وما يثيره من اهتمام الناس يثقل على نفسي كالصدقة.

في تلك اللحظة مرت بنا سيدتان ذاهبتان إلى البئر: أولاهما متقدمة في السن قليلاً، والثانية صبية رشيقة خفيفة. لم أستطع أن أرى وجهيهما المختبئين تحت القبعتين، ولكن ملابسهما تلتزم أدق قواعد الذوق الأنيق: فلا شيء زائد عن حدود الاعتدال. كانت الصغرى ترتدي فستاناً gris de perles[18]، ويحيط بعنقها الرشيق منديل خفيف من الحرير. وكان حذاؤها العالي الأحمر، يشد قدمها الدقيقة إلى الكعب على أجمل صورة، حتى إن أجهل الناس بأسرار الجمال لا يمكنه متى رآه ألا يصيح، من الدهشة على أقل تقدير. وكان في خطواتها الخفيفة، على امتلائها بالنبالة، شيء من العذرة والطهارة، لا يمكن وصفه، ولكن البصر يدركه. وحين مرت قربنا فاح منها عبق لا سبيل إلى تفسيره، عبق كالذي يخرج من رسائل حبيبة. قال لي جروشنيتسكي:

ـ هي الأميرة ليجوفسكايا، وابنتها ماري، كما تناديها على الطريقة الإنجليزية. هما هنا منذ ثلاثة أيام فقط.

ـ ها، وعرفت اسمها؟

قال وقد اصطبغ وجهه بحمرة الخجل:

ـ سمعته مصادفة. أعترف لك بأنني لا أحرص على أن أتعرف إليهما. فالذي يخدم في الجيش يكاد يكون في نظر هؤلاء الأرستقراطيين المتعجرفين إنساناً متوحشاً، لا يعنيهم كثيراً أن يكون هنالك عقل يفكر تحت القبعة المرقمة، أو قلب يخفق تحت معطف الجوخ الغليظ.

قلت مبتسماً:

ـ مسكين هذا المعطف! ولكن قل لي، من هو هذا السيد الذي يتقدم نحوهما ويمد إليهما قدحاً، في كثير من اللطف؟

ـ هو رايبفتش، رجل مفرط الأناقة من موسكو؛ مقامر، يُعرف ذلك فوراً من السلسلة الذهبية الكبيرة المعلقة بصدّارته الزرقاء. وانظر إلى هذه العصا الكبيرة! لكأنها عصا روبنسون كروزيه! ثم انظر إلى لحيته، وإلى شعره à la moujik[19].

ـ أنت تحقد إذن على النوع البشري كله.

ـ هناك ما يدعو إلى ذلك...

ـ صحيح؟

وفي أثناء ذلك كانت السيدتان قد غادرتا البئر، فلما مرتا بالقرب منا رفع جروشنيتسكي صوته قائلاً بالفرنسية، وهو يصطنع مع عكازه وضعاً دراميا:

- Mon cher, je haïs les hommes pour ne pas les mépriser, car autrement la vie serait une farce trop dégoutante[20].

فالتفتت الأميرة الصبية الجميلة، وكافأت الخطيب بنظرة مستطلعة طويلة لا يمكن تعريف معناها، ولكنها لم تكن نظرة ساخرة على كل حال. ولا أكتمكم أنني في أعماق نفسي هنأته من صميم فؤادي.

قلت له:

ـ إن الأميرة ماري فاتنة. إن لها عينين مخمليتين، نعم مخمليتين، وأنصحك بانتحال هذا التعبير لنفسك إذا تكلمت عن عينيها فيما بعد. وإن أهدابها تبلغ من الطول أن أشعة الشمس لا تنعكس في البؤبؤ. أحب هذه الأعين التي ليس لها بريق. إنها عذبة

جداً. يحس المرء أنها تلاطفه... على أنني أعتقد أن ليس في وجهها من جمال غير هذا. ولكن هل أسنانها بيضاء؟ هذا أمر أساسي! يؤسفني أن عبارتك المتنفخة لم تحملها على الابتسام.

فقال جروشنيتسكي مستاء:

ـ إنك تتحدث عن امرأة جميلة حديثك عن حصان إنجليزي.

فقلت محاولاً أن أصطنع لهجته:

Mon cher, je méprise les femmes pour ne pas les aimer, car autrement la vie serait un mélodrame trop ridicule(21).

وهنا أدرت له ظهري وابتعدت، وقضيت نحواً من نصف ساعة أتنزه في شعاب الكروم بين صخور الكلس والجذوع. واشتدت الحرارة، فأردت أن أعود إلى بيتي، فلما مررت بالقرب من النبع، وقفت تحت السقيفة أتنفس في ظلها، فأتيح لي أن أرى مشهداً شائقاً: الأشخاص قد توزعوا هكذا: الأميرة الأم والمتظرف الموسكوبي جالسان على مقعد، وقد استغرقا في حديث يلوح خطيراً؛ والفتاة التي لعلها فرغت منذ لحظة من شرب كأسها الأخيرة، تسير حالمة بالقرب من البئر حيث يقف جروشنيتسكي. ولم يكن في الساحة الصغيرة أحد غير هؤلاء.

فاقتربت، واختبأت وراء زاوية من السقيفة. وفي هذه اللحظة سقط كأس جروشنيتسكي على الرمل، فانحنى يحاول التقاطه، ولكنه لم يستطع ذلك بسبب ساقه المريضة. مسكين! ما أكثر ما بذل من جهود وهو يستند إلى عكازه، دون أن يظفر بالكأس! في هذه اللحظة كان وجهه المعبّر ينم حقاً عن الألم.

كانت الأميرة ماري قد رأت هذا كله خيراً مني.

فاندفعت نحو جروشنيتسكي خفيفة كعصفور، وانحنت على

الأرض، فتناولت الكأس، ومدتها إليه بحركة لا نهاية لسحرها، واصطبغ وجهها بحمرة شديدة؛ ثم التفتت بسرعة إلى جهة السقيفة، فلما تأكدت من أن أمها لم تر شيئاً، ارتد إليها هدوؤها فوراً. وحين فتح جروشنيتسكي فمه ليشكر لها جميلها، كانت قد ابتعدت. وبعد دقيقة خرجت من الرواق مع أمها ورايبفتش، ومرت بالقرب من جروشنيتسكي، وهي تتخذ هيئة الجِد والوقار، حتى إنها لم تلتفت إلى وراء، ولا لاحظت تلك النظرة المولهة التي تابعها بها وهي تهبط الجبل إلى أن غابت وراء زيزفونات الشارع... ثم لمحتُ قبعتها فجأة في الشارع، ورأيتها تدخل باب بيت من أجمل بيوت بياتيجورسك، وكانت الأميرة تتبعها، فلما وصلت إلى الباب، استأذنت رايبفتش.

عندئذ لاحظ الجندي المسكين وجودي. قال وهو يضربني بيده ضربة قوية:

ـ هل رأيت؟ إنها لملاك!...

قلت له أتكلف السذاجة:

ـ لماذا؟

ـ أنت إذن ما رأيت؟

ـ بل رأيتها تناولك كأسك. ولو كان الحارس هناك لفعل ما فعلت، ولأسرع إلى ذلك أكثر منها، لأنه قد يأمل في عطاء. ثم إنها قد أشفقت عليك: كان وجهك يتجعد تجعداً رهيباً وأنت تستند إلى ساقك الجريحة...

ـ ألم يهززك، في تلك اللحظة، أن ترى روحها تشع في وجهها؟

ـ لا.

لقد كذبت، ولكنني كنت أريد أن أحنقه. أني لأهوى المعاكسة بفطرتي، وحياتي كلها لم تكن إلا نسيجاً من المتناقضات الحزينة الشقية بين عقلي وقلبي. يكفي أن أرى شخصاً متحمساً حتى أصبح بارداً كالثلج، وأعتقد أنني إذا عاشرت شخصاً بارد العاطفة رخواً أصبحت من أشد الحالمين جموح هوى. ويجب أن أعترف أن شعوراً مؤلماً أعرفه من قبل قد حزَّ في قلبي قليلاً في هذه اللحظة. إنه الغيرة. أقول ذلك بلا لف ولا دوران، لأنني تعودت أن أعترف بكل شيء صراحة. ثم إنه ليندر أن نجد شاباً (أقصد شاباً من الطبقة الراقية تعوَّد على أن يتملق الناس غروره) يلتقي بامرأة جميلة، وينتبه إليها خلسة، ثم لا يؤذيه أن يراها، على حين فجأة، تؤثر عليه، إيثاراً واضحاً، شخصاً آخر لا تعرفه أكثر مما تعرفه هو.

وهبطنا الجبل صامتَيْن، ومررنا في الشارع أمام البيت الذي غابت فيه الحسناء. لقد كانت جالسة إلى النافذة. فشدني جروشنيتسكي من كُمّي، وأرسل إليها نظرة من تلك النظرات، العاطفية المضطربة في آن واحد، التي ليس لها في النساء كبير تأثير. أما أنا فصوبت إليها نظارتي. فرأيت أن نظرة جروشنيتسكي تجعلها تبتسم، وأن نظارتي الوقحة تغضبها كثيراً: كيف يجرؤ ضابط يخدم في القفقاس أن يسدد نظارته إلى أميرة من موسكو؟...

13 أيار

في هذا الصباح أتى إليّ الطبيب. إن اسمه فرنر، ولكنه روسي. وهل في هذا عجب؟ لقد عرفت ألمانياً كان يدعى إيفانوف.

إن فرنر شخص فذٌّ في أكثر من ناحية. إنه ريبي مادي، كسائر الأطباء على وجه التقريب. وهو إلى ذلك شاعر ـ أقول هذا جاداً لا هازلاً: هو شاعر دائماً في أعماله، وأحياناً في أقواله، وإن لم يَنْظُم في حياته بيتين من الشعر. لقد درس جميع أوتار القلب الإنساني، كما تُدرس الأعصاب في جثة تُشرَّح، ولكنه لم يجنِ من معرفته أي فائدة يوماً، كما يتفق لعالم كبير في التشريح أن لا يشفي من حمى! وكان من عادة فرنر أن يسخر من مرضاه خفية، ولكنني رأيته يبكي وهو ينحني على جندي يحتضر... كان فقيراً ويحلم بالملايين، ولكنه ما كان ليفعل «الأمر» طمعاً في مال. قال لي يوماً إنه يؤثر أن يخدم عدواً على أن يخدم صديقاً، لأن في خدمة الصديق شيئاً من بيع الإحسان، في حين أن الكره يزداد على قدر نبل الخصم. وكان سليط اللسان في اغتياب الناس: أكثر من رجل طيب أحاله هجاؤه في أعين الناس غراً أحمق. وقد أشاع عنه أطباء المياه، خصومه الحاسدون، أنه يصور مرضاه تصويراً كاريكاتورياً، فاستاء المرضى منه، وكادوا ينقطعون جميعاً عن استشارته. وحاول أصدقاؤه، أعني جميع الممتازين ممن يخدمون في القفقاس، أن يردوا إلى الناس ثقتهم به، بعد أن تزعزعت، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

كان من أولئك الناس الذين يزعجك منظرهم أول مرة، ولكنه

يعجبك بعد ذلك، متى عرفت عيناك أن تكتشف في ملامحه المتنافرة روحاً مجربة نبيلة رفيعة. لقد رأينا نساء يحببن رجالاً مثله حباً مجنوناً، ولا يبادلن دماماتهم بجمال أنضر الشباب عوداً وأزهاهم ورداً، كأنديميون[22]. يجب أن نعترف للنساء بهذه الميزة، وهي أنهن يدركن جمال النفس بالغريزة، ولعل هذا هو السبب في أن رجلاً مثل فرنر يحبهن أيضاً أعنف الحب.

كان فرنر قصير القامة، نحيلاً، رهيفاً، كطفل. وكانت إحدى ساقيه أقصر من الأخرى، كبايرون. وكان رأسه يبدو كبيراً بالقياس إلى جسمه. وكان شعر رأسه قصيراً فلو رأى عالم من علماء الجمجمة ما يظهر في جمجمته العارية من نتوءات، لأدهشه هذا التزاوج العجيب بين ميول متعارضة أشد التعارض. وأن عينيه الصغيرتين السوداوين اللتين لا تستقران على حال من القلق، تحاولان أن تسبرا أغوار فكرك. وترى من ملبسه أنه ذو ذوق، وأنه يعتني بهندامه، قفازه الضارب إلى الصفرة يغطي يديه الصغيرتين العصبيتين، ورداؤه وربطة عنقه وصدارته سوداء اللون دائماً. ولقد لقبه الشباب باسم مفستوفيليس[23]. فكان يتظاهر بالاستياء من ذلك، ولكن هذا اللقب كان يتملق غروره في أعماق نفسه. لقد تفاهمنا بسرعة. وانعقدت بيننا أواصر التعارف، أقول التعارف ولا أقول الصداقة، لأنني في حقيقة الأمر عاجز عن الصداقة، ذلك لأن أحد الصديقين لا بد أن يكون عبداً للآخر، ولو أن أحداً منهما لا يريد أن يعترف بذلك لنفسه في كثير من الأحيان. وأنا امرؤ لا يمكن أن أكون عبداً، كما أن القيادة متعبة في هذه الحال، إذ لا بد لمن يقود من أن يجيد الخداع. ثم إنني أملك خدماً ومالاً، فما لي ولهذا كله...

وإليكم كيف تعارفنا: لقد لقيت فرنر في س. . . ، في حلقة من الشباب غفيرة صاخبة؛ ودار الحديث في آخر السهرة فلسفةً وميتافيزيقا. كنا نتحدث عن العقائد، وكان لكل منا عقائده التي تختلف عن عقائد الآخرين.

قال الدكتور:

ـ أما أنا فلا أعتقد إلا بشيء واحد. . .

ظلت تدفعني الرغبة في معرفة رأي هذا الشخص الذي ظل إلى ذلك الحين صامتاً:

ـ ما هو هذا الشيء؟

قال:

ـ إنني سأموت في ذات صباح، قريب أو بعيد.

قلت:

ـ أنا أغنى منك. . . لأنني أعتقد بشيء آخر أيضاً: هو أنني في ذات مساء مشؤوم ولدت.

ووجد جميع الناس أن ما نقوله سخف. ومع ذلك لم يقل أحد منهم كلاماً أقرب منه إلى العقل. ومنذ ذلك الحين تميزنا كلانا عن العامة. وكنا نلتقي كثيراً، فنتجاذب أطراف الحديث في شؤون مجردة جادين، إلى أن لمحنا في ذات لحظة أن كلاً منا يتلاعب بالآخر، فنظر كل منا إلى صاحبه نظرة صارمة، كما كان يفعل العرّافون الرومانيون، على ما يزعم شيشرون، ثم انفجرنا ضاحكين. . . وظللنا نضحك مدة طويلة، ثم افترقنا، وقد سُرّ كل منا بهذه السهرة.

كنت مستلقياً على أريكة، أنظر إلى السقف وقد وضعت يدي

تحت عنقي، حين دخل فرنر إلى غرفتي. فجلس على أحدِ المقاعد، بعد أن وضع عصاه في ركن من أركان الغرفة، وأبلغني وهو يتثاءب أن الجو حار في الخارج، فأجبته بأن الذباب يزعجني؛ ثم صمتنا.

قلت له بعد لحظة:

ـ لاحظ يا عزيزي الدكتور أن الدنيا تصبح مملة إذا خلت من الحمقى. أنظر: نحن هنا رجلان ذكيان، نعلم مقدماً أننا نستطيع أن نتناقش في كل أمر إلى غير نهاية... ونحن لذلك لا نتناقش في أي أمر. إن كلاً منا يعرف تقريباً جميع ما يدور في رأس الآخر من أفكار خفية. ورُبَّ كلمة واحدة هي عندنا قصة برمتها. إننا نرى بذرة كل عاطفة من عواطفنا من خلال جميع الحجب. وما هو محزن يتراءى لنا مضحكاً، وما هو مضحك يبدو لنا محزناً، ويمكن القول على وجه العموم إننا لا نحفل بشيء، غير أنفسنا. لذلك لا يمكن أن يقوم بيننا تبادل في العواطف والأفكار. نحن نعرف الواحد عن الآخر كل ما نريد أن نعرفه ولا نريد أن نعرف أكثر من ذلك، وليس لنا إذن إلا مخرج واحد: هو أن نتبادل قصّ الحكايات. فهات قصّ عليّ حكاية من الحكايات.

وتعبت من هذا الخطاب الطويل، فأغمضت عيني، وأخذت أتثاءب، فقال لي الدكتور بعد لحظة من تفكير:

ـ في كلامك الملتبس، مع ذلك، فكرة!

ـ بل فكرتان!

ـ قل لي الأولى أقول لك الثانية.

ـ أبداً.

قلت ذلك وأنا أنظر إلى السقف وأبتسم بيني وبين نفسي.

قال:

ـ أنت ترغب في مزيد من المعلومات عن شخص وافد إلى المياه؛ وأنا أعرف من هو ذلك الشخص، لأنهم طلبوا معلومات عنك هناك.

ـ دكتور، يستحيل علينا حتماً أن نتحادث: إن كلاً منا يقرأ ما بنفس الآخر.

ـ إليّ الآن بالفكرة الثانية.

ـ الفكرة الثاني هي هذه: كنت أريد أن تقص أنت شيئاً عليّ، أولاً لأن الاستماع لا يُتعب كما يتعب الكلام؛ ثانياً لأن ذلك لا يورطني في أن أقول أكثر مما يجب أن أقول؛ ثالثاً لأن المرء يستطيع بالاستماع أن يلم بأسرار غيره؛ رابعاً، لأن الأذكياء من أمثالك يؤثرون أن يكون أمامهم مستمعون لا محدثون. ولننتقل، بعد ذلك، إلى الموضوع. ما الذي قالته لك الأميرة الأم عني؟

ـ أأنت واثق أنها الأم... لا البنت؟

ـ واثق.

ـ لماذا؟

ـ لأن البنت سألت عن جروشنيتسكي.

ـ أنت في النفاذ إلى الأمور صاحب موهبة عظيمة. لقد قالت الفتاة إنها متأكدة من أن هذا الشاب الذي يرتدي معطف ضابط حُرم من رتبته على أثر مبارزة...

ـ أرجو أن تكون قد تركت لها هذا الوهم الممتع!

ـ طبعاً.

فهتفت فرحاً:

ـ لقد وجدنا العقدة. وسنعنى بعد الآن بالحل الذي ستنتهي إليه المهزلة. يأبى القدر أن يتركني الضجر، هذا واضح.

قال الدكتور:

ـ أحس سلفاً أن جروشنيتسكي المسكين هذا سيكون ضحيتك...

ـ تابع كلامك يا دكتور.

ـ قالت الأم إن وجهك ليس غريباً عليها... فقلت لها لعلك رأيته يا سيدتي ببطرسبرغ، في المجتمع... وذكرت لها اسمك... كانت تعرف اسمك. يظهر أن قصتك أثارت هناك كثيراً من الجلبة. وأخذت الأميرة تقص عليّ مغامراتك، ولا شك أنها أضافت إلى أقوال الناس تعليقات من عندها... وكانت ابنتها تصغي إليها في كثير من الاستطلاع؛ حتى أصبحتَ في خيالها بطلاً من أبطال الروايات... ولم أكذب شيئاً مما قالته الأميرة، رغم علمي بأن ما تقوله هراء سخيف.

فهتفت وأنا أمد يدي ليصافحها:

ـ أنت صديقي!

فشد الدكتور على يدي وقد بدا في وجهه التأثر، وقال:

ـ إذا شئت قدَّمتك إليها...

فقلت وأنا أضرب كفاً بكف:

ـ عفوك... هل يُقدَّم الأبطال؟ إنهم يُعرفون حين ينقذون حبيبتهم من موت محقق...

ـ هل تنوي حقاً مغازلة الأميرة الصغيرة؟

ـ أبداً، أبداً. ها أنا أظفر أخيراً يا دكتور: إنك لا تفهمني.

وقلت بعد لحظة من صمت:

ـ ويؤسفني ذلك... إنني لا أبوح أبداً بأسراري، بل أحب كثيراً أن تُحزر حزراً، حتى أستطيع أن أنفيها متى أردت. ولكن يجب أن تصف لي الأم وابنتها، وأن تقول لي من هما.

ـ أولاً، الأم هي امرأة في الخامسة والأربعين من عمرها، جيدة المعدة، ولكنها فاسدة الدم، على خديها بقع حمراء. قضت في موسكو النصف الثاني من عمرها، فسمنت هناك من قلة العمل وترهلت. وهي تحب الحكايات البذيئة، وقد تقول هي نفسها أشياء جريئة، حين لا تكون ابنتها هناك. لقد قالت لي إن ابنتها عذراء كحمامة. وما شأني أنا في هذا؟ وددت لو أجيبها: «اطمئني بالاً، فلن أقول هذا لأحد». الأم تستشفي من الروماتزم، والبنت الله أعلم بما تستشفي منه! ولقد نصحت لهما بأن تشرب كل منهما كأسين من الماء الكبريتي في اليوم، وأن تستحما بالماء المعدني مرتين في الأسبوع. ويظهر أن الأم لم تتعود الأمر والنهي؛ وهي تفيض احتراماً لذكاء ابنتها، ولثقافة ابنتها، التي قرأت بايرون بالإنجليزية كما أنها تعرف الجبر. يظهر أن الفتيات بموسكو اندفعن في ميدان العلوم؛ يميناً أنهن ليحسن صنعاً! فالرجال، هنا، على وجه العموم، ليسوا على حظ وافر من الظُّرف، ولا شك أن المرأة الذكية لا تطيق أن تلهو معهم. والأم تحب الشباب كثيراً، أما ابنتها فتنظر إليهم في شيء من الاحتقار: تلك عادة من موسكو! هناك لا يستملحن إلا العقول الذكية ذات الأربعين عاماً.

ـ هل كنت بموسكو يا دكتور؟

ـ نعم، كان لي فيها زبائن.

ـ أكمل.

ـ أعتقد أنني قلت كل شيء... ها! نسيت: يبدو أن الصبية تحب حديث العاطفة والهوى وما إلى ذلك. ولقد قضت شتاء ببطرسبرغ، فلم تسرّ فيها ولا سيما في مجتمع الأكابر: يظهر أن الناس استقبلوها هناك استقبالاً بارداً.

ـ ألم تر عندهما اليوم أحداً؟

ـ بلى. كان عندهما شخص من الحاشية، وضابط من الحرس شديد التبهرج، وسيدة وصلت منذ قريب، تَمُتّ إلى الأميرة بقرابة من ناحية زوجها، سيدة جميلة جداً، ولكنها تعاني مرضاً شديداً فيما يبدو... ألم تلقها عند البئر؟ إنها شقراء، متوسطة القامة، متسقة القسمات، شاحبة اللون كالمصدورين، وعلى خدها الأيمن شامة سوداء. لقد خطف وجهها بصري، فإنه معبِّر جداً.

فدمدمت بيني وبين نفسي:

ـ على خدها شامة؟ أهذا ممكن؟

فنظر إليّ الدكتور، وقال مفخماً كلامه، وهو يضع يده على قلبي:

ـ أنت تعرفها!

هذا صحيح، ولقد اشتدت خفقات قلبي.

قلت له:

ـ أنت الآن المنتصر، ولكنني أعتمد عليك، لا تفضحني. إنني ما رأيتها بعد، ولكنني أبصر في هذه الأوصاف، يقيناً، وجه امرأة أحببتها منذ زمن بعيد. فلا تأت على ذكري بكلمة، وإذا سألتك فحدثها عني بسوء.

فقال فرنر وهو يهز كتفيه:

ـ لك ما تريد.

فلما ذهب الدكتور شعرت بحزن شديد يقبض صدري. أهي الصدفة تجمعنا مرة أخرى في القفقاس، أم أنها تعمدت أن تجيء إلى هنا ليقينها بأنها ستلقاني؟ وما عسى أن يكون لقاؤنا؟ ولكن، أولاً، أهي هي حقاً؟ إنني ما أخطأت يوماً فيما أوجس من مشاعر! ما من رجل يسيطر عليه الماضي كما يسيطر عليّ. فإن ذكرى الحزن أو الفرح لتترجع في نفسي ترجعاً أليماً، وتخرج منها دائماً نفس الأصوات... هكذا شاءت الأقدار أن أكون. لا أنسى شيئاً، لا أنسى شيئاً.

بعد الغداء، في نحو الساعة السادسة، ذهبت إلى الشارع الكبير. كان الشارع يغض بالناس، وكانت الأميرة وابنتها جالستين على أحد المقاعد؛ وكان الشباب يحومون حولهما. فاتخذت لي مكاناً على مقعد آخر يبعد قليلاً عن ذلك المقعد. واستوقفت ضابطين أعرفهما من د... وأخذت أقص عليهما حكاية... ويظهر أن الحكاية كانت هزلية كثيراً، فلقد أخذا يضحكان كالمجانين. واجتذب حب الاستطلاع إلى حلقتنا بعض من كانوا يحيطون بالأميرة. وشيئاً فشيئاً هجرها الجميع وانضموا إلينا. لم ينضب معيني. كانت حكاياتي فكهة إلى درجة الهذيان، وكان تندّري على من يمر أمامنا من أشخاص منفردين خبيثاً إلى حد الجنون... وظللت أفكّه جمهوري وأُبهجه إلى أن غابت الشمس. وقد مرت الأميرة الصغيرة من أمامي عدة مرات، وهي تمسك بيد أمها، يصحبهما عجوز قصير أعرج. وكان بصرها حين يقع عليّ في كل

مرة يعبِّر عن الغيظ، وإن حاوَلَتْ أن تُظْهِر مظهر اللامبالي.

وسألت شاباً عاد إليها على سبيل الأدب:

ـ ماذا كان يقصّ عليكم؟ لا شك أن حديثه كان شائقاً؟ لعله كان يحدثكم عن مآثره في المعارك؟...

قالت ذلك بصوت عال، وربما كانت تنوي أن تغمز من قناتي. قلت في نفسي: «هاها... ها أنت تغضبين إذن أيتها الأميرة العزيزة... انتظري، فلسوف ترين ما هو أدهى من ذلك».

وكان جروشنيتسكي يتبعها كحيوان كاسر، ولا يفارقها بنظره. أراهن على أنه سيطلب أن يقدمه أحد إلى الأميرة غداً. وسيسرها ذلك كثيراً، لأنها ضجرة.

16 أيار

لقد تقدمت أعمالي خلال يومين تقدماً هائلاً. إن الأميرة الصغيرة حانقة عليّ، ما في ذلك ريب. حتى لقد نُمي إليّ أنها اغتابتني مرتين أو ثلاث مرات، بقدْح لا يخلو من مرارة، ولكنه لا يخلو من كثير من مداراة. إنها لتستغرب كثيراً كيف أن رجلاً اختلف إلى المجتمع الراقي، وعرف بنات عمها وعماتها في بطرسبرغ، لا يحاول أن يتعرف عليها. إننا نلتقي كل يوم عند البئر في الشارع الكبير. وأحاول بكل ما أوتيت من قوة أن أنتزع منها عبادها المعجبين بها، وهم من ضباط الحاشية البارزين، ومن الموسكوبيين الشاحبين وغيرهم، وكنت أظفر بذلك دائماً على وجه التقريب، وأنا امرؤ أكره أن أستقبل الناس في بيتي، ولكن بيتي يعج بهم الآن في كل يوم، يتغدون ويتعشون ويلعبون. إن الشمبانيا التي أقدمها لهم

تنتصر على ما في عينيها الجميلتين من قوة جاذبية مغناطيسية!

لقيتها أمس في مخزن تشيلاخوف، تساوم على سجادة رائعة من السجاد العجمي. كانت تضرع إلى أمها أن لا تتباخل، لأن هذه السجادة ستكون جميلة جداً في مخدعها!... فزدت عليها أربعين روبلاً، وأخذت السجادة. فكافأتني على ذلك بنظرة يلتمع فيها حنق يفتن اللب. وتعمدت في وقت الغداء أن أرسل حصاني الشركسي يتنزه تحت نوافذ بيتها، وقد فرش ظهره بهذه السجادة. وقال لي فرنر، الذي كان في تلك اللحظة عندهما، أن أثر ذلك في نفسها كان أثراً دراميًا شديداً. إن الأميرة الصغيرة تريد أن تؤلب جميع الناس عليّ، حتى لقد لاحظت على ضابطين من ضباط الحاشية أنهما أوشكا أن لا يلقيا عليّ التحية أثناء وجودها، ولكن ذلك لا يمنعهما من المجيء إلى بيتي للغداء كل يوم.

أما جروشنيتسكي فقد أصبحت حاله غريبة. إنه يسير، وقد وضع يديه خلف ظهره، لا يعرف أحداً ولا يلوي على شيء. وكأنما شُفيت ساقه بسحر، فهو الآن لا يكاد يعرج. وقد أتيح له أن يخاطب الأميرة الأم، وأن يثني على ابنتها. ولا شك أنها ترضى بالقليل، ولا تلحف، فها هي ذي ترد تحيته منذ ذلك الحين بابتسامة محببة لطيفة.

وسألني أمس:

ـ أأنت إذن تصر على أن لا تتعرف إلى السيدة ليجوفسكايا وابنتها؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ ولكن بيتهما أمتع بيوت المياه قاطبة... إن الطبقة الراقية كلها هنا...

ـ يا عزيزي، هذه الطبقة الراقية تزعجني كثيراً... هنا أو هناك. ولكن هل تتردد أنت عليهما؟

ـ لم أذهب إليهما بعد، لقد تحدثت مع الأميرة الصغيرة مرتين أو ثلاث مرات، ولكن المرء يخجل أن يفرض نفسه في بيت، رغم أن هذا مألوف هنا... لو كان لي على الأقل شارات ضابط...

ـ عفواً، إنك على ما أنت عليه أكثر لفتاً للاهتمام. وكل ما في الأمر أنك لا تعرف الاستفادة من مزايا الظرف الذي أنت فيه... إن معطف الجنود الذي ترتديه يجعلك في نظر فتاة عاطفية بطلاً وشهيداً.

فابتسم جروشنيتسكي ابتسامة الرضى، وقال:

ـ دعك من هذا الكلام!

فأردفت أقول:

ـ أنا واثق من أن الفتاة تحبك منذ الآن.

فاحمرَّ حتى الأذنين، وتجهَّم.

إيه أيها الغرور، أنت الرافعة التي كان يبحث عنها أرخميدس ليرفع العالم!...

قال جروشنيتسكي وهو يتصنع الزعل:

ـ أنت تحيل كل شيء إلى مزاح... فالفتاة، أولاً، لا تعرفني إلا قليلاً جداً...

ـ النساء لا يحببن إلا من لا يعرفنه.

ـ ولكنني لا أطمع في أن أعجبها. كل ما في الأمر أنني أريد التعرف إلى أسرة ممتعة، ومن المضحك أن تداعبني آمال أخرى... أما أنتم، يا غزاة بطرسبرغ، فشأنكم شأن آخر... يكفي أن تنظروا إلى امرأة حتى تذوب فوراً... بالمناسبة، هل تعرف أن الأميرة قد تحدثت عنك؟

ـ كيف؟ حدثتك عني؟

ـ ولكن ليس لك أن تُسرّ بما قالته عنك. لقد بدأت معها حديثاً بالقرب من البئر، على سبيل المصادفة تماماً. فما كدنا نتبادل ثلاث كلمات حتى سألتني: «من ذلك السيد ذو النظرة القاسية المنفِّرة؟... لقد كان معك حين...» ثم احمرت فقد تذكرت بادرتها اللطيفة، ولم تشأ أن توضح. قلت لها: «لا حاجة بك إلى أن تعيِّني لي ذلك اليوم، فستظل ذكراه منقوشة في نفسي إلى الأبد...» يا عزيزي بتشورين، لست أهنئك، فإنها ترى فيك رأياً سيئاً... وهذا مؤسف حقاً، لأن ماري فتاة لطيفة جداً...

وأحب أن ألفت نظركم إلى أن جروشنيتسكي هو من أولئك الذين إذا تحدثوا عن امرأة لا يكادون يعرفونها، قالوا: عزيزتي ماري، أو عزيزتي صوفيا، متى حظيت برضاهم عنها، وإعجابهم بها.

قلت بنبرة جادة:

ـ حقاً لا بأس بها... ولكن حذار يا جروشنيتسكي! إن أكثر الفتيات الروسيات يغتذين بحب أفلاطوني، دون أن يربطن به فكرة الزواج. والحب الأفلاطوني أشد أنواع الحب قلقاً. يلوح لي أن

الأميرة من تلك النساء اللواتي يردن أن يتسلين، فإذا ضجرت معك دقيقتين متعاقبتين، ضعت إلى الأبد. . . صمتك يجب أن يثير استطلاعها، وحديثك يجب أن لا يرويها تماماً. يجب أن تجعلها دائماً في حالة تعلُّق. لسوف تخاصم من أجلك رأي الناس جميعاً عشر مرات، لسوف تعدُّ هذا تضحية منها في سبيلك، ولكنها سوف تأخذ بتعذيبك جزاء لنفسها، ثم إذا بها، في ذات صباح، تقول لك بلا مراعاة إنها أصبحت لا تطيقك. إن لم تتسلط عليها، فإن قبلتها الأولى نفسها لن تعطيك حقاً في قبلة ثانية. ستغنج لك ما شاء لها الغنج، ثم إذا بها، بعد عام أو عامين، تتزوج قرداً أشوه إطاعة لأمها، وتروح تندب حظها الشقي، وتقول إنها ما أحبت في حياتها إلا رجلاً واحداً هو أنت. ولكن الأقدار لم تشأ أن تجمعها بذلك الرجل، لأنه يرتدي معطف جندي، رغم أن قلباً نبيلاً فياضاً بالحب يخفق تحت ذلك المعطف الغليظ الرمادي. . .

فضرب جروشنيتسكي المنضدة بيده، وأخذ يذهب ويجيء في الغرفة.

وضحكت في أعماق نفسي، حتى لقد ابتسمت مرتين، ولكنه، لحسن الحظ، لم يلاحظ ابتسامتي. واضح أنه عاشق مدنف، لأنه أصبح أكثر ثقة مما كان. ولاحظت أنه يحمل خاتماً من تلك الخواتم الفضية المنقوشة التي تصنع هنا. فاشتبهت في أمر هذا الخاتم، فنظرت فيه، فرأيت اسم **ماري** منقوشاً في داخله بأحرف صغيرة، وإلى جانب الإسم نقش تاريخ اليوم الذي ناولته فيه الكأس! لم أقل شيئاً. فإنني لا أحب أن أضطره اضطراراً إلى البوح بكل شيء، وإنما أريد أن يتخذني نجياً من تلقاء ذاته، فعندئذ سأتفكه. . .

استيقظت اليوم في ساعة متأخرة من الصباح، فلما وصلت إلى البئر لم أجد هنالك أحداً. وكان الجو حاراً. وغمامات صغيرة بيضاء، شعثة، تتراكض من الذرى التي يغطيها الثلج، وتنذر بالعاصفة. وكان الدخان يتصاعد من قمة ماشوك كما يتصاعد من مشعل أُطفيء. وهذه مزق من الغيوم تتموج وتزحف كالثعابين، كأن الأدغال الشائكة هي التي تحبسها عن المسير. كان الهواء مشحوناً بالكهرباء؛ فتسربت تحت عرائش الممر الذي يؤدي إلى المغارة. كنت مكتئباً حزين النفس، أفكر في المرأة التي على خدها شامة، والتي حدثني عنها الدكتور... لماذا جاءت؟ ولكن أهي هي حقاً؟ وما الذي جعلني أعتقد أنها هي؟ ما الذي يجعلني على يقين من ذلك؟ إن كثيراً من النساء على خدودهن شامات. وفيما أنا أفكر في ذلك، وصلت إلى المغارة. كانت تجلس هنالك على مقعد من الحجر، تحت القبة الظليلة الرطيبة، امرأة تلبس قبعة من القش، تتلفع بشال أسود، وقد أحنت رأسها على صدرها. كانت قبعتها تخفي وجهها، وكنت أهم أن أعود أدراجي، حتى لا أعكر عليها أحلامها، فإذا هي تنظر إليّ. فهتفت بالرغم مني:

ـ فيرا!

فارتعشتْ، ورأيت وجهها يمتقع. قالت:

ـ كنت أعرف أنك هنا.

فجلست وتناولت يدها. إن اضطراباً نسيته منذ زمن بعيد، سرى في كياني كله حين سمعت صوتها الحبيب. وأخذت عيناها العميقتان تنظران في عيني. فقرأت في نظراتها ارتياباً، وشيئاً يشبه أن يكون لوماً. قلت:

ـ ما أطول هذه المدة التي لم أرك خلالها!

ـ نعم إنها طويلة جداً، وقد تغيرنا كلانا كثيراً.

ـ أي إنك أصبحت لا تحبينني؟

ـ أنا متزوجة!...

ـ وتزوجت مرة أخرى؟ ولكن زواجك لم يكن يمنعنا من شيء منذ بضع سنين...

فسلَّت يدها من يدي، واحمرّ وجهها احمراراً شديداً.

ـ لعلك تحبين زوجك الثاني؟

فلم تجب على سؤالي، وأشاحت بوجهها عني.

ـ لعله شديد الغيرة؟

وظلت صامتة.

ـ فماذا إذن؟ لعله شاب، لعله جميل، لعله غني جداً، وأنت تخشين...

ونظرتُ إليها، فارتعدتُ خوفاً. كان وجهها يعبِّر عن يأس عميق... وكانت الدموع ترقرق في عينيها، تمتمت تقول:

ـ يلذ لك إذن أن تعذبني؟ كان ينبغي أن أكرهك منذ عرفتك، لأنك لم تهب لي غير الشقاء...

كان صوتها يرتعش، ثم انحنت عليّ، وأسندت رأسها إلى صدري.

قلت أخاطبها بيني وبين نفسي: «لعلك من أجل هذا بعينه أحببتني، لأن الأفراح تُنسى، أما الأتراح فلا تنسى مدى الحياة...».

وشددتها بين ذراعي شداً قوياً، وظللنا هكذا مدة طويلة، ثم

تقاربت شفتانا واتحدتا بقبلة طويلة مسكرة. كانت يداها باردتين كالثلج، وكان جبينها يحترق احتراقاً. ودار بيننا عندئذ حديث من تلك الأحاديث التي إذا سجلت على الورق لم يبق لها معنى، من تلك الأحاديث التي لا يمكن تكرارها بل ويتعذر تذكرها؛ ذلك لأن ما يعبر عنه الصوت يغني عما يقوله اللسان ويكمله، كما في أوبرا إيطالية.

إنها تصر إصراراً جازماً على أن لا أتعرف إلى زوجها، العجوز القصير الأعرج الذي لمحته في الشارع الكبير. لقد تزوجته من أجل ابنها. فهو غني ومصاب بالروماتزم... ولم أبح لنفسي أي مزاح في حقه، لأنها تحترمه كأب، ولكنها تخونه زوجاً... ما أعجب قلب الإنسان، لا سيما إذا كان قلب امرأة!

إن زوج فيرا، واسمه سميون فاسيليفتش، يَمتّ إلى الأميرة ليجوفسكايا بقرابة بعيدة، وبيتاهما متلاصقان، فكثيراً ما تذهب فيرا إلى الأميرتين. وقد وعدتها بأن أتعرف إلى السيدة ليجوفسكايا وابنتها، وأن ألاطف الفتاة لكي يحسبوا أن الهوى حيث أنظر. وهكذا لم يتغير في خططي شيء، وسوف أتسلّى...

أتسلّى!... نعم! لقد تجاوزت من الحياة تلك المرحلة التي لا تسعى فيها النفس إلى غير السعادة، والتي يشعر فيها القلب بحاجة إلى حب قوي جامح. إن كل ما أرغب فيه الآن هو أن أكون محبوباً، وأن لا تحبني إلا بضعة نساء! بل إنني لأشعر أن تعلقاً دائماً يمكن أن يكفيني: ما أبأسها للقلب من عادة!...

ثمة شيء أدهشني دائماً، هو أنني لم أكن في يوم من الأيام عبداً للنساء اللواتي أحببتهن. بالعكس، كنت أسيطر على إرادتهن

وعلى قلوبهن سيطرة لا سبيل لهن إلى دفعها، دون أن أفعل من أجل ذلك شيئاً. أيرجع هذا إلى أنني لا أحرص على أي شيء حرصاً عميقاً، وإلى أنهن يخشين في كل لحظة أن أفلت منهن؟ أيرجع إلى أن جسمي قوي ذو تأثير مغناطيسي؟ أم يرجع، بكل بساطة، إلى أنني لم ألق امرأة ذات إرادة قوية؟

يجب أن أعترف، من جهة أخرى، أنني لا أحب النساء اللواتي يملكن طبعاً قوياً: وهل على النساء أن يملكن طبعاً قوياً؟...

على أنني أتذكر الآن أنني أحببت مرة، مرة واحدة، امرأة قوية عنيفة، لم أستطع أن أنتصر عليها، فافترقنا عَدُوَّيْن، وأغلب ظني أننا لو تعارفنا بعد ذلك الوقت بخمس سنين، إذن لكان يمكن أن نفترق على غير هذه الصورة...

إن فيرا مريضة جداً، رغم أنها لا تريد الاعتراف بذلك. أخشى أن تكون مصابة بالسل، أو بهذا المرض الذي يسمونه fièvre lente[24]، وهو مرض ليس روسياً أبداً، وليس له في لغتنا اسم يسمى به.

وحبستنا العاصفة التي هبت أثناء وجودنا في المغارة، نصف ساعة أيضاً. لم تطلب فيرا أن أعاهدها على الوفاء، ولا سألتني هل أحببت غيرها منذ افترقنا... بل عاد اطمئنانها إلي، كسابق عهدها. ولن أخونها... إنها المرأة الوحيدة التي أعجز عن خيانتها. أعرف أننا سنفترق مرة أخرى، وأن هذا الفراق قريب، وقد يكون فراقاً لا لقاء بعده... وعندئذ يسير كل منا في طريق غير طريق صاحبه، إلى أن نموت، ولكن ذكراها ستظل منقوشة في

قلبي: قلت لها ذلك غير مرة، وهي تصدقني، رغم أنها تدَّعي خلاف ذلك.

وافترقنا أخيراً، وتابعتها بنظراتي طويلاً، إلى أن غابت قبعتها بين الأدغال والصخور. وانقبض صدري انقباضاً أليماً، كانقباضه يوم انفصلنا أول مرة. آه، كم سعدت بهذا الشعور! أهو الشباب يريد أن يعود إليّ بعواصفه الممتعة أم هي نظرة الوداع يلقيها عليّ آخر هدية يريد أن يبقيها لي ذكرى؟... إنه ليضحكني أن أتصور أنني لو رآني أحد لحسب أنني ما أزال شاباً في ميعة الصبا! إن وجهي ما يزال نضراً على شحوبه، وأعضائي مرنة متناسبة، وهذه غدائر كثة تحف بجبيني... عيناي تلتمعان، ودمي يغلي...

فلما عدت إلى منزلي امتطيت صهوة جوادي، ومضيت أعدو في السهوب، أحب أن أراني على ظهر حصان قوي البأس، بين الأعشاب العالية في ريح السهول! إنني لأتنسم الهواء المعطر بشراهة، وأغرق بصري في الأفق البعيد الأزرق، محاولاً أن أميز حواشي الأشياء، وهي غامضة ثم تتضح لحظة بعد لحظة. مهما تكن المرارة التي تثوي في قلبي، ومهما يكن الغم الذي يرهق فكري، فإن هذا كله يتبدد عندئذ في لحظة، ويهدأ قلبي: إن تعب الجسم ينتصر على قلق النفس. لا، ما من نظرة امرأة إلا وأستطيع أن أنساها، حين أسرح طرفي في الجبال المشبوكة تضيئها أشعة الظهيرة، أو حين أتأمل السماء الزرقاء، أو حين أسمع السيل يتدحرج من صخرة إلى صخرة هادراً مصطخباً.

لا شك أن القوزاق الذين يتثاءبون وهم في **أبراجهم** يراقبون، قد تصدعت رؤوسهم طويلاً، وهم يرونني أعدو بلا سبب ولا

هدف، إذ لا ريب أنهم ظنوني من لباسي شركسياً. وكثيراً ما قيل لي، في الواقع، إنني حين أكون على صهوة جوادي بلباس الشراكسة أبدو كاباردياً أكثر من الكاباردين أنفسهم. ويجب أن أعترف أنني في كل ما يتصل بهذا اللباس الحربي النبيل، شخص أنيق جداً: ما من شريطة زائدة، والأسلحة ثمينة ذات زخارف جد بسيطة، وفروة القلبق ما هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة، والجورب الجلدي، والحذاء متناسبان كل التناسب، وجلباب أبيض، وقفطان بني. ولقد درست طويلاً طريقة الجبليين في الفروسية، ولا يفرح قلبي لشيء كما يفرح للثناء على براعتي في امتطاء صهوة الحصان كالقفقاسيين. إنني أملك أربعة أحصنة، أحدها لي أنا، والثلاثة الباقية لأصدقائي، حتى لا ينتابني الضجر وأنا أعدو في الحقول وحدي. وأصدقائي يركبون خيلي مسرورين، ولكنهم لا يرافقونني أبداً. كانت الساعة قد بلغت السادسة حين تذكرت أن أوان الغداء قد أزف. وكان حصاني مكدوداً، فسرت في الطريق التي تمضي من بياتيجورسك إلى المستوطنة الألمانية التي كثيراً ما يذهب إليها مجتمع المياه في نزهات التسلية. إن الطريق تتلوى وسط الأدغال، وتهبط أحياناً إلى وديان صغيرة تجري فيها السواقي مغردة في ظل الأعشاب الطويلة. والجبال الزرقاء، جبال بشتو، وزمييناي، وليسايا، تنتصب في الأفق البعيد صاعدة على درجات. فلما قطعت وادياً من تلك الوديان (يسميه سكان المنطقة **بالكا**)، وقفت ليرد حصاني الماء، فلاحت لي جماعة زاهية من الفرسان تتنزه في الطريق، وتُحدِث جلبة كبيرة، فأما السيدات فيرتدين أثواب الفارسات سوداء وزرقاء؛ وأما الرجال فيرتدون مزيجاً من لباس

الشراكسة ولباس الروس. رأيت ـ جروشنيتسكي في طليعة الركب مع ماري.

إن السيدات اللواتي يفدن إلى المياه ما زلن يعتقدن أن للشراكسة هجمات في وضح النهار، وربما كان ذلك هو الذي دفع جروشنيتسكي إلى أن يحمل فوق معطف الجندي الذي يرتديه، سيفاً ومسدسين، لقد كان منظره مضحكاً بهذا الزي البطولي العجيب. كان يخفيني عن أعينهما دغل كبير، ولكنني كنت أراهما من خلال الأوراق؛ وأدركت من تعبير وجهيهما أن الحديث عاطفي. ووصلا أخيراً إلى المنحدر، فأمسك جروشنيتسكي بزمام حصان الأميرة، وسمعت نهاية حديثهما. قالت الأميرة:

ـ وهل تريد أن تقضي حياتك كلها في القفقاس؟

فأجاب الفارس:

ـ ما لي ولروسيا؟ روسيا بلد يعتقد فيه ألوف الناس أن من حقهم أن يحتقروني، لأنهم أغنى مني... أما هنا، فإن هذا المعطف الغليظ لم يحل بيني وبين التعرف إليك...

قالت وقد احمر وجهها:

ـ بالعكس.

فارتسمت علائم الرضى على وجه جروشنيتسكي، وأردف يقول:

ـ هنا، تحت رصاص المتوحشين، ستنقضي حياتي مضطربة سريعة، من دون أن أشعر بها... وإذا أرادت مشيئة الله أن ترسل إليّ في كل عام نظرة مشرقة من عيني امرأة، نظرة مثل نظرة...

وكانا قد وصلا إلى حيث كنت، فلكزت حصاني، وخرجت من بين الأدغال... فصاحت الأميرة مذعورة:

- Mon dieu, un circassien!..[25]

فأجبتها بالفرنسية، كي أبرر خطأ ظنها:

- Ne craignez rien, madame, - je ne suis pas plus dangereux que votre cavalier[26].

قلت ذلك وأنا أنحني لها قليلاً. فظهرت على وجهها علائم الاضطراب. تُرى ألأنها أخطأت الظن، أم لأنها عَدَّت جوابي وقحاً؟ أود لو يكون الافتراض الثاني هو الصحيح. وألقى عليّ جروشنيتسكي نظرة استياء.

في ساعة متأخرة من المساء، في نحو الساعة الحادية عشرة، ذهبت أتنزه تحت زيزفونات الشارع الكبير. كانت المدينة نائمة، وليس ثمة إلا بضع نوافذ ما تزال تضيء. ومن جهات ثلاث تتراءى الذرى السوداء من سلاسل الجبال التي تلاصق جبل ماشوك الذي انتشرت على قمته سحابة تنذر بشَرّ. وكان القمر يطلع من الشرق، وفي الأفق البعيد يلتمع الهدب الفضي من الجبال التي تغطيها الثلوج. وكانت أصوات الخفراء تمتزج بخرير الينابيع الحارة التي تفتح في الليل. ومن حين إلى حين، يسمع صوت حوافر حصان على أرض الشارع، يصحبه صرير عربة أو غناء تتري حزين. وجلست على أحد المقاعد، واستغرقت في أفكاري... إني لأشعر بحاجة قوية إلى الإفضاء بما في نفسي إلى أحد... ولكن إلى من أفضي بما في نفسي؟ وذكرت فيرا... ترى ماذا تصنع؟ ليتني أستطيع أن أشد على يدها الآن بيدي.

وفجأة سمعت وقع خطوات سريعة متفاوتة. لا بد أنه جروشنيتسكي... حقاً إنه هو!

- من أين تأتي؟

ـ من عند الأميرة ليجوفسكايا.

قال ذلك بنبرة فخورة. ثم أردف:

ـ ليتك سمعت ماري تغني!...

ـ هل تريد أن أقول لك؟ إني لأراهن على أنها لا تعرف أنك جندي، بل تحسب أنك ضابط جُرّد من رتبته...

فأجابني ذاهلاً:

ـ هذا ممكن! ولكن فيم يهمني؟...

ـ عفواً. لقد قلت ذلك كما يمكن أن أقول شيئاً آخر...

ـ ولكن هل تعلم أنها حانقة عليك أشد الحنق؟ لقد رأت أنك على جانب من الوقاحة لا نظير له. وبذلك كل ما بوسعي من جهد حتى أقنعها بأنك شخص مثقف وأنك تعرف المجتمع الراقي، فلا يعقل أن تكون قصدت إهانتها. فقالت إن نظرتك وقحة، وإنك لا شك مغرور بنفسك.

ـ ليست على خطأ... ولكن يبدو لي أنك تريد أن تظاهرها؟

ـ ليس لي حق في ذلك بعد، مع الأسف...

قلت في نفسي: «إن له إذن لأملاً...».

وأردف جروشنيتسكي يقول:

ـ يا حسرتي عليك. لن يسهل أن تتعرف إليهما بعد ذلك الحادث. هذه خسارة! إن بيتهما لمن أمتع ما عرفت من بيوت.

فابتسمت بيني وبين نفسي.

ـ ما من بيت يبدو لي في هذه اللحظة أمتع من بيتي.

قلت ذلك وأنا أتثاءب، ونهضت لأذهب. قال:

ـ اعترف مع ذلك بأنك نادم؟...

ـ هه! ولكنني أستطيع أن أذهب إليهما منذ مساء الغد، إن أردت.

ـ سنرى...

ـ وسأبدأ بمغازلة الأميرة الصغيرة إكراماً لك إذا شئت...

ـ هذا إذا أصغت إليك!

ـ ما عليّ إلا أن أنتظر اللحظة التي يضجرها فيها حديثك... هيا، هيا، عم مساء!...

ـ سأطوف قليلاً، فإنه ليستحيل عليّ أن أنام... فإذا شئت ذهبنا إلى المطعم نلعب؟... إنني الآن لفي حاجة إلى إحساسات قوية...

ـ أتمنى لك أن تخسر...

قلت له ذلك، وعدت إلى بيتي.

21 أيار

انقضى ما يقرب من أسبوع، ولم أتعرف بعد إلى السيدة ليجوفسكايا وابنتها. إنني أنتظر فرصة مناسبة. إن جروشنيتسكي يتبع الأميرة الصغيرة كظلها، وهما يتحدثان أحاديث ما لها من نهاية. تُرى متى يضجرها؟ إن الأم لا تلقي إلى ذلك بالاً ولا تحاذر، لأن الرجل **ليس بالذي تريده لابنتها بعلاً**. هكذا منطق الأمهات! لقد فاجأت الصبية تلقي على جروشنيتسكي نظرة عاطفية، مرتين أو ثلاث مرات... يجب أن يوضع حد لهذا.

أمس جاءت فيرا إلى البئر لأول مرة... لم تخرج منذ اليوم الذي التقينا فيه بالمغارة؛ أغطسنا قدحينا معاً، فأنحت عليّ وهمست بي:

ـ ألا تريد أن تتعرف إلى الأميرتين ليجوفسكايا؟ إن بيتهما هو المكان الوحيد الذي يمكن أن نلتقي فيه...

هذا عتاب!... هذا شيء مضجر! ولكنني أستحقه...

المناسبة: غداً تقام في قاعة المطعم حفلة راقصة بالاكتتاب، سأرقص مع الأميرة رقصة المازوركا.

22 أيار

اجتمعت الطبقة الراقية في بهو المطعم، فما أزفت الساعة التاسعة حتى كانوا جميعاً هناك. لقد وصلت الأميرة وابنتها مع آخر من وصلوا. وكان كثير من هاته السيدات ينظرن إليها نظرة حسد وعداوة، لأن ماري كانت أنيقة كل الأناقة. واللواتي يعددن أنفسهن من الطبقة الأرستقراطية، أخفين حسدهن، فاقتربن منها. هل يمكن أن لا يقع هذا؟ متى اجتمعت النساء تكونت على الفور حلقة عليا وحلقة دنيا! وكان جروشنيتسكي بين الجمهور على مقربة من النافذة، قد ألصق وجهه بزجاجها، وأخذ يتأمل معبودته لا يفارقها بصره لحظة. ولقد ألقت عليه الأميرة، وهي تمر، تحية لا تكاد تلاحظ، فأشرق وجهه كالشمس... وبدأ الرقص برقصة بولونية... ثم عزفت الجوقة الفالس، فأخذت المهاميز ترن، وأخذت ذيول الثياب ترفرف وتدور.

كنت وراء سيدة سمينة غارقة في ريش وردي اللون، ذكرني فستانها بعهد زيّ السلال، وذكرتني برقشة جلدها المحبب بذلك العصر الجميل، عصر الحرير الأسود المذبوب. وكان في رقبتها

ثؤلول كبير أخفته تحت قفل عقدها. وسمعتها تقول لفارسها، وهو رئيس خيّال:

ـ إن هذه الصغيرة ليجوفسكايا طفلة لا تطاق! تصور أنها اصطدمت بي ولم تقدم إليّ اعتذارها؛ وأكثر من ذلك أنها التفتت وحدقت إليّ بنظارتها التي في يدها... C'est impayable![27] بم تعتز هذا الاعتزاز كله؟ إنها في حاجة إلى درس قاس.

فأجابها الرئيس المهذب:

ـ ستعطى درساً!

ومضى إلى الحجرة المجاورة.

فاقتربت من الأميرة الشابة فوراً. ودعوتها إلى رقصة فالس، مستفيداً من هذه العادة المألوفة هنا، وهي أن يستطيع الرجل مراقصة نساء لا يعرفهن. لم تكد تستطيع أن تكبح ابتسامتها وأن تخفي فرح انتصارها. ولكنها سرعان ما اصطنعت عدم المبالاة بل والقسوة؛ فأسبلت يدها على كتفي بإهمال، وعطفت رأسها قليلاً إلى جانب، وأخذنا ندور. لا أعرف قداً ألذّ من هذا القد ولا ألدن! كانت أنفاسها الطرية تهب على وجهي خفيفة... وأحياناً تنزلق على خدي الملتهب غديرة من غدائرها انفصلت عن أخواتها في زوبعة الفالس... درنا حول الحلبة ثلاث مرات (إنها تجيد الفالس إجادة رائعة)، وأخذ منها التعب كل مأخذ، واضطربت عيناها، ولم تكد تستطيع شفتاها المنفتحتان قليلاً أن تقولا «Merci, monsieur»[28]، وهو شكر لا بد منه.

قلت لها بعد بضع لحظات من صمت، وأنا أتصنع غاية الخضوع والضراعة:

ـ بلغني، أيتها الأميرة، أنك من سوء حظي غير راضية عني، رغم أنك لا تعرفينني... وأنك ترينني سفيهاً وقحاً... فهل هذا صحيح؟

فأجابت، وهي تقلب شفتها قليلاً عن سخر (يجب أن أذكر أن هذه الحركة تنسجم كثيراً مع وجهها القُلّب):

ـ وهل تريد أن تبقيني على رأيي هذا؟

ـ لئن تجاسرت فأسأت إليك، فاسمحي لي الآن، بجسارة أكبر، أن أتوسل إليك طالباً عفوك ومغفرتك. يميناً إن غاية ما أصبو إليه وأطمع فيه، أن أبرهن لك على أنك أخطأت الظن بي.

ـ سيصعب عليك هذا كثيراً...

ـ لماذا؟

ـ لأنك لا تأتي إلينا، وحفلة كهذه لن تتكرر كثيراً.

قلت في نفسي «معنى هذا أن بابهما موصد عني إلى الأبد».

وقلت لها في شيء من الحسرة:

ـ ألا تعرفين أيتها الأميرة أن المجرم التائب يجب أن لا يصدّ، وإلا تضاعف إجرامه، وعندئذ...

هنا سمعت قهقهات وهمسات فاضطررت أن أقطع جملتي وأن ألتفت إلى وراء. فرأيت رهطاً من الرجال قد وقفوا على مسافة بضع خطوات مني، وبينهم الرئيس الخيال الذي يبيِّت لأميرتي الصغيرة نية الشر والعداوة. كان يبدو سعيداً جداً، وهو يفرك يديه، ويتبادل الغمزات مع رفاقه. وفجأة خرج من الرهط رجل يرتدي لباس السهرة، وله شاربان طويلان وقد التمع وجهه بعلائم السكر، اتجه نحو الأميرة بخطى مترنحة، حتى إذا وقف أمامها، وقد

اضطربت هي من ذلك أشد الاضطراب، شبّك يديه وراء ظهره، وحدّق إليها بعينيه الرماديتين المشوشتين، وقال بصوت أبحّ:

ـ هل تسمحين... ولكن لم هذه الكلفة كلها! ببساطة، أحجزك لرقصة المازوركا...

فقالت بصوت مضطرب، وهي تلقي حولها نظرة توسل:

ـ ماذا تريد مني؟

ومن سوء الحظ أن أمها كانت بعيدة، ولم يكن ثمة أي رجل ممن تعرفهم، إلا واحداً من ضباط الحاشية، رأى كل شيء فيما أعتقد، ولكنه اختبأ بين الجمهور، حتى لا يتدخل في الأمر.

قال السيد السكران وهو يغمز الضابط الخيال الذي كان يشجعه بحركة من رأسه:

ـ ماذا؟ لا تريدين؟ أكرر ما قلت: لي الشرف أن أطلبك pour mazure...[29] لعلك تظنين أنني سكران؟ لا بأس... السكر يزيدني براعة في الرقص، أستطيع أن أؤكد لك ذلك جازماً...

رأيت أنها تكاد يغمى عليها من شدة الرعب والاستياء.

فسرت إلى السيد السكران، وقبضت على ذراعه في خشونة، وحدّقت في بياض عينيه، وطلبت إليه أن ينسحب، مضيفاً إلى ذلك أن الأميرة وعدتني بأن تراقصني المازوركا منذ مدة طويلة. فقال وهو يضحك بضجة:

ـ إذن لا سبيل!... في مرة أخرى!...

قال ذلك، ومضى يلتحق برفاقه الذين شعروا بخزيٍ شديد، وقادوه حالاً إلى حجرة أخرى.

كافأتني الأميرة على ذلك بنظرة عميقة، نظرة لا تنسى.

ومضت إلى أمها، تقص عليها كل شيء، فبحثت الأم عني حتى وجدتني، فشكرتني، وقالت إنها تعرف أمي، وإنها صديقة نصف «دزينة» من عماتي وخالاتي، وأضافت إلى ذلك:

ـ كيف لم نتعارف إلى الآن؟ اعترف أن الذنب ذنبك. أنت تتهرب من جميع الناس. ما هذا؟ آمل أن يستطيع هواء صالوني تبديد سأمك، أليس هذا صحيحاً؟

فسقت إليها عبارة من تلك العبارات الفصيحة التي يجب أن يحفظها المرء على ظهر القلب لمناسبة كهذه المناسبة.

وطال رقص الكادريل ثم طال إلى غير نهاية.

وأخيراً انفجرت الأوركسترا تعزف المازوركا، في الرواق. فجلسنا أنا والأميرة.

لم ألمِّح مرة واحدة إلى حادثة السيد السكران، ولا إلى سلوكي السابق، ولا إلى جروشنيتسكي. وكان الانزعاج الذي أحدثه فيها ذلك الحادث الكريه قد ذهب شيئاً فشيئاً، فاسترد وجهها تورده، وأخذت تمزح في كثير من الظُّرْف، وكان حديثها فكهاً دون أن تقصد إلى الفكاهة، وكان كلامها حياً طلقاً رشيقاً، وكانت ملاحظاتها في بعض الأحيان عميقة... وألمحتُ بعبارة مضطربة ملتبسة إلى أنني معجب بها منذ زمان طويل، فأحنت رأسها واحمرت قليلاً.

ثم قالت وهي تحمل نفسها على الضحك حملاً، وترفع نحوي عينيها المخمليتين:

ـ أنت رجل غريب!

واستأنفت كلامي أقول:

ـ ولئن لم أشأ أن أتعرف إليك، فلأنك محاطة بجمهور كبير من العبّاد، وكنت أخشى أن أضيع بينهم تماماً.

ـ أنت مخطىء! إنهم جميعاً مملون.

ـ جميعاً! هل هذا ممكن؟

فحدقت إليّ، كأنها تحاول أن تتذكر، واصطبغ وجهها مرة أخرى بحمرة خفيفة، وقالت أخيراً بلهجة جازمة:

ـ نعم، **جميعاً**!

ـ وحتى صديقي جروشنيتسكي؟

فهتفت تقول في لهجة الشك:

ـ أهو صديقك؟

ـ نعم، هو صديقي.

ـ لا، طبعاً، هو لا يدخل في عداد المملين...

فقلت ضاحكاً:

ـ إذن يدخل في عداد البؤساء؟

ـ طبعاً. وهل تجد في هذا ما يضحك؟ ليتني أراك في مكانه...

ـ لقد كنت جندياً أنا أيضاً... وأؤكد لك أن تلك الفترة كانت أجمل أيام حياتي!...

قالت في حرارة:

ـ أهو إذن جندي؟...

ثم أردفت تقول:

ـ كنت أظن...

ـ ماذا كنت تظنين؟...

ـ لا شيء!... تُرى من هذه السيدة؟

ودار الحديث في اتجاه آخر، ثم لم نعد إلى ذلك الموضوع.

وانتهت رقصة المازوركا، فافترقنا على كلمة إلى اللقاء.

وانصرفت السيدات... فذهبت أتناول طعام العشاء، ولقيت فرنر. قال لي فرنر:

ـ ها ها! لقد قبضت عليك متلبساً بالجرم، يا من قلت إنك لا تريد أن تتعرف إلى الأميرة إلا بإنقاذها من موت محقق.

قلت:

ـ فعلت ما هو خير من ذلك، أنقذتها من إغماء في قلب حلبة الرقص!...

ـ كيف وقع ذلك؟ قص عليّ!...

ـ بل احزره، يا من تحزر كل شيء في الدنيا!

23 أيار

في الساعة السابعة من المساء ذهبت أتنزه في الشارع الكبير. فرآني جروشنيتسكي من بعيد. فجاء إليّ. كانت تلتمع في عينيه حماسة مضحكة، فصافحني بقوة، وقال بصوت تراجيدي:

ـ شكراً بتشورين... هل تفهمني؟...

ـ لا... ثم إنني لا أتذكر أن ما صنعت يستحق أن أُشْكر عليه.

ـ كيف! أمس؟ هل نسيت؟ لقد قصت عليّ ماري كل شيء...

ـ ها، نعم! ولكن هل أصبح كل شيء بينكما مشتركاً؟ حتى العرفان بالجميل؟

فقال جروشنيتسكي بلهجة الجد:

ـ اسمع! لا تسخر من حبي إذا أردت أن تظل صديقي. أنت ترى أنني أحبها إلى حد الجنون... وأعتقد... أرجو أنها تحبني أيضاً. لي رجاء أتوجه به إليك. ستذهب إليهما هذا المساء، وعِدْني بأن تلاحظ كل شيء. إن لك خبرة في هذه الأمور، وأنت تعرف النساء أكثر مني... آه من النساء؟ آه من النساء! من ذا الذي يستطيع أن يفهمهن؟ بسماتهن تكذّب نظراتهن؛ وكلامهن يعد ويجذب، ونبرة صوتهن تبعد وتصدّ... تارة يفهمن كل ما دقّ من خطرات فكرنا، وتارة يعجزن عن فهم أوضح الإيماءات... هذه ماري مثلاً: أمس كانت عيناها تلتمعان بهوى عنيف وهي تنظر إليّ، واليوم أراهما كابيتين باردتين...

قلت:

ـ لعل هذا من تأثير المياه.

قال:

ـ أوه... أنت ترى الأمور دائماً من جانبها الدميم.

ثم أضاف في احتقار:

ـ اذهب فأنت مادي... ولكن فلنغير مادة الحديث...

وسرّ كثيراً بهذا التلاعب في الألفاظ، وأصبح أكثر مرحاً.

وفي الساعة الثامنة ذهبنا إلى بيت الأميرة معاً، فلما مررنا تحت نوافذ فيرا رأيتها تطل من إحداها، فتبادلنا نظرة سريعة، ثم إذا بها تصل إلى صالون السيدة ليجوفسكايا بعدنا بقليل. فقدمتني إليها الأميرة الأم على أنها قريبتها. فتناولنا الشاي، وكان هناك عدد كبير من الناس، وكان الحديث عاماً. وقد حرصت على أن أحظى

بإعجاب السيدة ليجوفسكايا، فكنت أمزح، حتى أضحكتها ضحكاً يخرج من صميم القلب عدة مرات. وكانت ابنتها تود لو تضحك، ولكنها كانت تكظم ضحكها حتى لا تخرج عن الدور الذي اصطنعته، فلقد كانت ترى أن السآمة تليق بجمالها، ولعلها على حق. وسرّ جروشنيتسكي جداً أن مرحي لم يكتسبها.

وبعد تناول الشاي ذهبنا إلى الصالة. قلت لفيرا، وأنا أمر إلى جانبها:

ـ أأنت راضية عن طاعتي يا فيرا؟

فألقت عليّ نظرة تفيض حباً وشكراً. إنني متعود على هذه النظرات، ومع ذلك فما أكثر ما كانت تبث في نفسي من سعادة! وأجلست الأميرة ابنتها إلى البيانو، ورجاها الناس أن تغني. ولم أنبس أنا بكلمة واحدة، بل انتهزت الفرصة، وانسللت إلى قرب النافذة مع فيرا التي كانت تريد أن تفضي إليّ بشيء خطير يهمنا كلينا... ترّهة من الترّهات!

وأحنق عدم اكتراثي هذا الأميرة كثيراً، كما لاحظت ذلك في نظرة ساخطة من عينيها اللامعتين. آه كم أفهمها هذه اللغة، هذه اللغة الخرساء، ولكنها معبِّرة، وهي وجيزة ولكنها عنيفة!

وأخذت أخيراً تغني. إن صوتها جميل، ولكنها لا تجيد الغناء... ثم إنني لم أحسن الإصغاء. أما جروشنيتسكي فقد اتّكأ على البيانو أمامها، وراح يلتهمها بنظراته التهاماً، ويقول في كل لحظة بصوت خافت:

«Charmant! délicieux!»[30].

قالت لي فيرا:

ـ اسمع! لا أريد أن تتعرف إلى زوجي، ولكن عليك أن تحوز على رضى الأميرة الأم. وهذا سهل عليك، إنك تستطيع كل ما تشاء. في هذا المكان وحده نستطيع أن نلتقي.

ـ في هذا المكان وحده؟

فاحمر وجهها، واستمرت تقول:

ـ أنت تعرف أنني عبدتك، وأنني لم أستطع أن أقاومك يوماً، وسأنال عقاب ذلك حين أفيق فإذا أنت لا تحبني! ولكنني أريد أن تصون سمعتي، لا من أجل نفسي، أنت تعرف ذلك كل المعرفة. أتوسل إليك أن لا تعذبني كما كنت تعذبني، بشكوكك العقيمة وببرودتك المفتعلة. أظن أنني سأموت قريباً، فإني أحس بالوهن يزداد يوماً بعد يوم... ومع ذلك لا أستطيع أن أفكر في الحياة الآتية، ولا أحلم إلا بك... إن الرجال لا يفهمون الأفراح التي تشيعها في القلب نظرة عين أو لمسة يد... أقسم لك أنني حين أسمع صوتك، أشعر بسعادة عميقة، غريبة، لا تغني عنها أحرّ القبلات...

وفي أثناء ذلك توقفت الأميرة ماري عن الغناء، وإذا بالمديح يتقاطر عليها من كل صوب، اقتربت منها آخر من اقترب، وقلت كلمتين في الثناء على صوتها، بلهجة لا اكتراث فيها.

فأطالت شفتها السفلى، وأحنت رأسها إحناءة ساخرة وقالت:

ـ يسرني ثناؤك كثيراً، ولا سيما أنك لم تسمع شيئاً البتة. ولكن لعلك لا تحب الموسيقى.

ـ بالعكس، ولا سيما بعد الغداء.

ـ كان جروشنيتسكي على حق حين قال إن أذواقك ليس فيها

شيء من الشعر. فها أنت ذا لا تحب الموسيقى إلا من زاوية الطعام.

ـ مخطئة... لست ممن يحبون الطعام، فإن معدتي سيئة جداً. ولكن الموسيقى، بعد الطعام، تحمل على النوم، ومن الخير للصحة أن ينام المرء بعد تناول الغداء، فأنا إذن أحب الموسيقى من زاوية الطب. أما في المساء، فالموسيقى تثيرني، تجعلني حزيناً مسرفاً في الحزن أو فرحاً مسرفاً في الفرح، ومن المتعب أن يحزن المرء أو أن يفرح حين لا يكون ثمة داع جدي يدعو إلى الحزن أو إلى الفرح... ثم إن الحزن، بين الناس، مضحك، والفرح إن زاد عن الحد كان وقاحة...

لم تصغ إلى كلامي حتى النهاية، بل ذهبت تجلس إلى جانب جروشنيتسكي، ودار بينهما عندئذ حديث عاطفي. وتراءى لي أن الأميرة كانت تجيب على عباراته البليغة، ذاهلةً لا تعرف ماذا تقول، على تظاهرها بأنها تصغي إلى كلامه في كثير من الانتباه. ذلك أنه كان ينظر إليها في بعض الأحيان نظرة استغراب، محاولاً أن يدرك سبب هذا الاضطراب الخفي الذي تفضحه نظرتها القلقة من حين إلى حين...

ولكنني فهمتك أيتها الأميرة العزيزة. حذار مني! تريدين أن تقتصي لنفسك بالسلاح عينه، تريدين أن تجرحي عزتي. لن تظفري بذلك! وإذا أعلنت عليّ الحرب، فلن تأخذني بك رحمة.

تظاهرت عدة مرات، أثناء السهرة، بأنني أريد الاشتراك في حديثهما، ولكنها استقبلت كلامي بشيء من الجفاف، فابتعدت أخيراً وأنا أتظاهر بالأسى والحنق. انتصرتْ الأميرة. وانتصر

جروشنيتسكي أيضاً. انتصرا، يا صديقيّ، وحثا الخطى! عمر نصركما قصير!... أوجس ذلك! أني حين أتعرف إلى إمرأة أدرك أنها سوف تحبني أو لن تحبني، وما خاب ظني يوماً...

قضيت باقي السهرة إلى جانب فيرا نتحدث في الماضي حديثاً طويلاً حتى شبعت... إنني لا أعرف حقاً لماذا تحبني كل هذا الحب، لا سيما أنها الوحيدة التي فهمتني فهماً عميقاً، وعرفت ما بنفسي من ضروب الضعف الحقير والهوى الفاسد... هل يمكن أن يكون الشر جذاباً إلى هذا الحد؟...

وخرجت مع جروشنيتسكي، وأمسك بيدي في الشارع، وقال بعد برهة طويلة من الصمت:

ـ ما رأيك؟

وددت لو أقول له: «رأيي أنك غبي»، ولكنني أمسكت عن الكلام، واكتفيت بهزّ كتفي.

29 أيار

خلال هذه الأيام كلها لم أخرج مرة واحدة عن الخط الذي رسمته لسلوكي. أخذ حديثي يرضي الأميرة الشابة. لقد قصصت عليها بعض الأحداث الغريبة من حياتي، وأخذت تنظر إليّ نظرتها إلى رجل فريد عجيب. إنني أسخر من كل شيء. وأسخر من العواطف أكثر من أي شيء. أخذ هذا يرعبها. إنها لا تجرؤ على الشروع في حديث عاطفي مع جروشنيتسكي بحضوري. حتى إنها أجابت على فوراته بابتسامة ساخرة عدة مرات. ولكنني كنت، كلما أقترب منها، أصطنع هيئة الإذعان، وأدعهما وحدهما. سُرَّت من

ذلك في المرة الأولى، أو تظاهرت بأنها سُرت. ولكنها في المرة الثانية سخطت عليّ. وفي المرة الثالثة سخطت عليه هو.

قالت لي أمس:

ـ أنت قليل الاعتزاز بنفسك... ما الذي يوهمك بأن صحبة جروشنيتسكي أمتع عندي من صحبتك؟

فأجبتها قائلاً:

ـ إنني أضحِّي بلذتي في سبيل سعادة صديقي...

قالت:

ـ وتضحي بلذتي أيضاً.

فحدقت إليها بنظرة رصينة، ثم لم أتجه إليها بكلمة واحدة طوال ذلك اليوم... كانت في المساء واجمة تفكر، وفي صباح اليوم كانت أشد وجوماً. وحين اقتربت منها اليوم، كانت تصغي ذاهلة إلى جروشنيتسكي الذي كان يتدفق في الحديث عن جمال الطبيعة، فيما أعتقد، فلما رأتني أخذت تضحك ضحكاً عالياً (في غير محله) متظاهرة بأنها لم تلمحني. فابتعدت وأخذت أراقبها خلسة، فرأيتها تشيح بوجهها عن محدثها، تتثاءب مرتين. إن جروشنيتسكي يضجرها، ما في ذلك ريب. سأظل يومين أيضاً لا أخاطبها بكلمة.

3 حزيران

كثيراً ما أتساءل لماذا أنصب هذا الانصباب على إثارة الحب في قلب فتاة لا أنوي إغراءها ولا أريد أن أتزوجها؟ ما هذا الطبع المغناج الذي يليق بامرأة؟ إن فيرا تحبني حباً لن تقدر على مثله

الأميرة ماري. . . ولو كانت الأميرة تبدو لي صعبة المنال لقلت إن الصعوبة تغريني. . .

ولكن الأمر ليس كذلك. لست إذن بصدد تلك الحاجة القلقة إلى الحب التي تعذبنا في السنين الأولى من شبابنا، وما تنفك تنقلنا من امرأة إلى أخرى، إلى أن نجد امرأة لا تستطيع أن تطيقنا، فإذا نحن نثبت على الهوى، ونشعر بذلك الحب الجامح الصادق اللانهائي، الذي يمكن أن نعبِّر عنه في الرياضيات بخط يبدأ من نقطة ويغيب في الفضاء الفسيح. . . إن سر هذه اللانهاية هو العجز عن بلوغ الهدف أي الوصول إلى الغاية. . .

ولكن ما الذي يحملني إذن على هذا العناء كله؟ أتكون هي الغيرة من جروشنيتسكي؟ مسكين جروشنيتسكي، إنه لا يستحق حقاً هذه الغيرة!. . . أم لعلني إنسان مع تلك العاطفة الخبيثة الجارفة التي تدفعنا إلى تحطيم ما تفيض به نفس الجار من أوهام عذبة، حتى ننعم بتلك اللذة الصغيرة، وهي أن نجيبه ذات يوم حين يسألنا وقد تملَّكه اليأس: بمن أثق بعد الآن؟ فنقول له: «اسمع يا صديقي، لقد مررت بمثل ما تمر به الآن، ها أنذا مع ذلك، كما ترى، أتغذى وأتعشى، وأنام هادئاً، وآمل أن أستطيع لقاء الموت بلا صراخ ولا دموع!».

ثم، أليس في امتلاك نفس فتية، لم تكد تتفتح، لذة لا تُقاوَم؟ إنها كتلك الزهرات التي تنشر عبقها العطر لأولى أشعة الشمس: ففي تلك اللحظة إنما يجب أن تجتني، لترمي من ثم على قارعة الطريق، بعد أن تُشمَّ حتى الثمالة: وربما تجد يومئذ من يلتقطها. إني لأشعر بنهم في نفسي لا يشبع، يلتهم كل ما يصادفه

على الطريق. ولا أنظر إلى آلام الآخرين وأفراحهم إلا من ناحية صلتها بي، أي على أنها غذاء لنفسي. أصبحت عاجزاً عن الاندفاع المجنون بتأثير هوى جامح. لقد خنقت الظروف طموحي. ولكنه يظهر الآن بوجه آخر، لأن الطموح ليس إلا الظمأ إلى السيطرة، وغاية اللذة عندي أن أُخضع من يحيط بي. وأن توحي بالحب والوفاء والخوف، أليس ذلك أول علامة من علامات الظفر، وأكبر نصر تحققه قوتك؟ أن تكون مبعث ألم أو لذة لآخر، دون أن يكون لك أي حق في ذلك، أليس هذا أعذب غذاء تتغذى به كبرياؤك؟ وما هي السعادة؟ إنها ارتواء الكبرياء. لو اعتقدت أنني أحسن الناس وأقواهم، لأصبحت سعيداً. ولو أحبني جميع الناس، لوجدت في نفسي ينابيع من الحب لا تنضب. والشر يلد الشر إن الألم الأول الذي تعانيه يطلعك على اللذة التي يحققها لك تعذيب الآخرين. ولا يمكن أن تخطر فكرة الشر ببال أحد، إلا ويفكر في تحقيقها فوراً. قال أحدهم: الأفكار مخلوقات عضوية، ولادتها تهب لها شكلاً، وشكلها هو الفعل. والذي تولد في ذهنه الأفكار أكثر من غيره، يفعل أكثر من غيره. ويتبع ذلك أن العبقري إذا سُمّر على كرسي الوظيفة فإما أن يموت وإما أن يجن، مثله كمثل من أوتي جسماً قوياً، إذا عاش حياة خاملة ساكنة ولم ينفق من قوته شيئاً، مات بسكتة القلب.

ما الأهواء الجامحة إلا أفكار في أول مرحلة من مراحل نموها. هي من شأن القلب الفتي، وما أشد حماقة من يتصور أنه يتمكن أن يظل مضطرباً بها، حياته كلها. كثير من الأنهر الهادئة هي في أول أمرها سيول عارمة جارفة. ولكن ما من نهر منها يظل

يتواثب ويرغي ويزبد حتى لحظة انصبابه إلى البحر. وكثيراً ما يكون هذا الهدوء دليل قوة كبيرة كامنة. إن الأفكار والعواطف الواسعة العميقة تنفي الفورات الهائجة والاندفاعات المجموعة. والنفس، في ألمها ولذتها، تعي كل ما يجري فيها أدق الوعي، وتقنع ذاتها بأن ما كان لا بد أن يكون. تعرف أنها، بدون العواصف، تجففها حرارة الشمس الدائمة. إنها تتغذى بحياتها نفسها. تدلل ذاتها وتعاقب ذاتها، كما يدلل ويعاقب طفل حبيب. لا يستطيع الإنسان أن يفهم العدالة الإلهية إلا إذا بلغ هذه الدرجة العليا من معرفة نفسه.

حين أعدت قراءة هذه الصفحة لاحظت أنني ابتعدت عن موضوعي... ولكن لا ضير!... إنني أكتب هذه اليوميات لنفسي، وكل ما أخطه سيكون لي في المستقبل ذكرى ثمينة.

....

جاءني جروشنيتسكي، ووثب إلى عنقي: لقد أصبح ضابطاً. وشربنا الشمبانيا. وما هي إلا برهة حتى دخل الدكتور فرنر. قال فرنر يخاطب جروشنيتسكي:

ـ لا أهنئك.

ـ لماذا؟

ـ لأن معطف الجنود الذي كنت ترتديه جميل عليك جداً. ثق أن بدلة ضابط من ضباط المشاة تصنعها هنا، لا تجعلك شائقاً كثيراً. انظر، لقد كنت إلى الآن فريداً فذاً، أما اليوم فقد أصبحت كسائر الناس.

ـ لك أن تقول ما تشاء يا دكتور، فلن يمنعني كلامك من أن أفرح!...

وهمس في أذني:

ـ إنه لا يعلم الآمال التي تهبها لي هذه الشارات... آه... شارات، شارات؟ نجمات ذات سلطان... نعم! إنني الآن سعيد كل السعادة.

قلت له:

ـ هل ترافقنا في جولة حول الغور؟

ـ أنا؟ لن أظهر للأميرة قبل أن أرتدي بدلتي الجديدة.

ـ هل تكلفني أن أبلِّغها النبأ السعيد؟

ـ كلا، أرجوك، لا تقل لها شيئاً... أريد أن أفاجئها بالأمر مفاجأة...

ـ قل لي على الأقل إلى أين وصلتما؟

ألقاه سؤالي هذا في اضطراب، وأخذ يفكر. كان يود لو يموّه ويتباهى، ولكنه لم يجرؤ. وهو يخجل أن يذكر الحقيقة.

ـ هل تعتقد أنها تحبك؟...

ـ هل أعتقد أنها تحبني؟ أفكارك غريبة يا بتشورين!... وكيف تريد أن تحبني بمثل هذه السرعة؟... وهبها تحبني، أفيمكن لامرأة مهذبة أن تبوح بهذه الأمور...

ـ عظيم!... ولعلك ترى أيضاً أن على الرجل المهذب أن يسكت، هو الآخر، عن هواه؟...

ـ ولكن يا صديقي هنالك السلوك... بعض الأشياء لا تُقال ولكنها تُحزر...

ـ هذا صحيح... ولكن الحب الذي يُقرأ في العينين لا يربط امرأة، في حين أن الكلام... انتبه يا جروشنيتسكي، إنها تهزأ بك...

ـ هي؟

هتف بذلك، وهو يرفع عينيه إلى السماء، ويبتسم ابتسامة تفيض بمعنى الرضى والاكتفاء. وأضاف:

ـ إنني أرثي لك يا بتشورين!...

ثم مضى إلى سبيله.

في المساء اتجه جمع غفير نحو الغور سيراً على الأقدام.

يرى علماء البلد أن هذا الغور ليس إلا فوهة بركان منطفىء. وهو يقع في أحد سفوح جبل ماشوك، على مسافة فرست من المدينة. ويؤدي إلى الغور ممر ضيق يتعرّج بين الأدغال والصخور. وقد قدمت ذراعي للأميرة الشابة حتى تجتاز الجبل، فلم تتركها بعد ذلك خلال النزهة كلها.

دار حديثنا في أول الأمر عن الناس نغتابهم ونتندر عليهم، فاستعرضت من نعرفهم منهم حاضرين وغائبين، وأخذت أتفكه بمضحكاتهم، ثم أخذت أتحدث في عيوبهم ونقائصهم. واندفعت في الحديث. بدأت بمزاح لطيف، ثم انتهيت إلى إقذاع خبيث. وطربت هي لذلك في أول الأمر، ولكنها ما لبثت أن اعتراها خوف. قالت:

ـ أنت رجل خطر. إني لأوثر أن أسقط في غابة تحت سكين قاتل سفاك، على أن يتناولني لسانك السليط... أسألك جادة لا هازلة: إذا بدا لك يوماً أن تقول فيّ قول السوء، فانتض سكيناً واذبحني... وما أظن أن ذلك عليك عسير.

ـ هل هيئتي هيئة قاتل؟

ـ أنت شر من ذلك...

ففكرت لحظة ثم قلت لها وقد بدا على وجهي تأثر عميق:

ـ نعم، ذلك كان حظي منذ نعومة أظفاري! كان جميع الناس يقرأون في وجهي علامات غرائز شريرة أنا منها بريء، وما زالوا يفترضونها فيّ، حتى نبتت وتأصلت. كنت خجولاً، فاتهموني بالمكر، فأصبحت كتوماً. وكنت أحس بالخير والشر إحساساً عميقاً، ولكن أحداً لم يعطف عليّ، بل كانوا جميعاً يؤذونني، فأصبحت حقوداً أحب الانتقام. وكنت حزين النفس، وكان الأطفال الآخرون فرحين هدّارين، وكنت أشعر أنني فوقهم، فقيل لي إنني دونهم، فأصبحت حسوداً؛ وكنت مهيأ لأن أحب جميع الناس، فلم يفهمني أحد، فتعلمت الكره. لم يكن شبابي الخالي من الفرح إلا صراعاً مع الناس ومع نفسي. خوفاً من الهزء، دفنت أنبل عواطفي في أعماق قلبي، فماتت هنالك. وكنت أحب أن أقول الحقيقة، فلم يصدقني أحد، فأخذت أكذب. وقد تعلمت أن أسبر أغوار الناس، وأن أدرك الدوافع التي تحركهم فأصبحت بارعاً في فن الحياة، ولاحظت أن غيري ممن لا يملكون هذا الفن كانوا سعداء، ينعمون، من غير جهد، بهذه الخيرات التي كنت أجهد للحصول عليها بلا كلال؛ فولد اليأس في قلبي، لا ذلك اليأس الذي تذهب به رصاصة من مسدس، بل هذا اليأس البارد، العاجز الذي يختفي وراء سلوك لطيف، وابتسامة طيبة. أصبحت روحي مشلولة. ذهب نصف نفسي: جف، تبخر، مات. قطعته ورميته بعيداً عني. بينما كان النصف الآخر يتحرك ويتمنى أن يخدم جميع الناس. ولكن أحداً لم يلاحظ ذلك، لأن أحداً لم يعرف أن النصف الضائع كان موجوداً. ولكنك أيقظت الآن في نفسي ذكراه.

فقرأت لك ما كتب على قبره. كثير من الناس يرون ما يكتب على القبور مضحكاً، أما أنا فلا، لا سيما حين أفكر فيمن يرقد تحت. على أنني لا أسألك أن تشاركيني الرأي... وإذا رأيت فورتي مضحكة، فاضحكي ما شاء لك الضحك... وثقي أن الضحك لن يجرحني أبداً.

في هذه اللحظة التقيت بعينيها، فإذا بالدموع تترقرق فيهما... كانت ذراعها المستندة إلى ذراعي ترتعش، وكان خداها مضرجين بالحمرة. إنها تشفق عليّ، وترثي لحالي. إن الشفقة، هذه العاطفة التي سرعان ما تستسلم لها المرأة، قد أنشبت أظفارها في أعماق قلبها البريء الذي لا خبرة له. فظلت صامتة طوال النزهة، ولم تعابث أحداً. هذه علامة خطيرة!

وصلنا إلى الغور، وأفلتت كل سيدة ذراع فارسها... ولكنها ظلت ممسكة بذراعي. لم تبهجها فكاهات المتظرفين من أهل المنطقة، ولا أخافها المنحدر الشاهق الذي كانت عليه كما أخاف غيرها من الأوانس اللواتي أخذن يطلقن صرخات صغيرة ويغمضن أعينهن.

وحين عدنا، لم أستأنف حديثنا الحزين الأول؛ ولكنها لم تكن تجيب على أسئلتي المبتذلة وعلى أمازيحي إلا إجابات موجزة، وهي شاردة اللب ذاهلة.

سألتها أخيراً:

ـ هل أحببت؟

فحدقت إليّ، وهزت رأسها بالإنكار، ثم عادت مطرقة تحلم. كان واضحاً أنها تود لو تقول شيئاً، ولكنها لا تعرف من

أين تبدأ. كان صدرها يخفق... ما العمل؟ إن كَمّا من الحرير الشفاف لا يمكن أن يكون حصناً منيعاً: لقد سرت شرارة كهربائية من ذراعي إلى ذراعها. يكاد ينشأ الغرام دائماً هكذا، ومن الخطأ أن نتصور أن النساء يحببننا لصفاتنا الجسمية أو النفسية، فلئن كانت هذه الصفات تهيىء الجو، وتعد قلوبهن لاستقبال النار المقدسة، فإن الملامسة الأولى هي التي تقرر كل شيء.

قالت بعد انتهاء النزهة، وهي تحمل نفسها على الابتسام:

ـ ألم أكن لطيفة جداً في هذا اليوم؟

وافترقنا.

إنها غير راضية عن نفسها... إنها تتهم نفسها بالبرودة... هذا نصر أول، هذا أهم نصر!... ستحاول أن تعوض عليّ في الغد. أعرف ذلك على ظهر القلب، وهذا ما يضجر!

4 حزيران

رأيت اليوم فيرا. صدّعت رأسي. بغيرتها! أظن أن الأميرة اتخذتها نجية، فأفضت إليها بأسرار قلبها. يجب أن أعترف أنها أحسنت الاختيار!

قالت فيرا:

ـ أعرف إلى أين تريد أن تصل. لماذا لا تقول إنك تحبها؟

ـ ولكنني لا أحبها!

ـ فلماذا إذن تحاصرها، وتشوِّشها، وتقلق خيالها؟ إنني لأعرفك. اسمع، إذا كنت تريد أن أطمئن إلى ما تقول، فتعال بعد أسبوع إلى كيسلوفودسك. سنذهب أنا وزوجي إلى هناك بعد غد،

وسنستقر هناك. أما الأميرة فستبقى بعض الوقت أيضاً. استأجر بيتاً قريباً من بيتنا. سنسكن نحن في البيت الكبير الذي يقع على مقربة من النبع. سنحتل نحن الطابق العلوي، ولقد استأجرت الأميرة ليجوفسكايا الطابق الأرضي، غير أن البيت الذي يقع إلى جانب هذا البيت، ويملكه صاحب هذا البيت نفسه، لا يزال خالياً... هل تأتي؟

فوعدتها بالمجيء، حتى لقد أرسلت وصيفي لاستئجار ذلك المنزل.

أتاني جروشنيتسكي في الساعة السادسة، وأنبأني بأن بدلته ستكون جاهزة في الغد، موعد الحفلة الراقصة، وأضاف يقول:

ـ سأستطيع أخيراً أن أراقصها طوال السهرة... وسأفضي لها بكل ما في صدري.

ـ متى الحفلة الراقصة؟

ـ غداً! ألم يبلغك نبأها؟ هي حفلة كبيرة تقيمها السلطات المحلية...

ـ تعال نتجول قليلاً في الشارع.

ـ يستحيل أن أخرج بهذا المعطف الحقير.

ـ كيف؟ أصبحت لا تحبه؟...

وخرجت وحدي، ولقيت الأميرة ماري، ودعوتها إلى رقصة المازوركا، فبدا أن ذلك أدهشها وسرّها. قالت وهي تبتسم ابتسامة فاتنة:

ـ كنت أحسب أنك لا ترقص إلا لضرورة، كالمرة الماضية.

كان يبدو عليها أنها لا تنتبه إلى غيبة جروشنيتسكي. قلت لها: تنتظرك غداً مفاجأة سارة.

ـ ما هي؟

ـ هذا سر. . . ستكتشفينه في الحفلة.

قضيت باقي اليوم في بيت الأميرتين، ولم أجد هناك إلا فيرا، وعجوزاً ظريفاً جداً. كنت مشرق المزاج، وارتجلت عدداً من الأقاصيص العجيبة. كانت الأميرة الصغيرة جالسة أمامي، فكانت تصغي إلى استطراداتي بانتباه بلغ من العمق، والتركيز، بل ومن الرقة، أنني ارتبكت. أين حيويتها، وغنجها، ونزواتها، وكبرياؤها، وبسمتها الساخرة، ونظرتها الغائبة؟

ولاحظت فيرا كل شيء، فإذا وجهها الذي غيَّره المرض يلم به حزن عميق. كانت جالسة في الظلام، في قاع مقعد كبير، بالقرب من النافذة. . . لقد أشفقت عليها ورثيت لها. . .

فأخذت عندئذ أقص تلك الحكاية الدرامية، حكاية لقائنا الأول، وحبنا، مع تغيير جميع الأسماء.

فبلغت من جمال تصوير عاطفتي وقلقي واندفاعي، ومن حُسن الثناء على أفعالها وطباعها، أنها اضطرت إلى أن تغفر لي معابثتي للأميرة.

فتركت مقعدها، وانتعشت فجأة، وجاءت تجلس إلى جانبنا. . . ودقت الساعة الثانية من الليل، حين تذكرنا أن الأطباء هنا ينصحون بالنوم في الحادية عشرة.

5 حزيران

دخل عليّ جروشنيتسكي قبل حفلة الرقص بنصف ساعة، مشرق الوجه، مرتدياً بدلته الجديدة، بدلة ضابط من ضباط المشاة؛

وقد ربط بالزر الثالث من قميصه سلسلة من البرونز علق بها نظارة. كانت شارتا الكتفين مرتفعتين كجناحي إله حب صغيرين. وكان حذاؤه يزقزق. وكان يمسك بيده اليسرى قفازاً بنياً وقبعة. وكان يمر بيده اليمنى، في كل لحظة، على الغدائر الصغيرة من ذؤابته المجعدة. كان وجهه يعبِّر عن الرضى والتوجس في آن واحد. إن منظره المحتفل، وسيره المتغطرس، خليقان بأن يحملاني على ضحك شديد، لولا أن ذلك يتعارض مع ما بيّت من خطط.

ورمى قفازه وقبعته على المنضدة، وأخذ يشد ذيل بدلته، ويصلح من زينته أمام المرآة. لقد عقد ربطة سوداء على ياقته العالية التي تستند إليها ذقنه، وكانت الربطة ترتفع عن زيق القميص مسافة أصبعين، ولكن يظهر أن هذا بدا له غير كاف، فرفعها حتى صارت عند أذنيه. وأنفق في ذلك جهداً كبيراً، ذلك أن زيق البدلة كان ضيقاً جداً، وكان يزعجه كثيراً، فاحمر من ذلك وجهه.

قال لي في شيء من عدم المبالاة، ودون أن ينظر إليّ:

ـ يظهر أنك كنت خلال جميع هذه الأيام تغازل أميرتي بلا انقطاع!

فقلت أستعير ذلك التعبير الذي كان يؤثره ماكر من ألطف الماكرين في عصر آخر أشاد به بوشكين:

ـ هذا الشاي لم يُخلق لفمي الرديء.

ـ قل لي، بدلتي هذه، هل هي جميلة عليّ؟ آه من ذلك اليهودي اللعين!... إنها لتزعجني تحت الذراعين... هل عندك عطر؟

ـ أيضاً؟... لقد شممتُ رائحة عطر الورد الذي تطيبت به، من مسافة فرست كامل.

- لا بأس، هات أيضاً...

وصبّ نصف زجاجة العطر على ربطته، ومنديله، وأكمامه.

سألني:

- هل ترقص الليلة؟

- لا أظن.

- أخاف أن أبدأ المازوركا مع الأميرة، وأنا لا أكاد أعرف أي خطوة من خطواتها...

- ولكن هل دعوتها لرقصة المازوركا؟

- لم أدعُها بعد...

- انتبه! من الممكن أن تسبق إلى ذلك... فضرب جبينه قائلاً:

- هل تعتقد؟ إذن إلى اللقاء! سأنتظرها عند المدخل.

وهنا أخذ قبعته وذهب بخطى واسعة.

وبعد نصف الساعة، خرجت أنا أيضاً. إن الشوارع مظلمة مقفرة. والناس يُهرعون حول المجتمع الراقي، أو حول المطعم، سمّه ما شئت. كانت النوافذ مضيئة، وحمل إليّ نسيم المساء أصوات موسيقى عسكرية. كنت أسير على مهل، لا أسرع. وكنت حزين النفس. تساءلت: تُرى هل يمكن أن تكون رسالتي كلها في هذه الحياة الدنيا هي أن أحطم آمال البشر؟ إنني منذ عشت وفعلت، يستخدمني القدر دائماً لحل درامات الناس، كأن أحداً لا يستطيع بدوني أن يموت أو أن ييأس! كنت الشخصية التي لا بد منها في الفصل الخامس. وقد مثلت، رغم أنفي، ذلك الدور المؤلم، دور جلاد أو خائن. ماذا كانت غاية القدر؟ أتراه أراد أن

يجعل مني مؤلف تراجيديات برجوازية، وروايات عائلية، أو كاتب أقاصيص لمجلة «مكتبة للقراءة» مثلاً؟... أين لي أن أعرف ذلك؟... ما أكثر أولئك الذين يحسبون، حين يبدأون حياتهم، أنهم سيختمونها كالإسكندر الكبير أو كاللورد بايرون، ثم يظلون حياتهم كلها مستشاري شرف؟

حين دخلت إلى القاعة، اختفيت بين جمهور الرجال، وأخذت أراقب. كان جروشنيتسكي واقفاً إلى جانب الأميرة الشابة يحدثها بحرارة، وكانت تصغي إليه ذاهلة، وهي تنظر من حولها، عاضة على مروحتها بشفتيها. إن وجهها يعبِّر عن البرم ونفاد الصبر. إن عينيها تبحثان عن أحد. فاقتربت على هون من وراء، لأستمع إلى حديثهما، قال جروشنيتسكي:

ـ إنك تعذبينني أيتها الأميرة، لقد تغيرت كثيراً أثناء غيابي.

فقالت له الأميرة وهي تلفُّه بنظرة سريعة لم يدرك ما فيها من سخر خفي:

ـ وأنت أيضاً تغيرت.

ـ أنا، تغيرت؟... لن أتغير في حياتي كلها! أنت تعرفين أن هذا مستحيل! من يراك مرة واحدة يحتفظ خياله بصورتك الإلهية مدى الحياة...

ـ كفى...

ـ لماذا أصبحت لا تريدين أن تسمعي ما كنت تصغين إليه بالأمس راضية؟...

ـ لأنني لا أحب التكرار.

ـ قالت ذلك وهي تضحك...

ـ آه. . . لقد أخطأت الظن خطأ مؤلماً مُرّاً!. . . كنت مجنوناً إذ ظننت أن هذه الشارات ستهب لي حق الأمل على الأقل. . . لا، لا، كان ينبغي أن أرتدي إلى الأبد معطفي الحقير الذي لعل الفضل يرجع إليه فيما أظهرت من اهتمام بي. . .

ـ حقاً كان معطفك أنسب لك. . .

في هذه اللحظة تقدمتُ منها وحييتها، فاحمر وجهها قليلاً، وقالت:

ـ أليس صحيحاً يا سيد بتشورين أن معطفه الرمادي كان أجمل؟

ـ لست من هذا الرأي، إن بدلته تظهره أفتى مما كان يبدو.

لم يستطع جروشنيتسكي أن يتحمل الضربة، فهو يطمع كسائر الشباب أن يكون طاعناً في السن منذ الآن. إنه يتخيل أن الهوى قد خلَّف في وجهه آثاراً عميقة تغني عن الآثار التي يخلفها تعاقب السنين. فنظر إليّ نظرة حانقة، وضرب الأرض بقدمه، وابتعد عنا.

قلت للأميرة:

ـ أما كنت منذ مدة قريبة، على رغم أنه كان مضحكاً دائماً، تجدينه طريفاً شائقاً. . . بمعطفه الرمادي؟. . .

فغضَّت طرفها، ولم تجب بشيء.

ظل جروشنيتسكي طوال السهرة يلاحقها ويلازمها، ويرقص معها أو يرقص أمامها. وكان يلتهمها بعينيه التهاماً، ويتنهد، ويزعجها بتوسله وعتابه. فلما انتهت رقصة الكادريل الثالثة، كانت ماري قد اشمأزت منه.

قال لي وهو يقترب مني، ويمسك بذراعي:

ـ ما كنت أصدِّق أن تفعل ذلك!

ـ ماذا؟

فأجاب بصوت فخم:

ـ سترقص المازوركا مع ماري؟ لقد اعترفت لي...

ـ طبعاً! وهل يجب أن تجعل من الأمر سراً؟

ـ كان ينبغي أن أتوقع ذلك من هذه البنت الصغيرة... من هذه العابثة... ولكنني سأنتقم!

ـ يجب أن تحقد على معطفك أو على شاراتك، ولا عليها هي! هل يكون الذنب ذنبها إذا أنت لا تعجبها الآن؟...

ـ لماذا أمَّلتني إذن؟

ـ ولماذا أملت أنت؟ أنا أفهم أن يرغب الإنسان في شيء، وأن يسعى إلى الحصول عليه، إما أن يأمل؟

فقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ لقد ربحت الرهان، ولكنك لم تربحه تماماً.

وبدأت المازوركا. فلم يختر جروشنيتسكي، طوال الوقت، إلا الأميرة، وكان يجيء إليها فرسان آخرون يدعونها كل لحظة... واضح أن كل هذا تآمر عليّ. لا بأس. إنها تريد أن تتحدث معي، فحالوا بينها وبيني، وستزداد من ذلك رغبتها في التحدث إليّ.

شددت على يدها مرتين، وفي المرة الثانية سلّت يدها دون أن تنبس بكلمة. قالت بعد انتهاء المازوركا:

ـ لن أنام اليوم نوماً هادئاً!

ـ هل هذا بسبب جروشنيتسكي؟

ـ لا، لا!

كان في وجهها من علائم الحزن والكآبة ما جعلني أقطع على نفسي عهداً أن أقبّل يدها في ذلك المساء نفسه.

وانفضَّ الجمع، فلما ساعدتها على الصعود إلى عربتها، أسرعت فحملت يدها الصغيرة إلى شفتي. وكان الظلام مخيماً، فلم ير أحد شيئاً.

عدت إلى القاعة راضياً عن نفسي كل الرضى.

كان هناك عدد من الشباب يتعشون حول مائدة كبيرة. وكان جروشنيتسكي بينهم. فلما دخلت سكتوا جميعاً عن الكلام: كان واضحاً أنهم يتحدثون عني. إن كثيراً من الناس يحنقون عليّ، منذ حفلة الرقص الأولى، ولا سيما الرئيس الخيَّال. لا شك أن عصابة تتألف ضدي، ولا شك أن جروشنيتسكي هو رأسها. ها هو ذا يرفع عقيرته، ببسالة وغطرسة...

حسن. إنني أحب أعدائي، لا حباً مسيحياً طبعاً... إنهم يسلّونني، وينشطون دمي... أن أظل دائماً على يقظة، أن أفاجىء كل نظرة من نظراتهم، أن أحزر كل كلمة من كلماتهم، أن أنفذ إلى صميم نواياهم، أن أحبط مشاريعهم، أن أتظاهر بأنني غرّ مخدوع، ثم أهدم بضربة واحدة كل ما بنوا بالجهد الطويل الشاق والمكر والحيلة: تلكم هي عندي الحياة.

لم ينقطع جروشنيتسكي والرئيس الخيال، طوال السهرة، عن التهامس وتبادل نظرات المكر.

6 حزيران

سافرت فيرا هذا الصباح إلى كيسلوفودسك مع زوجها. لقد

التقيت بعربتها في طريقي إلى بيت الأميرة ليجوفسكايا، فهزت لي رأسها، وكان في نظرتها شيء من العتاب.

ولكن ما ذنبي؟ لماذا لا تريد أن تتيح لي خلوة؟ الحب كالنار، ينطفىء إذا لم نغذه بالوقود. لعل الغيرة أن تنجح، حيث أخفقت توسلاتي.

بقيت مع الأميرة الأم ساعة كاملة، ولم أر ماري: إنها مريضة. لم تخرج هذا المساء إلى الشارع الكبير. إن العصابة التي تألفت قد تسلحت بنظارات، واصطنعت هيئة التهديد. سرني أن الأميرة مريضة. كان يمكن أن يزعجوها... رأيت جروشنيتسكي أشعث الشعر، وقد لاحت على وجهه علائم اليأس. وأعتقد أنه متألم، ولا سيما من ناحية عزته الجريحة. ولكنه من أولئك الناس الذين يضحك المرء حتى من يأسهم.

حين عدت إلى بيتي، شعرت أن شيئاً ينقصني... **إنني لم أرها! إنها مريضة!** أتراني أحبها؟... دع عنك هذا الهراء!

7 حزيران

في الساعة الحادية عشرة من الصباح، وهي الساعة التي اعتادت السيدة ليجوفسكايا أن تذهب فيها إلى حمامات يرمولوف للتعرق، مررت أمام بيتها، فرأيت الأميرة ماري جالسة إلى النافذة. تحلم، فلما رأتني أسرعت تنهض.

ودخلت، ولم يكن في حجرة المدخل أحد، فاستعملت الحرية التي تبيحها العادات هنا، فنفذت إلى الصالون دون استئذان...

كان وجه الأميرة الجميل شاحباً كابياً. وكانت واقفة بالقرب من البيانو، قد وضعت يدها على مسند مقعدها... كانت يدها ترتعش قليلاً. فاقتربت منها بهدوء، وقلت لها:

ـ أأنت حانقة عليّ؟

فرفعت إليّ نظرة ذابلة عميقة، وهزت رأسها... كانت شفتاها تريدان أن تقولا شيئاً، ولكنهما لا تستطيعان. وامتلأت عيناها بالدموع، وتهاوت على مقعدها وهي تخفي وجهها بيديها.

قلت لها وأنا أتناول يدها:

ـ ما بك؟

فقالت:

ـ لا شك أنك تحتقرني!... دعني، دعني!...

فلما ابتعدت بضع خطوات... استوت على مقعدها، ورأيت الشرر يتطاير من عينيها...

وقفت، وأنا أضع يدي على قبضة الباب، وقلت لها:

ـ سامحيني أيتها الأميرة!... لقد تصرفت تصرف مجنون... ولن يقع هذا بعد الآن أبداً... سأحترس... فيم أطلعك على ما قام في نفسي حتى الآن؟ إنك لن تعرفيه، ومن الخير لك أن لا تعرفيه. وداعاً!

وحين خرجت، خُيِّل إليّ أنني سمعتها تبكي.

ظللت حتى المساء هائماً على وجهي في جوار ماشوك؛ حتى إذا عدت إلى البيت ارتميت على سريري وقد أخذ مني الإعياء كل مأخذ.

وجاءني فرنر يسألني:

ـ هل صحيح أنك ستتزوج الأميرة ليجوفسكايا؟

ـ نعم؟

ـ المدينة كلها تلغط في الأمر. ومرضاي جميعاً يتحدثون في الخبر الهام، والمرضى أناس يعرفون دائماً كل شيء!

قلت في نفسي: «لا شك أن جروشنيتسكي هو الذي دبر هذه المكيدة». قلت للدكتور:

ـ كي أبرهن لك، يا دكتور، على كذب هذه الشائعات، أفضي إليك بهذا السر المكتوم، وهو أنني مسافر غداً إلى كيسلوفودسك.

ـ والأميرة؟

ـ ستبقى هنا أسبوعاً آخر أيضاً.

ـ إذن لن تتزوجها؟

ـ يا دكتور، يا عزيزي الدكتور، انظر إليّ، هل ترى فيّ أي شيء مما يُرى في خطيب؟

فأجاب:

ـ لا أقول هذا...

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ ولكنك تعلم أن هناك حالات يضطر فيها رجل شريف إلى الزواج، وهناك أمهات لا تفعل شيئاً من أجل تحاشي هذه الحالات... إليك نصيحة صديق: كن على حذر من الأمر!... إن الهواء، هنا، في المياه، خطر جداً... كم من شباب ممتازين مضوا من هنا رأساً إلى الكنيسة، مع أنهم كانوا يستحقون حظاً أجمل!... وأنا نفسي أرادوا أن يُزوِّجوني، هل تصدق؟ هي أم من

القضاء، بنتها مصابة باليرقان. لسوء حظي قلت لها إن ألوان ابنتها تعود إليها بعد الزواج، فإذا هي تعرض عليّ، ودموع الشكر تفيض من عينيها، أن أتزوج ابنتها وأن أحظى بثروتها... كانت ثروتها خمسين نفساً فيما أظن. ولكنني أجبتها بأنني عاجز عن أن أكون زوجاً.

وتركني فرنر، مقتنعاً كل الاقتناع بأنه نبهني وجعلني على حذر من أمري.

لقد حفظت من كلامه كله ما يلي: إن إشاعات خبيثة عني وعن الأميرة، تدور في المدينة. سيدفع جروشنيتسكي ثمن ذلك!

10 حزيران

أنا في كيسلوفودسك منذ ثلاثة أيام. إنني أرى فيرا على البئر، وفي النزهة، كل يوم. متى استيقظت في الصباح أذهب إلى النافذة، وأسدد نظارتي إلى شرفتها، وتكون هي مرتدية ثيابها منذ مدة طويلة تنتظر الإشارة المُتَّفَق عليها، فنلتقي في الحديقة التي تهبط من بيتينا إلى البئر، كأنما مصادفة على غير ميعاد. إن هواء الجبل المنعش قد أعاد إلى لونها نضارته، وردَّ إليها شيئاً من القوة. صدق من قال إن نارزان تصنع هراقلة. إن سكان المنطقة يؤكدون أن هواء كيسلوفودسك يفتح القلوب للحب، وإن الروايات التي تبدأ على سفح ماشوك تنحلّ عُقَدها هنا. إن جو العزلة يفوح من كل شيء في هذا المكان، كل شيء هنا سرّ: الظلال الكثيفة في دروب أشجار الزيزفون المنحنية على السيل الذي يرغي ويزبد واثباً من صخرة إلى صخرة، ويشق طريقه بين الجبال المخضوضرة؛ الفجاج

المليئة بالضباب والصمت، تتشعب في كل اتجاه؛ طراوة الهواء العبق، المُحَّمل بروائح الأعشاب العالية الجنوبية، وعبير أشجار الأكاسيا البيضاء؛ خرير المياه يهدهد الآذان بغير انقطاع... خرير السواقي الباردة التي تتلاقى على طرف الوادي لتجري معاً إلى مصبها في نهر بودكوموك... إن الثغرة تتسع من هذه الجهة، وتستحيل إلى واد تملؤه الخضرة ويتلوى فيه طريق أغبر. كلما نظرت إلى هذا الطريق تراءى لي أن عربة تصل، يطل من نافذتها وجه جميل فاتن. لقد مرت عربات كثيرة. ولكن العربة التي أنتظرها لم تصل... إن الضيعة التي وراء القلعة، تعج بالناس. ومن خلال صَفَّيْن من أشجار الحور أرى عند المساء أنوار المطعم الذي بُنِيَ على الهضبة الواقعة على بعد بضع خطوات من منزلي. وأظل أسمع حتى ساعة متأخرة من الليل جلبة الأصوات، ورنين الكؤوس.

ما من مكان يشرب فيه الناس من خمر كاخيتيا ومن الماء المعدني مثلما يشربون في هذا المكان:

فبعض الناس يخلطون هذين العملين

ولست أنا من عداد هؤلاء.

إن جروشنيتسكي وعصابته يُحدِثون كثيراً من الصخب في المطعم. ولا يكاد يلقي عليّ التحية.

لقد وصل أمس، وتشاجر حتى الآن مع ثلاثة شيوخ أرادوا أن يدخلوا الحمام قبله: لا شك أن تعاسته قد أحالته أمرىء يحب القتال!

11 حزيران

أخيراً وصلنا. كنت جالساً إلى النافذة حين سمعت صوت عربتهما. لقد ارتعش عندئذ قلبي... ما معنى هذا؟ أأكون عاشقاً؟... ليس هذا بمستبعد على طبعي العجيب.

تغديت في منزلهما. وقد نظرت إليّ الأم نظرة رقيقة، ولكنها لا تترك ابنتها... الحال سيئة! غير أن فيرا، في مقابل ذلك، تغار من الأميرة: جاءت إذن السعادة التي طالما بحثت عنها! أي شيء تمتنع المرأة عن فعله من أجل أن تغيظ غريمتها؟ أذكر أن امرأة قد أحبتني يوماً لأنني كنت أحب غيرها. لا شيء أعجب من منطقهن: يستحيل أن تقنعهن بأي شيء، يجب أن تتأدى بهن إلى أن يقنعن أنفسهن بأنفسهن. إن فرع الحجج الذي يمكن أن يهدم ما استقر في أذهانهن فريد في نوعه. يجب عليك إذا أردت السيطرة على منطقهن أن تتخلى عن أبسط قواعد المنطق. مثال: هذا استدلال طبيعي:

هذا الرجل يحبني، ولكنني متزوجة، إذن يجب أن لا أحبه.

وهذا استدلال امرأة:

يجب أن لا أحبه، لأنني متزوجة، ولكنه يحبني، إذن...

وهنا نصمت... لأن العقل ليس هو الذي يتكلم، بل اللسان، والعينان، ثم القلب، إذا كان لهن قلب.

لو وقعت هذه الكلمات تحت عيني امرأة، لاستاءت من ذلك أشد الاستياء، وقالت ـ هذا افتراء!...

منذ نَظَم الشعراء شعراً، ومنذ قرأ النساء هذا الشعر (ويجب أن نشكر لهن ذلك أعمق الشكر) سُميت النساء ملائكة، وبلغت هذه

التسمية من التكرار أنهن من بساطة قلوبهن صدَّقْنَها، ناسيات أن هؤلاء الشعراء أنفسهم يمكن أن يضعوا نيرون في مصاف إنصاف الآلهة، في سبيل مال يحصلون عليه...

لماذا أقول في النساء هذا الكلام الهاجر، أنا الذي لا أحب في الدنيا غيرهن، أنا الذي أستطيع دائماً أن أضحّي من أجلهن براحتي، بطموحي، بحياتي؟ ولكنني إذا انتزعت عن وجوه النساء هذا الحجاب السحري الذي لا تستطيع أن تنظر إلى ما وراءه إلا عين متمرسة، فإنني لا أفعل ذلك مدفوعاً بحنق شديد وكبرياء جريحة. كل ما أقوله عنهن ليس إلا نتائج.

ملاحظات العقل البارد

والقلب تملؤه المرارة[31].

ينبغي للنساء أن يتمنين أن يعرفهن جميع الرجال كما أعرفهن أنا، لأنني منذ أصبحت لا أخافهن ومنذ فضحت نواحي الضعف الصغيرة فيهن، ازداد حبي لهن مائة مرة.

لقد شبَّه فرنر النساء، ذات مرة، بالغابة المسحورة التي يتحدث عنها تاسو في «تحرير القدس»، فيقول: «متى اقتربت انتابتك ألوان الذعر كلها: الواجب، الغرور، الأدب، رأي الناس، سخرهم، احتقارهم... ولكن يجب عليك أن تتقدم دون أن تنظر... فإذا بهذه الأشباح تختفي شيئاً بعد شيء، ثم إذا أنت أمام فسحة هادئة مضيئة يزهر فيها الآس المخضوضر. ولكن ويل لك إذا خفق قلبك منذ الخطوات الأولى، ونظرت إلى الوراء!».

12 حزيران

كانت سهرة اليوم حافلة بالأحداث. على مسافة ثلاث فرستات من كيسلوفودسك، في الفج الذي يجري فيه بودكوموك، هناك صخرة تسمى **الحلقة**، هي أشبه بباب صنعته يد الطبيعة. إنها تنتصب قائمة على هضبة عالية، وإليها ترسل الشمس عند المغيب نظرتها الملتهبة الأخيرة. ذهبنا إلى هناك رهطاً من الفرسان نريد أن نتأمل غياب الشمس من هذه الكوة الصخرية... الحقيقة أن أحداً لم تخطر له الشمس ببال... كنت أرافق الأميرة الصغيرة على حصاني. وعند العودة كان يجب علينا أن نقطع بودكوموك مخاضاً. إن أنهار الجبال خطرة، مهما تكن صغيرة، لا سيما وأن قاعها منظار سحري حقيقي، يتغير بضغط المياه كل يوم، فإذا المكان الذي كانت فيه بالأمس صخرة أصبح اليوم ثغرة. أمسكت بأَعِنَّة حصان الأميرة، وأدخلته في الماء الذي لم يصل إلى أعلى ركبته، وأخذنا نقطع النهر على مهل، في عكس اتجاه التيار، مواربة. وأنتم تعلمون أن المرء حين يقطع نهراً سريعاً يجب أن لا ينظر في الماء، وإلا أصيب بدوار. وقد نسيت أن أنبه الأميرة ماري إلى ذلك.

فما أن وصلنا إلى منتصف النهر، حيث يتدفق الماء أسرع ما يكون، حتى رأيت الأميرة تترنح على سرجها، وتقول بصوت ضعيف: «أشعر أنني في حالة سيئة!» فانحنيت عليها بسرعة، وطوقت جسمها اللدن بذراعي، وتمتمت أقول لها:

ـ أنظري إلى فوق... الأمر بسيط! ولا تخافي، فإنني معك.

وشعرت بتحسن، فأرادت أن تنسل من بين ذراعي، ولكنني

شددت قدها الرشيق اللدن شداً أقوى، حتى كان يلامس خدي خدها... وكان خدها يتوقد كأنه اللهب.

ـ ماذا تعمل؟... يا إلهي!...

ولكنني لم ألق بالاً إلى قلقها واضطرابها... ولامست شفتاي وجنتها الناعمة. فارتعشت ولكنها لم تقل شيئاً. كنا وراء الجميع، فلم يرنا أحد. فلما وصلنا إلى الضفة الثانية من النهر، كانوا جميعاً يخبون. وحبست الأميرة حصانها عن العدو، وضللت أنا إلى جانبها. كان واضحاً أن صمتي يقلقها، ولكنني كنت قد حلفت ألا أنبس بكلمة، من قبيل حب الاطلاع. كنت أريد أن أعرف كيف تخرج من هذا المأزق. فقالت لي أخيراً بصوت تمازجه الدموع:

ـ إما أنك تحتقرني، وإما أنك تحبني كثيراً! لعلك لا تريد إلا أن تعبث بي وتسخر مني، تدخل القلق والاضطراب إلى نفسي، ثم تدعني وشأني... سيكون هذا من الحقارة والخسة والجبن بحيث أن تصوره وحده... لا، لا، أليس كذلك؟ (استدركت هذا الاستدراك بلهجة عذبة من الثقة)، إذ ليس فيّ شيء يمكن أن يحرمني من الاحترام الذي أستحقه؟ أما جرأتك، فيجب عليّ، نعم يجب عليّ، أن أغفرها لك، لأنني سمحت بها... ولكن أجبني، تكلم، أريد أن أسمع صوتك...

كان في كلماتها الأخيرة هذه فراغ الصبر الأنثوي، ولم أملك إلا أن أبتسم له بالرغم مني. ومن حسن الحظ أن الظلام كان قد بدأ يخيم... ولم أجب بشيء.

فأردفت تقول:

ـ ما تزال صامتاً؟ لعلك تريد أن أكون أنا البادئة بالاعتراف بأنني أحبك؟...

فظللت ملتزماً الصمت...

فاستأنفت تقول وهي تلتفت إليّ فجأة:

ـ قل، أهذا ما تريد؟

وكان في قوة نظرتها وصوتها شيء يخيف. فأجبت وأنا أهز كتفي:

ـ لا داعي إلى ذلك!

فضربت حصانها بالسوط ضربة قوية، واندفعت في الطريق الضيق الخطر لا تبالي. وبلغ عَدْوها من السرعة أنني لم أستطع أن ألحق بها إلا في كثير من العناء، وحين وصلت إليها كانت قد أدركت الركب. وظلت، حتى وصلنا إلى البيت، لا تزيد على أن تضحك وتتكلم. كان في حركاتها شيء من الحمى. ولم تلتفت إليّ بنظرة واحدة. لاحظ الجميع هذا المرح غير المألوف. وسرّت الأميرة الأم بذلك بينها وبين نفسها. ولكن ابنتها كانت تعاني نوبة عصبية، لا أكثر ولا أقل. قلت في نفسي لن تنام هذه الليلة، وستبكي كثيراً. وأحدثت هذه الفكرة في نفسي لذة عظيمة. ثمة لحظات أفهم ذلك الشبح الذي يخرج من القبر يمتص دماء الأحياء... ومع ذلك فأنا أبدو فتى طيباً شجاعاً، وأفعل كل شيء من أجل ذلك.

ونزلت السيدات عن خيولهن، ودخلن إلى بيت الأميرة. كنت في قلق واضطراب، فمضيت أعدو على حصاني في الجبل، تبديداً لهذه الأفكار التي تتلاحق سريعة في رأسي. وجاء المساء رطباً

بليلاً بالندى ينشر طراوة مسكرة. وطلع القمر وراء الذرى المظلمة. كانت كل خطوة من خطوات حصاني تدوي في الفجاج الصامتة دوياً أصم. وأوردت دابتي شلالاً من الماء. وما زلت أعب الهواء النقي من هذه الليلة الجنوبية، حتى قفلت راجعاً أعود إلى بيتي. كنت أجتاز القرية. إن الأنوار أخذت تنطفىء في النوافذ. وخفراء سور القلعة يتخاطبون مع العسس من جنود القوزاق بصوت بطيء...

ولاحظت ضوءاً غير مألوف في بيت بني على ضفة واد من الوديان. وسمعت أصواتاً مبهمة وصرخات. لا شك أنهم عسكريون يقصفون، فوثبت عن حصاني، واندسست تحت النافذة، وكان أحد مصراعيها لم يحكم إغلاقه، فاستطعت أن أرى وأن أسمع. كانوا يتحدثون عني.

كان الرئيس الخيال، وقد استخفته الخمرة وثارت حماسته، يضرب المنضدة بيده، يطلب الصمت والإصغاء، ثم يقول:

ـ أيها السادة، هذا أمر لا يمكن قبوله. إن بتشورين يستحق أن نلقِّنه درساً. إن هؤلاء الأغرار الذين يأتون من بطرسبرغ يظلون شامخين إلى أن يتلقوا ضربة على الأنف. يظن أنه وحده عاش في المجتمع الراقي، لأنه يلبس دائماً قفازين نظيفين، وينتعل حذاءين لامعين.

ـ وانظروا إلى هذه الابتسامة المتكبرة!... إلا أنني على يقين من أنه جبان، نعم، نعم، جبان...

قال جروشنيتسكي:

ـ أعتقد بذلك أيضاً. لقد تعود أن يتخلص من المآزق

بالمزاح. في ذات يوم، بلغت من القسوة عليه في الكلام أن أحداً غيره لو كان في مكانه لقتلني حتماً. ولكنه استقبل كلامي بضحك! طبعاً، لم أطلبه للمبارزة... تركته وشأنه... ثم إنني لم أشأ أن أبدأ...

وهنا ارتفع صوت يقول:

ـ جروشنيتسكي حانق عليه لأنه خطف منه الأميرة.

ـ هذا كلام سخيف! صحيح أنني توددت إلى الأميرة قليلاً، ولكنني سرعان ما كففت، لأنني لم أكن أنوي أن أتزوجها، وليس من مبادئي أن أغرر بفتاة.

قال الرئيس الخيال:

ـ أؤكد لكم أنه أجبن إنسان على وجه الأرض... أقصد بتشورين لا جروشنيتسكي... جروشنيتسكي رجل شهم شجاع. ثم إنه صديقي... أيها السادة، هل يحب أحد منكم أن يدافع عن بتشورين؟ لا أحد؟ هذا حسن. هل تريدون أن تمتحنوا شجاعته؟ سيسليكم ذلك...

ـ نعم؛ ولكن كيف؟

ـ اسمعوا. إن جروشنيتسكي هو الحاقد عليه بوجه خاص، فعليه إذن يقع تمثيل الدور الأول! يماحكه ويناقره عند أول مناسبة تافهة، ويطلبه للمبارزة... انتظروا، يطلبه للمبارزة، نعم! ويتم كل شيء، التحدي، التهيئة، الشروط، على أحسن ما يرام... بصورة فخمة، بصورة مؤثرة. سيكون هذا من شأني أنا. وأكون أنا مرافقك، يا صديقي! نعم! كل شيء إلى هنا حسن. وإليكم الآن المضحك في الأمر. لن نضع في المسدسين رصاصاً. وأنا كفيل

لكم بأن بتشورين سيتراجع! أضع كلاً منهما على بعد ست خطوات من الآخر... ما قولكم أيها السادة؟

فهتفوا من كل صوب يقولون:

ـ عظيم! فكرة عظيمة!

ـ وأنت يا جروشنيتسكي، ما رأيك؟

انتظرت جواب جروشنيتسكي وأنا أرتعد. إن غضباً بارداً قد استولى عليّ، وأنا أتصور أنني، لولا هذه المصادفة العابرة، لاتخذني جميع هؤلاء الحمقى أضحوكة. ولو أن جروشنيتسكي رفض، لوثبت أعانقه. ولكنه بعد بضع لحظات من الصمت، نهض واقفاً، ومد يده إلى الرئيس يقول «اتفقنا».

يصعب وصف الحماسة التي ظهرت عندئذ على وجوه جميع هؤلاء الناس.

وعدت إلى بيتي فريسة شعورَيْن متعارضَيْن. أما الأول فهو شعور الحزن. «لماذا يكرهني هؤلاء الناس جميعاً؟ هل أسأت إلى أحد منهم؟ لا... هل يمكن أن يكون منظري وحده يوحي بالكره والعداوة؟» وأما الشعور الثاني فهو وحشية شريرة تجتاح نفسي شيئاً فشيئاً. قلت وأنا أذهب وأجيء في الغرفة: «حذار يا سيد جروشنيتسكي!... لا مزاح من هذا النوع معي... ستدفع غالياً ثمن مجاملتك لرفاقك هؤلاء الأغبياء... لن أسمح بأن أكون ألعوبتكم!...».

ولم أستطع أن أغمض جفني الليل كله. حتى إذا نهضت من فراشي في الصباح كان وجهي أصفر كليمونة.

ولقيت الأميرة عند البئر في الضحى.

قالت وهي تحدق إليّ:

ـ أأنت مريض؟

ـ لم أنم طوال الليل.

ـ ولا أنا نمت. كنت أتهمك... ربما ظلماً؟ ولكن أشرح... إنني أستطيع أن أغفر لك كل شيء...

ـ كل شيء، حقاً؟

ـ نعم، على شرط أن تقول الحقيقة... أسرع... لقد فكرت طويلاً. وحاولت أن أعلل سلوكك، وأن أبرره... لعلك تخشى بعض العوائق من جهة أهلي؟ ولكن ليس هذا شيئاً... (وهنا اضطرب صوتها) سأتوسل إليهم... لعل هذا هو وضعك... ولكن ثق أنني أستطيع أن أضحِّي بكل شيء في سبيل من أحب... أوه! أجبني بسرعة، ارحمني... ألا تحتقرني؟ قل!

وكانت قد أمسكت بيدي.

كانت أمها سائرة أمامنا مع زوج فيرا، فلم تر شيئاً. ولكن المرضى الذين يتنزهون كان يمكنهم أن يرونا... وهم أطول الناس لساناً في النميمة، فسرعان ما سللت يدي من وثاقها العنيف الجامح. وقلت لها:

ـ سأقول لك الحقيقة كلها، لا أحاول أن أبرر نفسي، ولا أن أعلل سلوكي. أنا لا أحبك.

فاصفرت شفتاها قليلاً، وقالت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ دعني.

فهززت كتفيّ، ثم أدرت لها ظهري، وابتعدت.

14 حزيران

إنني لأحتقر نفسي في بعض الأحيان... تُرى أليس هذا هو السبب في أنني أحتقر الآخرين؟... لقد أصبحت عاجزاً عن الاندفاعات النبيلة، إذ أخشى أن أصبح في نظر نفسي مضحكاً. لو كان غيري في مكاني، لقدم للأميرة Son coeur et sa fortune[32]، ولكن كلمة **الزواج** تفعل في نفسي فعل السحر، فقد أحب امرأة من النساء حباً جامحاً عنيفاً، حتى إذا أشعرتني قليلاً بأن عليّ أن أتزوجها، زال حبي، ومضى! إن قلبي يصبح عندئذ كصخرة، فلا يحركه بعد ذلك شيء. إنني قادر على جميع التضحيات، إلا هذه... يمكن أن أجازف بحياتي عشرين مرة، بل قد أجازف بشرفي أيضاً... ولكنني لن أبيع حريتي. تُرى ما الذي يجعلها غالية عندي إلى هذه الدرجة؟... ماذا أجد فيها؟ ما الذي أعد له نفسي؟ ماذا أنتظر من المستقبل؟... يميناً، لا شيء. ولكنه خوف فُطرت عليه، وتوجس لا أستطيع تعليله... ثمة أناس يخافون من العناكب، من الصراصير، من الفئران، دون أن يعرفوا لخوفهم هذا سبباً. هل اعترف لكم بشيء؟... حين كنت صغيراً تنبأت امرأة عجوز لأمي **بأن الموت سيأتيني من زوجة شريرة**. ولقد اضطربت يومئذ اضطراباً عميقاً، وأصبحت أنفر من الزواج نفرة لا سبيل إلى مغالبتها... ومع ذلك إن شيئاً يهتف بي أن النبوءة ستتحقق. سأحاول على الأقل أن أرجئها ما استطعت الإرجاء.

15 حزيران

وصل أمس إلى هنا المشعوذ **أبفلباوم**. وقد ألصق على باب المطعم إعلان طويل يزف إلى الجمهور الكريم أن المُلقَّب بأبفلباوم، الحاوي المدهش، البهلوان الرائع، العالِم في الكيمياء والضوء، يسره أن يقيم حفلة كبرى في الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم نفسه، في صالون الطبقة الراقية (أي في المطعم). ثمن التذكرة: روبلان ونصف روبل.

إن جميع الناس يريدون أن يذهبوا إلى المطعم لمشاهدة الحاوي المدهش. وقد اشترت الأميرة ليجوفسكايا تذكرة، رغم أن ابنتها مريضة، وستذهب وحدها.

بعد الغداء، مررت تحت نوافذ فيرا. كانت وحدها على شرفتها، فإذا برسالة منها تسقط بين قدميّ:

«هذا المساء في الساعة العاشرة، تعال إليّ، من السلم الكبير. ذهب زوجي إلى بياتيجورسك، ولن يعود إلا في صباح الغد. لا الخدام، ولا الخادمات، لن يكونوا في البيت. اشتريت لهم جميعاً تذاكر، وكذلك لخدام الأميرة. أنتظرك. تعال حتماً».

قلت لنفسي: «ها ها... قد وصلتُ أخيراً إلى ما كنت أريد».

ذهبت إلى المطعم لمشاهدة المشعوذ، في الساعة المضروبة. ولم يلتئم جمع الجمهور إلا في الساعة التاسعة. ثم بدأت الحفلة. رأيت خدام وخادمات فيرا والأميرة في الصفوف الأخيرة. كانوا جميعاً هناك. ورأيت جروشنيتسكي في الصف الأول، يحمل نظارته، وإليه كان يتوجه المشعوذ كلما كان في حاجة إلى منديل، أو ساعة، أو خاتم، أو ما شاكل ذلك.

إن جروشنيتسكي لا يحييني منذ مدة. وقد نظر إليّ اليوم مرتين شزراً، في شيء من الوقاحة. سأذكره بذلك كله في حينه.

وقبل الساعة العاشرة بقليل نهضت وخرجت. كان الظلام في الخارج دامساً. وكانت سُحُب ثقيلة باردة، تجثم على ذرى الجبال المجاورة. ومن حين إلى حين تهب نسمة خفيفة بطيئة، تهز رؤوس أشجار الحور حول المطعم. فيسمع حفيف أوراقها خفيفاً. كان الجمهور يسارع إلى النوافذ. وهبطت الهضبة. حتى إذا تجاوزت الباب الكبير الذي تدخل منه العربات حثثت الخطى. فتراءى لي فجأة أن شخصاً يسير ورائي. فتوقفت أنظر. كان يستحيل عليّ أن أرى في هذه الظلمة الكثيفة شيئاً. وعلى سبيل الاحتراس، درت حول البيت، كمن يتنزه. فلما مررت تحت نوافذ الأميرة ماري سمعت مرة أخرى، وَقْع خطوات ورائي: ومرّ بسرعة خاطفة، رجل يرتدي معطفاً عسكرياً. فتطيرت من ذلك. غير أنني اقتربت من درج الباب بخفة، وصعدت السلم في الظلام بسرعة. وفُتح الباب، وامتدت يد صغيرة تمسك بيدي...

قالت فيرا وهي تشد نفسها إليّ:

ـ هل رآك أحد؟

ـ لا!

ـ هل أنت مقتنع الآن بأنني أحبك؟ آه. لقد ترددت كثيراً، وتألمت كثيراً... ولكنك تصنع بي ما تشاء.

كان قلبها يخفق بقوة، وكانت يداها باردتين كالثلج. وبدأ عتاب الغيرة، وبدأ اللوم والشكوى. وأخذت تستحثني على أن أعترف لها بكل شيء، قائلة إنها ستتحمل خيانتي لها من دون تذمر،

لأنها لا ترغب إلا في شيء واحد، هو أن تراني سعيداً. لم أصدقها تماماً، ولكنني هدأت روعها بالعهود والوعود إلى آخر ما هناك.

ـ إذن لن تتزوج ماري؟ إذن أنت لا تحبها؟... وهي تظن... هل تعرف أنها مجنونة غراماً بك، مسكينة ماري!...

....

....

وفي الساعة الثانية من الصباح، فتحت النافذة، وانزلقت على عامود مستعيناً بشالين رُبط أحدهما بالآخر، حتى وصلت إلى الشرفة تحت. لا يزال في غرفة ماري ضوء. وشعرت بشيء يدفعني نحو نافذتها. لم تكن الستارة مسدولة تماماً، فاستطعت أن ألقي على غرفتها نظرة مستطلعة. كانت ماري جالسة على سريرها، وقد شبكت يديها على ركبتيها. وكان شعرها الكثيف مضموماً تحت قلنسوة صغيرة لليل يزينها حرير مخرّم، وكان يغطي كتفيها الأبيضين شال أحمر، وكانت قدماها الصغيرتان مختبئتين في بابوج عجمي صارخ الألوان. كانت ساكنة خافضة رأسها، وأمامها كتاب مفتوح فوق منضدة صغيرة، ولكن عينيها الجامدتين المليئتين بحزن قاهر كانتا كأنهما تطوفان على هذه الصفحة للمرة المائة... إنها شاردة اللب.

وفي هذه اللحظة سمعت شيئاً يتحرك وراء دغل. فقفزت من الشرفة التي كنت عليها إلى الأرض فوق العشب، فإذا يد لا أراها تقع على كتفي، ويقول صاحبها بصوت خشن:

ـ ها... لقد قبضت عليك متلبساً بالجرم! تذهب إلى الأميرات في الليل!...

وصاح صوت آخر خرج من الظلام:

ـ أقبض عليه جيداً!

إنهما جروشنيتسكي والرئيس الخيّال.

فهويت على رأس هذا الأخير بضربة أسقطته على الأرض، ووليت هارباً بين الأشجار الكثيفة. كنت أعرف جميع ممرات الحديقة التي تغطي المنحدر أمام بيوتنا. وسمعتهما يصرخان:

ـ سارق، سارق! اقبضوا على السارق!...

وسمعت صوت طلقة من بندقية، وسقطت بين قدميّ تقريباً باشورة مدخنة.

وبعد دقيقة كنت في بيتي. خلعت ثيابي، واستلقيت على سريري. وما كاد خادمي يقفل بالمفتاح، حتى جاء جروشنيتسكي والرئيس يطرقان الباب.

وسمعت الرئيس يصيح:

ـ بتشورين! أنت نائم؟ أنت هنا؟

فقلت محتداً:

ـ نعم، أنا نائم!

ـ انهض، انهض! هناك لصوص... شراكسة...

ـ إنني مصاب بزكام وأخاف أن يدركني برد. وذهبا. لقد أخطأت إذ رددت عليهما. كان ينبغي أن أدعهما يبحثان عني ساعة أخرى في الحديقة. وأطلقت إشارة الخطر أثناء ذلك. فوصل أحد القوزاق من القلعة، وكان هرج ومرج عمّ جميع الناس. أخذوا يبحثون عن الشراكسة بين جميع الأدغال، فلم يجدوا أحداً، طبعاً... ولكن ظل كثيرون يعتقدون أن عشرين لصاً من اللصوص

على الأقل كان يمكن القبض عليهم فوراً، لو أن الحامية أظهرت مزيداً من السرعة والبراعة.

16 حزيران

لم يكن للناس من حديث في هذا الصباح، عند البئر، إلا هجوم الشراكسة في الليل. أفرغت في جوفي من مياه نارزان العدد المعين من الكؤوس، وأخذت أتجول تحت أشجار الزيزفون في الممر، فلما كنت أذهب وأجيء كثيراً، لقيت زوج فيرا الذي عاد من بياتيجورسك منذ قليل، فأمسك بذراعي، وذهبنا إلى المطعم نتناول طعام الغداء. كان قلقاً على زوجته أشد القلق. قال:

ـ لقد خافت في الليلة البارحة كثيراً... هل كان من الضروري أن لا يقع هذا إلا أثناء غيابي؟

جلسنا إلى المائدة نتغدى، على مقربة من الباب الذي يطل على غرفة في الركن. كان فيها ما يقرب من عشرة شباب بينهم جروشنيتسكي. وهأنذا أسمع، للمرة الثانية، على سبيل المصادفة، حديثاً سيعين مصيره. كان لا يراني، فلا يمكن أن أقدِّر إذن أنه قال ما قال عن خطة مقصودة. ولكن ذنبه من أجل ذلك لا يصغر في رأيي بل يكبر.

سأل أحدهم:

ـ هل كانوا شراكسة حقاً؟ ثم هل رآهم أحد؟

فأجاب جروشنيتسكي:

ـ سأقص عليكم الحكاية كلها، ولكن إياكم أن تشوا بي.
هذا ما وقع: جاءني أمس رجل لن أسميه لكم يقول إنه رأى

شخصاً يتسلل في نحو الساعة العاشرة من المساء إلى بيت الأميرتين ليجوفسكايا. لاحظوا أن الأميرة الأم كانت هنا، وأن ابنتها بقيت وحدها في المنزل. فذهبنا معاً، ورابطنا تحت نافذتها لنراقب ذلك الإنسان السعيد.

اعترف أنني خفت، رغم أن مؤاكلي كان منهمكاً بتناول طعامه. فلقد كان يمكن أن يسمع شيئاً يسوءه لو أن جروشنيتسكي حزر الحقيقة. لكنه، وقد أعمته الغيرة، لم تخطر له الحقيقة ببال. واستمر جروشنيتسكي يقول:

ـ وقد ذهبنا ببندقية مشحونة بخرطوشة بدون رصاص، على سبيل التخويف. وظللنا ننتظر في الحديقة حتى الساعة الثانية من الصباح، وأخيراً ظهر رجل، لا ندري من أين جاء. لم يهبط من النافذة على كل حال. لأن النافذة كانت موصدة. ولا بد أنه مرّ من الباب الزجاجي وراء العامود. المهم أننا رأيناه يهبط من الشرفة... يا لهذه الأميرة! آه من آنسات موسكو! بمن يثق الإنسان، وإلى من يطمئن؟ وأردنا أن نقبض عليه، ولكنه فر منا، وولى هارباً كالأرنب بين الأدغال. وعندئذ أطلقت النار.

هنا قامت حول جروشنيتسكي جلبة من عدم التصديق، فأردف يقول:

ـ ألا تصدقون؟ أقسم لكم بشرفي أنني لم أقل غير الحقيقة، وإذا شئتم برهاناً على ذلك سميت لكم الشخص.

فصاحوا به من كل جانب:

ـ سَمِّه، سَمِّه، من هو؟

فقال جروشنيتسكي:

ـ هو بتشورين.

وفي هذه اللحظة، رفع بصره، فرآني على العتبة، أمامه تماماً. فاصطبغ وجهه بلون القرمز. اقتربت منه، وقلت له، على مهل، بصوت واضح:

ـ يؤسفني كثيراً أنني لم أدخل إلا بعد أن حلفت بشرفك تدعم أحقر افتراء، وأحط أكذوبة. فلو أنني دخلت قبل ذلك لمنعك وجودي من اقتراب هذه الرذيلة الأخيرة زيادة على الرذائل التي سبقتها.

فنهض فجأة، وأراد أن يعلو عليّ في القول، فتابعت كلامي دون أن أغير من لهجتي شيئاً:

ـ اسحب ما قلت فوراً، فأنت تعلم أنه محض اختلاق. ولا أعتقد أن عدم اهتمام سيدة بمزاياك اللامعة يستحق انتقاماً حقيراً إلى هذا الحد من الحقارة. فكر في الأمر، فإذا أصررت على مزاعمك، فقدت الحق في أن تسمى رجلاً شريفاً، وعرَّضت حياتك للخطر.

كان جروشنيتسكي واقفاً أمامي، خافض البصر، مضطرباً أشد الاضطراب. ولكن الصراع بين ضميره وكبريائه لم يدم طويلاً، كما أن الرئيس الخيّال الذي كان جالساً إلى جانبه، لكزه بكوعه. فانتفض وقال بسرعة، دون أن يرفع بصره:

ـ أيها السيد العزيز، حين أقول شيئاً، فإنني أعنيه، وإنني مستعد لتكراره... لست أخاف تهديداتك. وأنا مستعد لكل شيء.

فأجبته ببرود:

ـ هذا، قد سبق أن أظهرته.

ثم أمسكت بذراع الرئيس الخيّال، وخرجت من الغرفة.

قال الرئيس:

ـ ماذا تريد؟

قلت:

ـ أنت صديق جروشنيتسكي، ولا شك أنك ستكون مرافقه.

فانحنى الرئيس في احتفال، وأجاب:

ـ نعم، هذا صحيح؛ بل إن من واجبي أن أكون مرافقه، لأن الإهانة التي وجهتها إليه تصيبني أنا أيضاً.

وأضاف وهو ينصب قامته المقوسة قليلاً:

ـ لقد كنت معه في الليلة البارحة.

ـ ها! هذا أنت إذن من هويت على رأسه بضربة طائشة.

فاصفر من ذلك وجهه، ثم ازرق، وارتسمت عليه آثار غضب مكبوح. وأضفت أقول، وأنا أحييه في لطف ولباقة، متظاهراً بأنني لم ألاحظ غضبه:

ـ يشرفني أن أبعث إليك اليوم بمرافقي.

وخرجت من المطعم، فوجدت زوج فيرا، أعتقد أنه كان ينتظرني.

فشد على يدي بعاطفة تشبه أن تكون إعجاباً، وقال والدموع في عينيه:

ـ مرحى لك أيها الفتى الباسل! لقد سمعت كل شيء... هذا الجرو! يا له من عاق... كيف يُستقبلون بعد هذا في بيت محترم! الحمد لله على أنني ليس لي بنت! ولكن تلك التي تجازف بحياتك من أجلها ستكافئك.

ثم أضاف يقول:

- كن واثقاً كل الثقة من كتماني للأمر، ما لزم الكتمان. لقد كنت شاباً، أنا أيضاً، وخدمت في الجيش، وأعرف أن الإنسان يجب أن لا يتدخل في أمور كهذه. إلى اللقاء.

مسكين! يفرح لأنه ليس له بنت...

ومضيت رأساً إلى فرنر، ووجدته في بيته، فقصصت عليه كل شيء: علاقاتي بفيرا، بالأميرة الصغيرة، والحديث الذي سمعته والذي علمت منه ما ينويه هؤلاء السادة من العبث بي والسخر مني، إذ يريدون أن نطلق خرطوشة فارغة. ولكن الأمر خرج الآن من نطاق المزاح. ولا شك أنهم ما كانوا يتوقعون هذا الحل.

فوافق الدكتور على أن يكون مرافقي، وذكرت له بعض المعلومات المتصلة بشروط المبارزة، وقلت له أن يلح على أن يتم الأمر بلا جلبة، لأنني إذا كنت مستعداً لمجابهة الموت ما شاؤوا ذلك، فلست أبداً مستعداً لإفساد مستقبلي في هذه الحياة إلى الأبد.

ثم عدت إلى منزلي. وجاء إليّ الدكتور بعد ساعة من ذلك، يقص عليّ ما أسفرت عنه مهمته. قال:

- إنها مؤامرة مُدبَّرة حقاً. لقد وجدت عند جروشنيتسكي، الرئيس الخيّال وسيِّداً آخر يفوتني اسمه. وتوقفت لحظة في حجرة المدخل أخلع نعلي، فسمعت صراخاً وشجاراً في الداخل. كان جروشنيتسكي يقول: «مستحيل، لقد أهانني على ملأ من الناس». فأجابه الرئيس: «وما الذي يضيرك في هذا؟ سأتحمل أنا العبء كله. لقد كنت مرافقاً في خمس مبارزات، وأعرف كيف أدبر

الأمر. لقد فكرت في كل شيء. من فضلك لا تمنعني. سيخاف: وسبميده ذلك... ولماذا تعرِّض نفسك للخطر مع أنك تستطيع تحاشيه؟...» وهنا دخلت، فصمتوا، وطالت مباحثاتنا. وإليك ما انتهينا إليه من قرار. هناك، على مسافة خمسة فرستات، فج منعزل سيذهبون إليه غداً في الساعة الرابعة من الصباح، ونذهب نحن بعدهم بنصف ساعة. وقد أصر جروشنيتسكي على أن تطلقا على مسافة ست خطوات. وسيموت أحدكما، فيُسند ذلك إلى الشراكسة. ولكنني أظن أن المرافقين قد عدّلوا خطتهم الأولى قليلاً، فهم يريدون أن يشحنوا فقط مسدس جروشنيتسكي بالرصاص. جريمة عن سابق عمد وتصميم... ولكن في أيام الحرب، ولا سيما بآسيا، كل الحِيَل مُباحة. ومع ذلك قال جروشنيتسكي يبدو لي أقل خسة من أصدقائه. ما رأيك؟ هل علينا أن نبين لهم أننا اكتشفنا كل شيء؟

ـ أبداً يا دكتور! اطمئن بالاً، فلن يغدروا بي.

ـ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ هذا سري!

ـ كن على حذر... لاحظ أنكما على بعد ست خطوات!

ـ دكتور، أنتظرك غداً في الساعة الرابعة، ستكون الخيل مهيأة... إلى اللقاء!

قبعت في غرفتي مساء فجاءني الخادم يدعوني إلى الأميرة فطلبت منه أن يقول لها إنني مريض.

....

دقت الساعة الثانية من الصباح... ولم يغمض لي جفن...

يجب أن أنام مع ذلك، حتى لا تهتز يدي. ولكن على بعد ست خطوات، يصعب أن تخيب الطلقة. آه! يا سيد جروشنيتسكي! لن تنفعك حيلتك... انقلبت الآية، وسوف يستلم كل منا دور الآخر. عليّ أنا الآن أن ألاحظ في وجهك الممتقع علامات خوفك الخفي. لماذا عينت أنت نفسك هذه المسافة المشؤومة، مسافة ست خطوات؟ تتخيل أنني سأقدِّم لك رأسي لقمة سائغة؟ ولكننا سنضرب القرعة وعندئذ... عندئذ... ماذا لو حالفه الحظ؟ ماذا لو خانني نجمي؟... هذا ممكن جداً. لقد خدم الحظ نزواتي إلى الآن. ولكن الثبات نادر في السماء ندرته في الأرض.

حسن، أموت إن كان يجب أن أموت! ولن تكون خسارة العالم فيّ عظيمة. وأنا، ألست ضجراً أعمق الضجر؟ إنني كرجل يتثاءب في حفلة راقصة، ثم لا يمضي إلى النوم، لا شيء إلا لأن عربته ليست هناك. ولكن العربة تقدمت... عموا مساء!...

استعرضت ماضيّ كله، وتساءلت: لماذا عشت؟ ولأية غاية خُلِقت؟... ذلك أن ثمة غاية، ولا شك أنها غاية كبيرة، لأنني أشعر بقوى هائلة في نفسي... ولكنني لم أفهم مصيري الذي خلقت له، بل كان يجرني سراب أهواء عقيمة عاقة، خرجتُ من بوتقتها صلباً بارداً كالفولاذ، ولكنني فقدت إلى الأبد حرارة الحماسة النبيلة، وهي أجمل ما في الحياة. وبعد ذلك، كم مرة كنت كفأس في يد القدر! فانقضضت كالحسام على رؤوس الضحايا، دون كره في كثير من الأحيان، ودون شفقة في جميع الأحيان... وحبي لم يُسعد أحداً، لأنني لم أضحّ بشيء في سبيل من أحببتهن. أحببت لنفسي، للذتي الخاصة. كنت لا أزيد على

إرواء مطالب قلبي الغريبة، وأغتذي بعواطف ضحاياي وبحبهن الرقيق، وبأفراحهن وآلامهن، أغتذي من ذلك كله في شراهة، دون أن أتوصل إلى الشبع قطّ، مثلي كمثل ذلك الشقي الذي هدَّه الجوع، ثم نام، فإذا هو يرى فيما يرى النائم مآكل شهية فاخرة، وخموراً معتقة طيبة، فيأخذ يلتهم من هذه الهدايا السحرية التي أوجدها خياله ما شاء له الالتهام، فيشعر بالراحة والرضى، ولكنه ما يكاد يفيق حتى تغيب الرؤيا، ويحل محلها الجوع مرة أخرى، أقوى مما كان، ويحل اليأس!

قد أموت غداً!... لن يبقى عندئذ على وجه الأرض شخص فهمني... بعضهم يظنني أسوأ مما كنت، وبعضهم الآخر يحسبني خيراً مما كنت... سيقول بعضهم: كان نِعْم الفتى، وسيقول بعضهم الآخر: كان رجلاً وغداً حقيراً. إنهم جميعاً على خطأ. وبعد، فهل تستحق الحياة أن يعيشها الإنسان؟ ولكننا نعيش على كل حال، من قبيل حب الاطلاع، ننتظر جديداً... بؤس وضلال!

* * *

إنني في قلعة ن... منذ شهر ونصف شهر. لقد ذهب مكسيم مكسيمتش إلى الصيد... وأنا أجلس الآن وحدي إلى النافذة. هذي سحب شهباء تغطي الجبال. والشمس تبدو من خلال الضباب بقعة صفراء، كان الطقس بارداً والريح تصفر، وتهز المصاريع!... أشعر بضجر!... سأتم كتابة يومياتي التي حالت بيني وبين إتمامها أحداث غريبة كثيرة.

لقد قرأت الصفحة الأخيرة. إنها تضحكني على كل حال.

كنت أظن أنني سأموت. ولكن ذلك كان مستحيلاً، ذلك أنني لم أكن قد تجرعت كأس المرارة حتى آخر قطرة. والآن أشعر أنني سأعيش مدة طويلة أيضاً.

كم يبدو لي الماضي واضحاً قوياً في ذاكرتي! إن الزمن لم يُمحَ منه خطاً ولا لوناً!

في الليلة التي سبقت المبارزة، ما أزال أذكر ذلك، لم أستطع أن أنام دقيقة واحدة... وما استطعت أن أكتب خلال بضع لحظات إلا بشق النفس. كنت فريسة غمٍّ خفي تملَّك نفسي. وبعد أن ذرعت غرفتي جيئة وذهاباً مدة ساعة كاملة، جلست، وفتحت رواية لوالتر سكوت كانت تثوي على منضدتي منذ مدة طويلة: إنها رواية «بيورتانيو أيقوسيا». بذلت في أول الأمر شيئاً من الجهد للقراءة، ولكنني ما لبثت أن انجرفت مع هذه القصة الخيالية الرائعة، فنسيت كل شيء...

هل يمكن أن لا يكافأ الشاعر الأيقوسي في الحياة الأخرى بلحظات من هذه السعادة الخالدة التي يهيئها لنا كتابه؟...

وأخيراً طلع النهار. كان اضطرابي قد هدأ قليلاً. ونظرت إلى نفسي في المرآة. كان وجهي الذي يحتفظ بآثار أَرَق مؤلم شاحباً شحوباً شديداً. ولكن عينيَّ، رغم أنهما محاطتان بهالة مزرقّة، كانتا تلتمعان ببريق من الزهو والغيظ. كنت راضياً عن نفسي.

أمرت أن تُسرَج الخيل، وارتديت ثيابي، وأسرعت إلى الحمام، وغطست في نارزان البارد الفائر، فشعرت بارتداد قواي الجسمية والمعنوية إليّ. وخرجت من الماء، غضاً مرحاً كأنني ذاهب إلى حفلة راقصة. هل تدَّعون بعد ذلك أن النفس لا تتعلق بالجسم!...

فلما عدت إلى بيتي وجدت الدكتور ينتظرني. كان يرتدي سروالاً أشهب، ويكسو رأسه بقلبق شركسي. فلما رأيت جسمه الصغير تحت هذا القلبق الكبير من الفراء، انفجرت ضاحكاً. ليس في شكله شيء من ملامح القتال والمقاتلين، مع أن وجهه بدا لي في هذه اللحظة أطول مما كنت أراه عادة.

ـ لماذا أراك حزيناً يا دكتور؟ ألم تكن تودّع مئات من المسافرين إلى العالم الآخر، دون أن تبالي؟ هب أنني مصاب بالحمى الصفراء، وأن من الممكن أن أموت أو أن ترتد إليّ عافيتي، وكلا الأمرين طبيعي، فحاول أن تعدَّني شخصاً مصاباً بمرض من الأمراض، وأن تتصور، أنك لا تعرف هذا المرض، فعندئذ سيثور فيك حب الاستطلاع إلى أبعد الحدود! إنك تستطيع الآن أن تجري عليّ ملاحظات فيزيولوجية في غاية الخطورة. أليس انتظار موت عنيف مرضاً في حقيقة الأمر؟

فاجأته هذه الفكرة، وعاد إليه صفاء مزاجه، وركب كل منا حصانه، وتمسك فرنر بالأعنة بكلتا يديه، وسرنا نعدو. وما هي إلا طرفة عين حتى اجتزنا القلعة، وقطعنا القرية، ودخلنا الفج الذي يتلوى فيه الطريق، تغطيه الأعشاب الكبيرة، وتعترضه في كل لحظة ساقية صاخبة يجب اجتيازها مخاضاً، لسوء حظ الدكتور كان يحلو لحصانه أن يتوقف في وسط الساقية تماماً.

لا أذكر أنني شهدت صباحاً أكثر زرقة وطراوة من ذلك الصباح! كانت الشمس تطلع من وراء الذرى المخضوضرة، وكانت حرارة أشعتها الأولى الممتزجة برطوبة الليل المنصرم، تنفذ إلى جميع حواسي في خدر عذب. إن ضوء النهار الذي يولد لَمَّا ينفذ

إلى الفج بعد، ولكنه يذهِّب رؤوس الصخور التي كانت تمتد فوق رؤوسنا، يُمنة ويُسرة. وكانت الشجيرات ذات الأوراق الكثيرة، التي تنمو في الشقوق العميقة من الصخور، تمطرنا برذاذ من الماء فضي، متى هبت نسمة خفيفة. أذكر أنني أحببت الطبيعة في تلك اللحظة أكثر مما أحببتها في أي وقت مضى من حياتي. كنت أراقب كل قطرة من قطرات الندى تخفق على أوراق العنب وتعكس ملايين الأشعة المتلونة بألوان قوس قزح! وكان بصري يذهب إلى الآماد البعيدة التي تمتلىء بالبخار، في شراهة ما بعدها شراهة! هناك يبدو الطريق كأنه يضيق ثم يضيق... والصخور التي تزداد زرقتها ورهبتها تشكل ما يشبه أن يكون جداراً لا يمكن اجتيازه. كنا نسير صامتين.

وسألني الدكتور فجأة:

ـ هل معك وصيتك؟

ـ لا.

ـ وإذا قُتِلت؟...

ـ اطمئن بالاً... الذين سيرثونني، سيعرفون بأنفسهم.

ـ ماذا؟! أما من صديق تريد أن تقول له وداعاً؟...

فهززت رأسي.

ـ أما من امرأة تريد أن تترك لها ذكرى؟...

ـ هل تريد يا دكتور أن أفتح لك نفسي؟... لقد تجاوزت السن التي إذا مات فيها الإنسان، مات وهو يلفظ اسم حبيبته الغالية، ويهدي إلى صديقه خصلة من شعره معطرة أو غير معطرة. حين أفكر في احتمال موت قريب، لا أفكر إلا في نفسي وحدها.

أما بعض الناس فلا يفعلون حتى ذلك. مالي وللأصدقاء الذين سرعان ما ينسونني، وقد يلفقون في حقي ما لا يعلمه إلا الله من أقاويل، وما لي وللنساء اللواتي حين سيقبلن رجلاً آخر، سيسخرن مني حتى لا يغار صاحبهن من ميت. ومن عواصف الحياة، رجعت ببعض الأفكار فقط، ولم أرجع بعاطفة واحدة. وأنا أعيش بالعقل لا بالقلب منذ مدة طويلة. إنني أزن أهوائي وأفعالي وأحللها بنوع من حب الاستطلاع الحيادي البارد. إن في نفسي رجلين: واحداً يعيش بأوسع معاني هذه الكلمة وآخر يفكر ويحكم على الأول. بعد ساعة، قد يقول لك أحدهما وداعاً، ويقول للدنيا وداعاً؛ والثاني... الثاني؟... انظر يا دكتور، ألا ترى على اليمين فوق الصخرة، ثلاثة أشباح سوداء؟ إنهم خصومنا، فيما أظن؟...

وحثثنا الخطى.

كان على سفح الصخرة ثلاثة أحصنة ربطت بأشجار، فربطنا حصانينا نحن أيضاً، واجتزنا ممراً ضيقاً، فوصلنا إلى المكان الذي كان ينتظر فيه جروشنيتسكي، والرئيس الخيال وشخص يدعى إيفان إجناتييفيتش، كنت أجهل يومئذ لقبه.

قال لي الرئيس وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ لقد تأخرت.

فأخرجت ساعتي، وأريته إياها.

فاعتذر قائلاً إن ساعته متقدمة.

وساد صمت شاق، خلال بضع دقائق، ولكن الدكتور قطع الصمت متجهاً بالكلام إلى جروشنيتسكي:

ـ أيها السيدان، لقد أظهرتما كلاكما استعدادكما للمبارزة،

فخضعتما بذلك لقواعد الشرف. ويلوح لي أنكما تستطيعان الآن أن تتفاهما وأن تحلا هذه المشكلة على صفاء ومحبة. فقلت:

ـ أنا مستعد لذلك كل الاستعداد.

فغمز الرئيس جروشنيتسكي الذي ظن أنني خائف، فشمخ بأنفه، رغم أنه كان إلى ذلك الحين ممتقع اللون، ورفع بصره نحوي. هذه أول مرة ينظر فيها إليّ منذ وصلنا. ولكن كان في نظرته شيء من القلق يدل على صراع في نفسه. قال:

ـ أبسط شروطك، وثق أن كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك، سأ...

ـ هذه شروطي: أن تسحب اليوم على رؤوس الأشهاد افتراءاتك، وأن تعتذر لي...

ـ أيها السيد، إنه ليدهشني أن تجرؤ على طلب شيء كهذا.

ـ وما عسى أن أطلب غيره؟

ـ هيّا، انتهى الأمر، سنتبارز.

فهززت كتفي، وقلت:

ـ أعتقد... ولكن لاحظ أن أحدنا سيُقتل لا محالة.

ـ أتمنى أن تكون أنت المقتول.

ـ وأنا واثق من العكس.

فاضطرب واحمرّ ثم انفجر يضحك بتصنُّع.

وأمسك الرئيس بذراعه، وجرّه بعيداً عنا، وتحادثا طويلاً بصوت خافت. لقد كنت حين وصولي هادئاً، ولكن هذا كله أخذ يخرجني عن طوري.

واقترب مني الدكتور، وقال لي بصوت واضح الاضطراب:

ـ يظهر أنك نسيت مؤامرتهم؟ أنا لا أعرف كيف يشحن المسدس، ولكن من أجل هذا الظرف... يا لك من رجل عجيب! قل لهم إنك تعرف مؤامرتهم... وعندئذ لا يجرؤون... أتريد إذن أن يسقطوك كعصفور؟...

ـ اطمئن يا دكتور، أرجوك، ودعني أتصرف... سأدبر الأمر بحيث لا يفوقوننا في شيء... دعهم يتهامسون.

ثم قلت بصوت عال:

ـ أيها السادة لقد غدا الأمر مضجراً حقاً. إذا كان علينا أن نقتتل، فلنقتتل... لقد اتسع وقتكم للتفاهم أمس...

فقال الرئيس:

ـ نحن مستعدون. إلى مكانيكما أيها السيدان. دكتور هل لك أن تقيس الخطوات الست؟...

فكرر إيفان إجناتييفيتش يقول بصوت حاد:

ـ إلى مكانيكما أيها السيدان.

قلت:

ـ اسمحوا لي! إن لي شرطاً آخر. ما دمنا سنقتتل قتال موت، فيجب أن نعمل كل ما نستطيع عمله من أجل أن يبقى الأمر سراً، ومن أجل أن يطمئن بال مرافقينا. ما رأيكم في هذا؟

ـ موافقون.

ـ إليكم ما تخيلته. هل ترون هناك، فوق، على اليمين عند رأس هذه الصخرة المنحدرة، تلك السطيحة الضيقة؟ إن المسافة بين الذروة والقاعدة تبلغ ما يساوي 120 ذراعاً، أو يزيد. والصخور في الأسفل ذات رؤوس حادة. أقترح أن يقف كل منا

على حافة تلك السطيحة، وبذلك تصبح أصغر إصابة قاتلة. ولا شك أن هذا يتفق مع رغباتكم، لأنكم أنتم عيَّنتم مسافة الخطوات الست. فالذي يجرح منا يسقط في الهاوية، فيموت حتماً. ويتولى الدكتور إخراج الرصاصة، ويسهل عندئذ تعليل الموت بأنه زلة قدم. ونترك للحظ أن يعين البادىء بإطلاق النار. ولا بد لي أن أقول لكم في الختام إنني لن أقتتل على غير هذه الصورة.

فقال الرئيس:

ـ موافقون

قال ذلك، وهو ينظر نظرة ذات دلالة إلى جروشنيتسكي الذي هز رأسه بالموافقة. كان وجه جروشنيتسكي يتغير تعبيره من لحظة إلى أخرى. لقد وضعته في موقف صعب. كان يمكنه، لولا اقتراحي ذاك، أن يصوب رصاصة إلى ساقي وأن لا يجرحني إلا جرحاً يسيراً، فيسرّه عندئذ أن يكون قد انتقم مني، دون أن يحمِّل ضميره وزراً ثقيلاً. أما الآن، فلم يبق إلا أن يطلق رصاصته في الهواء، أو أن يصبح قاتلاً، اللهم إلا أن يعدل عن مشروعه الحقير، ويقاتلني قتال الند للند، معرِّضاً نفسه لما يعرِّضني له من خطر. لا يمكن أن أتمنى أن أكون في مثل موقفه في تلك اللحظة! لقد جرّ الرئيس بعيداً عنا، وأخذ يكلمه في حرارة. لقد رأيت اضطراب شفتيه الشاحبتين. ولكن الرئيس أشاح بوجهه عنه، وهو يبتسم ابتسامة الاحتقار، وقال له بصوت يكاد يكون عالياً:

ـ أنت أبله!... لا تفهم شيئاً! هيا بنا أيها السادة.

كان هناك ممر ضيق في المنحدر بين الأشواك، وكان هنالك شظايا صخور، تكوّن سلماً طبيعياً ذا درجات مهتزة، فكنا، ونحن

نصعد، نتمسك بالأشجار. كان جروشنيتسكي يسير أمامنا جميعاً، يتبعه مرافقاه، وكنت أنا والدكتور نسير في المؤخرة.

قال لي الدكتور وهو يشد على يدي بقوة:

ـ إنك لتدهشني. دعني أجس نبضك. أوه، أوه، أنت محموم!... ولكن وجهك لا يظهر عليه أي أثر من ذلك... عيناك وحدهما تلمعان أكثر مما تلمعان عادة!

وفجأة تدحرجت بين أقدامنا حجارة صغيرة، وأحدث تدحرجها ضجة. ما هذا؟ لقد زلت بجروشنيتسكي قدمه، وانكسر الغصن الذي تمسك به، فكاد يهوي على ظهره إلى أسفل، لولا أن شاهدَيْه أمسكا به.

صحت به:

ـ تأنّ... لا تقع قبل الأوان. هذا نذير سوء. تذكر يوليوس قيصر!

ووصلنا أخيراً إلى قمة الصخرة الناتئة. كان السطح مغطى برمل ناعم، كأنه أُعِدَّ للمبارزة. ومن حولنا ذرى الجبال تتلاحق كقطيع لا حصر له، وتكاد تغرق في ضباب الصباح المُذهَّب: وفي الجنوب شمخت كتلة البروز البيضاء في نهاية الذرى المتجلدة التي تطوف بينها سحب على صورة السبائخ مهرولة من الشرق. تقدمت حتى حافة السطح، ونظرت إلى تحت. كاد ينتابني من ذلك دوار. لا شك أن القاع مظلم بارد كالقبر. إن أسنان الصخور التي اقتلعتها العواصف وهوى بها الزمن تنتظر فريستها.

كان السطح الذي يجب أن نقتتل عليه مثلثاً متساوي الأضلاع تقريباً. فقسنا ست خطوات، ابتداء من الزاوية الناتئة، واتفقنا على

أن الذي سيتعرض لرصاص خصمه قبل الآخر، هو الذي سيقف عند تلك الزاوية مديراً ظهره إلى الهاوية. فإذا لم يقتل، تبادل الخصمان مكانيهما.

وقد قررت أن أترك لجروشنيتسكي كل التفضيلات. كنت أريد أن أمتحنه، لعل شرارة من الأريحية تستيقظ في نفسه، فيتم كل شيء على ما أحب. ولكن كبرياءه وضعف إرادته انتصرا... فأردت أن أكون على حق في أن لا أترفق به إذا رحمني الحظ. من ذا الذي لا يعقد مثل هذه الاتفاقات مع ضميره؟

هتف الرئيس:

ـ القرعة، يا دكتور.

فأخرج الدكتور من جيبه قطعة من عملة فضية وأظهرها.

فسارع جروشنيتسكي يصيح كمن أيقظته، فجأة، ضربة مباغتة من صديق:

ـ طرة.

فقلت أنا:

ـ نقش.

قذف قطعة النقود فدارت ثم سقطت على الأرض ترن فأسرع الجميع ينظرون إليها.

قلت لجروشنيتسكي:

ـ حظك طيب. أنت أول من يطلق! ولكن اعلم أنك إن لم تقتلني، فسأقتلك أنا، أقسم لك.

فاحمر وجهه. إنه يخجل أن يقتل رجلاً أعزل. وحدقت إليه. خيّل إليّ في لحظة من اللحظات أنه سيرتمي على قدمي يطلب

العفو والمغفرة. ولكن كيف يعترف بخطة بلغت هذا المبلغ كله من الجبن والحقارة؟ بقي له مخرج واحد، هو أن يطلق رصاصته في الهواء. كنت واثقاً من أنه سيفعل ذلك. شيء واحد كان يمكن أن يمنعه، هو تصوره أنني قد أطلب لقاء آخر.

همس بي الدكتور وهو يشدني من كمي:

ـ آن الأوان. إن لم تقل لهم في هذه اللحظة أنك تعرف نيتهم فلن تقول ذلك لهم أبداً... سيضيع كل شيء! انظر، إنه يشحن المسدسين. إذا لم تقل أنت، فسأتولى أنا...

فأجبته أقول، وأنا أصده بيدي:

ـ إياك. وإلا أفسدت كل شيء. لقد وعدتني بأن تدعني أتصرف. ما الذي يهمك؟ لعلني أريد أن أموت...

فنظر إليّ دهشاً، وقال:

ـ هذا شيء آخر!... ولكن لا تشكني إذن في السماء!...

وفي أثناء ذلك كان الرئيس قد شحن المسدسين، فمد أحدهما إلى جروشنيتسكي وهو يبتسم، بعد أن همس في أذنه بشيء، وأعطاني الآخر.

وقفت على زاوية السطيحة، مستنداً قوياً على ساقي اليسرى فوق الصخرة، ومائلاً قليلاً إلى الأمام، حتى لا أسقط في الهاوية إذا جرحت جرحاً يسيراً.

ووقف جروشنيتسكي أمامي، حتى إذا أُعطيت الإشارة، رفع مسدسه. كانت ركبتاه ترتجفان. وصوّب مسدسه إلى جبهتي تماماً...

عندئذ التهب في نفسي حنق لا يُغالَب.

وفجأة، أرخى مسدسه، والتفت يقول لمرافقه بصوت مختنق، وقد امتقع وجهه واصفر اصفراراً شديداً:

ـ لا أستطيع.

فصاح به الرئيس:

ـ جبان!

وانطلقت الرصاصة، فأصابتني بخدش عند الركبة، فتقدمت بضع خطوات إلى أمام بالرغم مني، كي أبتعد عن الحافة بأقصى سرعة.

قال الرئيس:

ـ يا عزيزي جروشنيتسكي، لقد طاشت رصاصتك... خسارة... وعليك أنت الآن أن تتعرض لرصاص. ولكن، عانقني قبل ذلك، فلن نلتقي بعد الآن.

وتعانقا. فما أكثر ما بذل الرئيس من جهد حتى لا ينفجر ضاحكاً. وأضاف يقول، وهو ينظر إلى جروشنيتسكي متخابثاً:

ـ ولكن لا تخف، فكل شيء من هذا العالم باطل: الطبيعة حمقاء، والقدر غبي، والحياة لا تساوي شروى نقير!...

حتى إذا فرغ من قول هذه العبارة التراجيدية، بكل ما يقتضيه الموقف من جد ورصانة، عاد إلى مكانه. وجاء إيفان إجناتيفييتش يعانق جروشنيتسكي بدوره، والدموع تترقرق في عينيه. إن جروشنيتسكي واقف وحده الآن أمامي. لم أستطع يوماً أن أفسّر تلك العواطف التي كانت تغلي في صدري، في تلك اللحظة. إنها الحنق الذي يولّده جرح الكرامة، إنها الاحتقار والغضب الناشئان عن التفكير في أن هذا الرجل الذي ينظر إليّ الآن في ثقة واطمئنان

وجرأة هادئة، قد أراد منذ دقيقتين أن يقتلني كما يُقتل الكلاب، دون أن يعرِّض نفسه لأي خطر، ولو قد كان جرحي عند الركبة أبلغ من ذلك لتدحرجت إلى أعماق الهوة لا محالة.

وظللت أتفرس في وجهه طويلاً، علني أجد فيه أثراً من آثار الندامة، ولو يسيراً، ولكن بدا لي أنه يحاول أن يكبت ابتسامة، فقلت له:

ـ أنصحك أن تصلّي قبل أن تموت.

ـ لا تهتم بروحي أكثر مما اهتممت بروحك. إنني لا أطلب إليك إلا شيئاً واحداً، هو أن تطلق رصاصك بسرعة.

ـ أنت ترفض إذن أن تسحب افتراءاتك، وأن تقدم إليّ اعتذارك؟ فكر في الأمر جيداً! ألا يعذبك ضميرك أبداً؟

فصاح الرئيس يقول:

ـ يا سيد بتشورين، ليس شأنك هنا أن تسمع اعترافات... عفوك إذا أبديت هذه الملاحظة... يجب أن تنتهي بأقصى سرعة، فلقد يمر أحد في الفج فيرانا.

ـ طيب. يا دكتور، تعال إلى هنا...

فاقترب فرنر مني. مسكين! إن صفرة وجهه أشد من صفرة وجه جروشنيتسكي منذ عشر دقائق.

ونطقت بالكلمات التالية، بأحرف واضحة، وصوت عال متميز، كما يُنطق بالحكم بالإعدام:

ـ يا دكتور، لقد نسي هؤلاء السادة ـ من فرط السرعة طبعاً ـ أن يضعوا في مسدسي رصاصة. فأرجوك أن تشحن المسدس كما ينبغي!

فصاح الرئيس:

ـ مستحيل، مستحيل! لقد شحنت المسدسين كليهما بيدي. فإذا انزلقت رصاصة مسدسك، فليس هذا ذنبي. وليس من حقك أن تشحن المسدس مرة أخرى، ليس من حقك ذلك... هذا مخالف للقواعد كل المخالفة. ولن أسمح به...

فقلت للرئيس:

ـ حسناً، إذا كان الأمر كذلك، فسأقتتل معك على تلك الشروط نفسها.

فاضطرب.

وكان جروشنيتسكي ينتظر، خافض الرأس: وكان مكفهر الوجه حزيناً.

وقال أخيراً للرئيس الذي كان يريد انتزاع المسدس من يد الدكتور:

ـ دعهما، فأنت تعرف أنهما على حق!

وحاول الرئيس عبثاً أن يشير إلى جروشنيتسكي، ولكن جروشنيتسكي كان لا يريد أن يرى شيئاً.

وفي أثناء ذلك شحن الدكتور المسدس، وأعطانيه، فلما رأى الرئيس ذلك، بصق وهو يضرب الأرض بقدمه، وقال يخاطب جروشنيتسكي:

ـ أنت غبي، يا صديقي، أنت غبي مضاعف!... كان يجب أن تطيعني، ما دمت قد اعتمدت عليّ... تستحق... أفطس الآن كذبابة!...

ثم أدار ظهره، وابتعد وهو يدمدم:

ـ هذا مخالف للقواعد مهما تقولوا. . .

قلت:

ـ جروشنيتسكي، ما يزال في الوقت متسع، اسحب كلامك، اغفر لك كل شيء. لم تستطع أن تضحك عليّ، وقد رُدّت كرامتي إليّ. تذكر أننا كنا صديقين. . .

فالتهب وجهَه، والتمعت عيناه، وقال:

ـ أطلق الرصاصة! إنني أحتقر نفسي، وأكرهك. وإن لم تقتلني الآن، فسأغتالك ذات ليلة. لا مكان على الأرض لكلينا معاً. . .

فأطلقت. . .

وحين تبدد، الدخان، لم يكن جروشنيتسكي على السطيحة. وليس ثمة إلا عمود من الغبار ما يزال يدور عند حافة الهوة.

صرخ الجميع. وقلت لفرنر:

- Fenita la comedia![33]

فلم يجب، بل أشاح بوجهه في ذعر. فهززت كتفي، وودعت مرافقَيْ جروشنيتسكي.

وحين هبطت الممر الضيق، لمحت جثة خصمي الدامية، بين صخرتين، فأغمضت عيني، بالرغم مني. . .

وفككت حصاني، وعدت بخطوات بطيئة. كنت أشعر كأن صخرة ثقيلة تجثم على صدري. وبدت لي الشمس كابية، ولم تدفئني أشعتها.

وقبل أن أصل إلي القرية، أنعطف يمنة، إلى الفج. كنت لا أستطيع أن أرى أحداً، كنت أحب أن أظل وحيداً. وأرخيت

الأعنة، ومال رأسي على صدري، وظل الحصان يسير مدة طويلة، حتى وصلت أخيراً إلى مكان لا أعرفه. فأدرت حصاني إلى وراء، وقفلت راجعاً. وحين وصلت إلى كيسلوفودسك، كانت الشمس قد مالت إلى الغروب... وكنت مُنهَك القوى خائراً.

أبلغني خادمي أن فرنر قد جاء، ثم مد إليّ رسالتين، إحداهما من الدكتور، والثانية... من فيرا.

ففضضت الأولى، وقرأت فيها ما يلي:

«كل شيء على ما يرام. جاؤوا بالجثة المشوهة... واستخرجت الرصاصة من الصدر. والناس جميعاً موقنون أن الموت كان بقضاء وقدر. ولكن القائد، الذي لا شك أنه عرف شيئاً عن مشاجرتكما، هز رأسه، غير أنه لم يقل شيئاً. ليس ثمة أي دليل ضدك، وتستطيع أن تنام هادىء البال، إذا استطعت... إلى اللقاء!».

ومكثت طويلاً أتردد في فض الرسالة الثانية... ماذا يمكن أن تكتب إليّ؟ إنني لأتوجس شراً...

هذه هي الرسالة التي نقشت كل كلمة من كلماتها في ذاكرتي إلى الأبد:

«أكتب إليك وأنا على يقين من أننا لن نلتقي بعد الآن أبداً. حين افترقنا منذ بضع سنين، كنت أتصور ذلك أيضاً. ولكن السماء أرادت أن تجربني مرة أخرى، ولم أستطع أن أصمد للتجربة، بل خضع قلبي الضعيف مرة أخرى للنداء المعروف... لعلك لن تحتقرني، على الأقل؟ ستكون هذه الرسالة وداعاً واعترافاً في آن واحد: يجب أن أبوح لك بكل ما تراكم في قلبي منذ عرفتك. لا

أريد اتهامك. فقد سلكت معي كما كان يمكن أن يسلك أي رجل آخر. أحببتني كما يحب المرء رزقاً يملكه وينتفع به، أحببتني نبعاً من الانفعالات واللذات والأحزان التي تتعاقب وتكون الحياة، بدونها، مضجرة رتيبة. لقد فهمت ذلك منذ البداية... ولكنك كنت شقياً، وضحيت أنا بنفسي، آملة أن تُقدِّر تضحيتي يوماً، وأن تفهم عاطفتي العميقة التي لا أشترط لها شيئاً. ثم مضى على ذلك وقت طويل، نفذت خلاله إلى جميع أسرار نفسك، فعرفت أن أملي كان عبثاً... آه ما أشد ما تألمت! ولكن حبي كان قد مازج نفسي واتحد بها... فأظلم، ولكنه لم ينطفىء.

إننا نفترق الآن فراقاً لا لقاء بعده. ولكنك تستطيع أن تكون على يقين من أنني لن أحب في حياتي أحداً غيرك: لقد استنفدت نفسي في حبك كل كنوزها ودموعها وآمالها. وإن امرأة عرفتك لا تستطيع أن تنظر إلى غيرك من الرجال إلا في شيء من الاحتقار، لا لأنك خير منهم جميعاً، لا، لا، بل لأن فيك شيئاً ليس في غيرك، شيئاً خفياً متكبراً. إن في صوتك، مهما تقل، لقوة لا سبيل إلى مقاومتها. ما من أحد يستطيع بمثل هذا الثبات والدوام أن يفرض حبه، وأن يجعل الشر نفسه جذاباً إلى هذه الدرجة، وأن تعد نظرته بكل هذه السعادة! ما من أحد يستطيع أن يستفيد من مزاياه خيراً مما تفعل أنت، وما من أحد يبلغ من الشقاء حقاً ما تبلغ، إذ ما من أحد يحاول، أن يقنع نفسه بخلاف ذلك.

وبعد، يجب أن أبسط لك سبب هذا السفر السريع. سيبدو لك هذا السبب غير ذي بال، لأنه لا يتعلق بأحد سواي.

دخل عليّ زوجي هذا الصباح، وقصّ عليّ المشاجرة التي

وقعت بينك وبين جروشنيتسكي. وكان لا بد أن يتغير وجهي، لأنه حدَّق إليّ طويلاً. وكاد يغمى عليّ، إذ تصورت أنك ستقتتل اليوم مع جروشنيتسكي، وأنني السبب في هذا كله. خيّل إليّ أنني سأجن... ولكنني مطمئنة الآن، وقد ثاب إليّ رشدي، أنك ستبقى حياً، فمن المستحيل أن تموت دون أن أموت أنا، مستحيل! ظل زوجي مدة طويلة يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، لا أعرف على وجه الدقة ماذا قال لي، ولا أذكر بما أجبته... لا بد أنني اعترفت له أنني أحبك... لا أذكر الآن إلا أنه رشقني في نهاية الحديث بكلمة فظيعة ثم خرج. وسمعته يأمر بكدن الخيل... أنا على النافذة منذ ثلاث ساعات أرقب عودتك. إنك حيّ، ولا يمكن أن تموت!... بعد قليل تكون العربة مهيأة للرحيل. وداعاً، وداعاً!... لقد ضعت أنا، ولكن لا ضير... ليتني أستطيع على الأقل أن أتصور أنك ستظل تذكرني... لا أقول تحبني، لا، بل تذكرني، فحسب. وداعاً. ها هم قادمون... يجب أن أخفي رسالتي...

أنت لا تحب ماري، أليس كذلك؟ ولن تتزوجها؟ أليس كذلك؟ اسمع، قم بهذه التضحية من أجلي، أنا التي فقدت من أجلك كل شيء في هذه الحياة...».

طاش صوابي، وأصبحت كالمجنون. فاندفعت كالسهم إلى الخارج، ووثبت على حصاني الذي جيء به إلى صحن البيت منذ لحظة، وقذفت به في طريق بياتيجورسك على أقصى سرعة من العدو. كنت أستحث دابتي المتعبة بلا رحمة، فكانت تنخف وتزبد، وهي تنهب بي الأرض نهباً على الطريق الحجرية.

كانت الشمس قد اختبأت وراء سحابة سوداء على قمة الجبال. وكان الفج مظلماً رطباً. وكان بودكوموك يتواثب على الصخور في هدير بهيم رتيب. وكنت أعدو سريعاً، وأنا أختنق من نفاد الصبر. كنت كما تصورت أنني لن أجدها في بياتيجورسك، يدق قلبي كأنه مطرقة! آه، أريد أن أراها لحظة، لحظة واحدة، أن أودعها، أن أشد على يدها!... كنت أصلي، وألعن، وأبكي وأضحك... لا، لا شيء يمكن أن يعبر عما كنت أكابده من غم وخوف ويأس!... تصورت أنني ضيعتها إلى الأبد، فغدت فيرا أعز عندي من أي شيء في العالم!... غدت أعز من الحياة، من الشرف، من السعادة! الله يعلم ما هي النوايا الجهنمية، وما هي الأفكار الجنونية التي كانت تدور عندئذ في رأسي!... وفيما أنا أضرب حصاني بلا رحمة ولا شفقة، إذا بي ألاحظ أنه يتنفس بصعوبة. وكان قد كبا مرتين، مع أن الأرض التي كبا عليها كانت مستوية!... بقي أن أقطع خمسة فرستات حتى أصل إلى أسنتوكي، وهي قرية قوزاقية يمكنني فيها أن أبدل حصاني.

كان يمكن أن يتم كل شيء على ما أحب، لو استطاع حصاني أن يعدو مدة عشر دقائق أخرى. ولكنه ما لبث أن سقط فجأة على الأرض، بينما كان يصعد من واد صغير عند مخرج الجبال في منعطف حاد؛ فأفلت منه بسرعة، وأردت أن أساعده على النهوض بشد الأعنة، فلم يقو على النهوض. وخرجت من بين أسنانه المشدودة زفرة ضعيفة، وبعد بضع لحظات كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. كنت وحيداً، وسط السهوب، قد فقدت آخر آمالي. وأردت أن أمشي فترنحت ساقاي تحتي، فهويت على العشب

الرطب، وقد هدّتني انفعالات النهار وحطمني الأرق، وأخذت أجهش بالبكاء كطفل.

وبقيت على هذه الحال، ساكناً باكياً، مدة طويلة، حتى أنني لم أحاول أن أسيطر على دموعي وأن أحبس نحيبي؛ وخيل إليّ أن صدري سينفجر... لقد تبددت صلابتي ورباطة جأشي كالدخان... كانت نفسي خائرة لا قوة لها، وكان عقلي منطفئاً، فلو رآني أحد في تلك اللحظة لأشاح بوجهه عني في كثير من الاحتقار.

ولكن ندى الليل وريح الجبال ما لبثا أن رطَّبا رأسي المحترق، فعادت أفكاري إلى مجراها الطبيعي، ففهمت أن من العبث والطيش ورقة العقل أن أركض وراء سعادة ذاهبة. ما عساي أشتهي أيضاً؟ أن أراها مرة ثانية؟ ما جدوى ذلك؟ ألم ينته بيننا كل شيء؟ إن قبلة صغيرة في الوداع لن تغني ذكرياتي، ولن تجعل فراقنا أقل مرارة.

كان يلذ لي مع ذلك أن أرى أنني أستطيع البكاء. ولكن لعل هياج أعصابي، وأرقي طوال الليلة البارحة، وهاتين الدقيقتين اللتين وقفت خلالهما أمام مسدس مصوب إلى رأسي، وفراغ معدتي، لعل هذا كله هو السبب.

هيّا!... إن كل شيء يحدث لا بد أن يؤدي إلى الأفضل. كان هذا الألم الجديد، تلهية سعيدة، على لغة العسكريين، إن البكاء يفيد. ثم، أكان يمكن أن يعرف النوم إلى جفني سبيلاً، لولا هذه الجولة على صهوة الحصان، ولولا أنني قطعت في العودة مسافة خمسة عشر فرستاً سيراً على الأقدام.

وصلت إلى كيسلوفودسك في الساعة الخامسة من الصباح، فارتميت على سريري ونمت كما نام نابوليون بعد معركة واترلو.

حين استيقظت كان الظلام قد هبط، فجلست بالقرب من النافذة المفتوحة، وحللت أزرار الأرخالوك الذي أرتديه. فرطب هواء الجبل صدري الذي لم يهدئه النوم العميق بعد فرط الإعياء. ورأيت في الأفق البعيد، وراء النهر، من خلال ذرى أشجار الزيزفون الكثيفة التي تظلله، رأيت التماع أنوار القرية والقلعة. كان كل شيء في فنائنا ساكناً هادئاً. وكان الظلام في بيت الأميرة مطبقاً.

ودخل عليّ الدكتور. إنه متجهم الوجه، وعلى غير عادته، لم يمد إليّ يده.

ـ أين كنت يا دكتور؟

ـ في بيت الأميرة ليجوفسكايا. إن ابنتها مريضة: نوبة عصبية... ولكنني لم آت إليك لأبلغك هذا النبأ. إليك الموضوع: لقد أخذت السلطات تشتبه في الأمر، ورغم أنه يستحيل توافر الأدلة عليك، فأنا أنصحك بأن تكون على حذر. قالت لي الأميرة اليوم إنها تعلم أنكما تبارزتما من أجل ابنتها. إن ذلك العجوز ـ ما اسمه؟ ـ قصّ عليها كل شيء. لقد شهد مجادلتك مع جروشنيتسكي بالمطعم. جئت أنذرك بالأمر. وداعاً! قد لا نلتقي بعد الآن أبداً. من ذا الذي يعلم إلى أين يرسلونك؟

ووقف على عتبة الباب... كان يود أن يشدّ على يدي... ولو أنني أظهرت أي رغبة في ذلك، لوثب عليّ يعانقني... ولكنني ظللت بارداً ككتلة من المرمر... فانصرف.

كذلك هم البشر! إنهم جميعاً من طينة واحدة: يعرفون مقدماً كل الجوانب السيئة في عمل من الأعمال. يساعدونك، وينصحونك، وقد يشجعونك، إذا رأوا أنه يستحيل أن يفعلوا غير ذلك. ولكنهم بعدئذ يغسلون أيديهم من الأمر، وينصرفون، مستائين، عن الشخص الذي تجرأ أن يتحمل كل تبعته. نعم إنهم جميعاً من طينة واحدة، لا يشذ عن ذلك حتى أحسنهم، أذكاهم!...

وفي صباح الغد تلقيت من رؤسائي أمراً بأن أذهب إلى قلعة ن... فذهبت أودع الأميرة الأم. سألتني هل هناك أمر هام جداً أريد أن أفضي إليها به، ودُهشتْ أشد الدهشة حين اكتفيت بالإجابة بأنني أتمنى لها السعادة، إلى آخر ما هنالك. قالت:

ـ أما أنا فيجب أن أتحدث إليك في كثير من الجدّ.

فجلست صامتاً.

كان واضحاً أنها لا تعرف من أين تبدأ... وقد احمر وجهها، وأخذت تنقر المنضدة بأصابعها السمينة، وأخيراً حزمت أمرها، وقالت بصوت متردد:

ـ اسمع يا سيد بتشورين. أنا أعتقد أنك رجل شريف.

فانحنيت. وتابعت هي تقول:

ـ بل إنني لعلى يقين من ذلك، رغم أن سلوكك يمكن أن يثير شكوكاً. ولكن قد يكون لهذا السلوك دوافع أجهلها، ويجب أن تفضي إليّ الآن بهذه الدوافع. لقد ذببت عن ابنتي الافتراء، واقتتلت من أجلها، وعرّضت إذن حياتك للخطر في سبيلها... لا تجبني... أعرف أنك لا تستطيع الاعتراف، لأن جروشنيتسكي قُتل

(وهنا رسمت إشارة الصليب)... غفر الله له، ولك أيضاً. هذا لا يخصني. ولست أجرؤ على أن ألومك، لأن ابنتي كانت هي السبب، ولو ببراءة... لقد قصَّت عليّ كل شيء، نعم كل شيء، أو هذا ما أرجوه على الأقل. أعرف أنك صارحتها بحبك، وأنها صارحتك بحبها (وهنا زفرت الأميرة زفرة عميقة). ولكنها مريضة وأنا على يقين من أن الأمر ليس مرض فحسب. إن حزناً خفياً يقتلها. وأعتقد أنك أنت السبب، رغم أنها لم تعترف لي بذلك. اسمع. ربما تعتقد أنني أبحث عن الرُّتَب والثروة. أنت مخطىء. إنني لا أريد لابنتي غير السعادة. ليس مركزك، الآن، بالمركز الذي يُحسد عليه الإنسان كثيراً. ولكن كل شيء يمكن أن يدبر. أنت صاحب ثروة، وابنتي تحبك، ولقد نشأت تنشئة تجعلها أهلاً لإسعاد زوجها، وأنا غنية، وليس لي غيرها... تكلم أفض إليّ بما يجعلك تحجم. ما كان ينبغي أن أقول لك كل هذا. ولكنني أعتمد على قلبك، على شرفك. تذكر أنه ليس لي غير ابنتي، ليس لي غيرها...

وأخذت تبكي. قلت لها:

ـ أيتها الأميرة، لا أستطيع أن أجيبك، واسمحي لي بأن أتحدث إلى ابنتك على انفراد...

فصاحت وهي تنهض مضطربة أشد الاضطراب:

ـ مستحيل!

فأجبتها وأنا أنهض أيضاً:

ـ كما تريدين.

ففكرت لحظة، ثم أشارت إليّ بيدها أن أنتظر قليلاً، وخرجت.

انقضى على خروجها خمس دقائق. كان قلبي يخفق خفقاناً شديداً، ولكن فكري كان هادئاً، وكان رأسي بارداً، عبثاً حاولت أن أعثر في أعماق نفسي على ومضة من حب لماري الناعمة.

وفتح الباب فجأة، فإذا هي تدخل. رباه! لشد ما تغيرت منذ التقينا آخر مرة... والفترة وجيزة جداً.

فلما وصلت إلى وسط الغرفة، ترنحت، فسارعت أسندها بذراعي، وقدتها إلى المقعد.

كنت واقفاً أمامها. وساد الصمت برهة طويلة. كانت عيناها تفيضان بحزن لا يوصف وكأنهما تحاولان أن تبحثا في عيني عن بارقة من أمل. وكانت شفتاها الشاحبتان تحاولان عبثاً أن تبتسما. وكانت يداها الدقيقتان المتشابكتان على ركبتيها قد بلغتا من النحول والهزال حتى إن قلبي انقبض حين رأيتهما أشد الانقباض. قلت لها:

ـ أيتها الأميرة، هل تعرفين أنني كنت أعبث بك؟ عليك إذن أن تحتقريني.

فتصاعدت إلى خدّيها حمرة من مرض. واستمررت أقول:

ـ ولا يمكنك أن تحبيني...

فأشاحت بوجهها، وتوكأت على المنضدة، ووضعت يدها على عينيها اللتين تراءى لي أن فيهما دموعاً، وقالت بصوت يكاد يكون منطفئاً:

ـ يا رب!

لا يكاد يستطيع الإنسان أن يقاوم هذا المنظر، أوشكت أن أرتمي على قدميها، ولكنني تجلدت، واستأنفت أقول، بصوت

أردت أن يكون ثابتاً، مع ابتسامة حملت نفسي عليها حملاً:

ـ وهكذا ترين أنت نفسك أنني لا أستطيع أن أتزوجك. وإذا أنت رغبت في ذلك الآن، فلن تلبثي أن تندمي عليه أشد الندامة. إن الحديث الذي دار بيني وبين أمك، يضطرني إلى أن أخاطبك هكذا بصراحة وقسوة. آمل أن تكون أمك على خطأ، وسيسهل عليك أن تبددي وهمها. إنني أمثل في نظرك دوراً حقيراً، دوراً سافلاً، وإني لأعترف بذلك. وهذا كل ما أستطيع أن أفعله من أجلك. سأسلّم بكل ما قد ترينه فيّ من رأي. ها أنت ذي ترين كم كان سلوكي معك بشعاً كريهاً... وهبك أحببتني، فلا بد أن تحتقريني الآن.

فالتفتت إليّ، صفراء كقطعة من المرمر، وكانت عيناها وحدهما تلتمعان، وقالت:

ـ أكرهك...

فشكرت لها قولها، واستأذنتها بالانصراف، بعد أن حييتها في كثير من الاحترام.

وبعد ساعة من الزمن كانت عربة البريد تمضي بي بعيداً عن كيسلوفودسك. وعلى مسافة بضعة فرستات من إسنتوكي، رأيت جثة حصاني المقدام. كان سرجه قد انتزع من صهوته، أخذه قوزاقي من غير ريب؛ وعلى ظهره، في مكان السرج، حطّ غرابان. فأشحت بوجهي، وأنا أزفر زفرة حرّى...

والآن، في هذه القلعة التي أشعر فيها بالضجر والسأمة، وأستعرض صور الماضي وأتساءل في كثير من الأحيان لماذا رفضت أن أدخل في الطريق التي فتحها لي القدر والتي كان يمكن

أن أعرف فيها أفراحاً عذبة، وأن أجد فيها طمأنينة الروح؟... لا، لا، إنني لم أخلق لتلك الحياة! إني كملاح ولد وترعرع على ظهر مركب من مراكب القرصان... أَلِف العواصف والمعارك. فإذا أُلقي إلى الشاطىء، شعر بالضجر والسآمة، لا تغريه الواحات الظليلة ولا الشمس الساطعة. إنه يظل طوال النهار يضرب هنا وهناك على رمل الشاطىء. يصيخ بسمعه إلى خرير الأمواج الرتيب، ويغرق بصره في الآفاق البعيدة ذات الضباب الكثيف: تُرى ألن يلمح أخيراً، على الخط الشاحب الذي يفصل الهوة اللازوردية عن السحب الشهباء، الشراع الذي طالما اشتهاه، شبيهاً بجناح النورس البحري في أول الأمر، متخلصاً من الزبد شيئاً فشيئاً بعد ذلك، مقترباً من المرفأ المقفر ثابت السير؟...

3

الجبري

اتفق لي مرة أن قضيت أسبوعين في قرية قوزاقية في الجناح الأيسر. كانت ترابط هناك كتيبة من المشاة، وكان الضباط يجتمعون يوماً عند هذا ويوماً عند ذلك، ويقضون السهرة في لعب الورق.

وضقنا ذات يوم ذرعاً بالبوستوني، فرمينا بالورق تحت المنضدة، وبقينا نتحدث مدة طويلة جداً في بيت الضابط المقدم س... كان الحديث، على خلاف العادة من أمتع الأحاديث. كانوا يقولون إن العقيدة الإسلامية التي ترى أن قدر الإنسان قد كتب عليه في اللوح المحفوظ، تجد بيننا نحن المسيحيين كثيراً من الأنصار... وأخذ كل واحد يقص حالات عجيبة، في تأييد هذه العقيدة أو في إنكارها... قال المقدم العجوز:

ـ كل هذا، أيها السادة، لا يبرهن على أي شيء... إذ ما من واحد منكم شهد الحالات الغريبة التي يسوقها في تأييد رأيه... أليس كذلك؟

فقال معظمهم:

ـ نعم لم نشهدها، ولكن الذين قصوها علينا ثقات يُطمأن إلى صدقهم.

فقال أحدهم:

ـ هذا كلام فارغ. أين هم أولئك الثقات الذين رأوا اللوح

المحفوظ الذي كتب عليه أجَلنا؟... وإذا صح أن الإنسان مسيّر لا مخيّر، فلماذا أوتينا إرادة وعقلاً؟ ولماذا نُسأل عن أفعالنا؟

عندئذ نهض ضابط كان جالساً في ركن من الغرفة، وتقدم ببطء نحو المنضدة، وألقى حوله نظرة هادئة فخمة في آن واحد. إنه صربي، كما يدل على ذلك اسمه.

كان مظهر الملازم الأول فولتش منسجماً مع طبعه. إن قامته الفارغة، ووجهه الأسمر، وشعره الأسود، ثم إن عينيه النافذتين والسوداوين أيضاً، وأنفه الكبير على استقامة، كأنوف سائر أبناء قومه، وابتسامته الحزينة الباردة التي تطوف على شفتيه دائماً، إن ذلك كله كان يسهم في أن يسبغ عليه طابع إنسان غريب فريد، عاجز عن نقل أفكاره وأهوائه إلى هؤلاء الذين جعلهم القدر رفاقه.

كان شهماً، يتكلم قليلاً، ولكنه إذا تكلم فبلهجة قاطعة جازمة. وكان لا يفضي إلى أحد بأسرار أسرته، ولا بأسرار نفسه. وكان لا يكاد يشرب خمراً، وكان لا يتودد إلى الفتيات القوزاقيات (اللواتي يصعب على المرء أن يتصور ما لهن من فتنة ما لم يَرَهنّ) ولا يغازلهن. ومع ذلك فكان يقال إن زوجة الكولونيل لم تكن غير مبالية بعينيه اللتين تفيضان بالتعبير، ولكنه كان يستاء إذا أومأ أحد إلى ذلك، بل كان يستاء من هذا شديداً.

والهوى الوحيد الذي كان لا يخفيه، هو ميله إلى اللعب. كان ينسى أمام المائدة الخضراء كل شيء. وكان في معظم الأحوال يخسر ولا يربح. ولكن خسارته المستمرة كانت لا تزيده إلا عناداً. ويُروى أنه ذات ليلة، إبان حملة من الحملات، كان هو الخازن، وكان يواتيه الحظ مواتاة عجيبة، وهو متكىء على مخدته، فإذا

بصوت رصاص يلعلع على حين غرة، فأطلقت إشارة الخطر. وهب جميع اللاعبين، يتناولون أسلحتهم. ولكن فولتش صاح بواحد من أشدهم حماسة يقول: «كل المبلغ». فأجابه هذا وهو يخرج مسرعاً، «سبعة». فأخذ فولتش يكمل اللعب، بينما الناس في هذا الاضطراب الشامل.

حتى إذا ظهر أخيراً في الجبهة، كانت قد احتدمت المعركة، ولكن فولتش لم يحفل لا برصاص التشتشينيين ولا بأسيافهم، بل كان يبحث عن منافسه المحظوظ، حتى إذا لمحه بين الرماة الذين أخذوا يجلون العدو عن غابة من الغابات، صاح به يقول:

ـ السبعة ربحت!

ثم اقترب منه، وأخرج المال، ومدّه إلى الرابح السعيد، وعبثاً احتجَّ هذا بأن المكان ليس مكان سداد الديون. فلما فرغ من القيام بهذا الواجب الذي لا يسرّ كثيراً اندفع إلى أمام، فاقتدى به الجنود، وظل إلى نهاية المعركة يحارب التشتشينيين في رباطة جأش عظيمة.

حين اقترب الملازم الأول فولتش من المنضدة، صمت جميع الناس، وتوقعوا أن يسمعوا شيئاً عجيباً. قال (وكان صوته هادئاً، وأخفض نبرة مما عُهد فيه):

ـ أيها السادة، هذه مناقشات عقيمة، هل أدلكم على حجج تقنع؟ إذن جربوا على أنفسكم، لتعرفوا هل يصرف الإنسان حياته على ما يشاء، أم أنه إذا جاء أجَلَه لا يستقدم ساعة ولا يستأخر؟ من يريد أن يجرب؟

فتعالى الصياح من كل صوب يقول:

ـ لست أنا، لست أنا، على كل حال! ما هذه الفكرة الغريبة؟!

فقلت على سبيل المزاح:

ـ أقترح أن نتراهن!

ـ على ماذا؟

ـ على أنه لا قَدَر هناك!

قلت ذلك، وألقيت على المنضدة بمائتي روبل وهي كل ما أملك.

فأجاب فولتش بصوت أصم يقول:

ـ قبلت. سيدي المقدم، أنت الحكم. هذه مائة وخمسون روبلاً اسمح لي أن أضم إليها الخمسين روبلاً التي تدين بها لي.

فقال المقدم:

ـ هذا حسن. ولكنني لم أفهم ما هو الموضوع، ولا كيف ستحسمون المشكلة.

وهنا ذهب فولتش إلى مخدع المقدم، دون أن يقول كلمة واحدة. فتبعناه، وتقدم من الجدار الذي علق عليه السلاح، فانتزع منه أحد المسدسات على غير اختيار. لم نفهم ماذا يريد أن يعمل، ولكنه أزاح الزناد، وسكب في المسدس باروداً. صاح به كثير منا، وأمسكوا بذراعيه، يقولون:

ـ ماذا تريد أن تعمل؟ هذا جنون!...

فأجاب يقول ببطء، وهو يسحب ذراعيه:

ـ أيها السادة، من منكم يدفع عني عشرين روبلاً؟

فصمتوا جميعاً وتراجعوا.

فعاد إلى الغرفة الأولى، وجلس إلى المنضدة.

كانوا جميعاً يتبعونه. فدعانا إلى الجلوس، فأطعناه جميعاً صامتين: لقد سيطر علينا في هذه اللحظة سيطرة خفية. كنت أحدق في عينيه. ولكنه قابل نظرتي المتفرسة بهدوء وسكون، وابتسمت شفتاه الشاحبتان. على أنني، رغم رباطة جأشه، لاح لي في وجهه الأصفر كالشمع، طيف الموت. لقد لاحظت أن الإنسان كثيراً ما يرى طابع الموت في وجه شخص سيموت بعد بضع ساعات، وقد أكد لي ذلك أكثر من واحد من العسكريين الشيوخ... إن الوجه يكتسي عندئذ خاتم قَدَرٍ لا مفرَّ منه، وقلما تخطىء العيون البصيرة في تقدير هذا.

قلت له:

ـ ستموت اليوم!

فالتفت إليّ بسرعة، ولكنه أجابني بهدوء وبطء:

ـ ربما أموت، وربما لا أموت...

ثم سأل المقدم:

ـ هل هذا المسدس مشحون؟

ولكن المقدم من فرط اضطرابه، لم يتذكر...

وصاح أحدهم:

ـ كفى يا فولتش، كفى. لا بد أنه مشحون ما دام عُلِّق فوق السرير. يا لهذه الطريقة العجيبة في المزاح!

وأضاف آخر:

ـ إنه مزاح غبي!

وصاح ثالث:

ـ أراهن على خمسين روبلاً مقابل خمسة، إن هذا المسدس ليس مشحوناً!

وتكاثرت الرهانات. وأضجرني هذا الاحتفال كله، فقلت لفولتش:

ـ اسمع، إما أن تحطم رأسك، وإما أن تضع المسدس جانباً، فنمضي ننام.

فصاحت أصوات كثيرة تقول:

ـ نعم، هو ذلك سنمضي إلى النوم.

ـ أيها السادة، أرجوكم أن لا تتحركوا!

ـ قال فولتش هذا، ووضع فوهة المسدس على صدغه.

فجمدوا جميعاً. وأضاف يقول:

ـ سيد بتشورين: خذ ورقة من أوراق اللعب، وارمها في الهواء.

فتناولت من على المنضدة ـ ما أزال أذكر هذا كأنه يقع الآن ـ ورقة آس كوبة، وقذفت بها في الهواء. تقطعت أنفاس الجميع، كانت نظراتهم التي تعبِّر عن الخوف والاستطلاع في آن واحد، تنتقل سريعة بين المسدس والورقة. وكانت الورقة تهبط وهي ترتعش. حتى إذا لامست المنضدة شد فولتش زناد المسدس... لم تخرج الطلقة!...

فصاحوا يقولون:

ـ الحمد لله! على أن المسدس لم يكن مشحوناً...

فقال فولتش:

ـ لننظر.

حرَّك الزناد، ثم صوَّب إلى قبعة كانت متدلية فوق النافذة، فإذا بصوت الطلقة يدوّي، وإذا بالدخان يملأ الغرفة، حتى إذا تبدد الدخان نظرنا إلى القبعة فإذا بالرصاصة قد ثقبتها في وسطها تماماً، ثم خرجت منها فنفذت في الحائط نفاذاً عميقاً.

وانقضت ثلاث دقائق، دون أن ينبس أحد بكلمة. وتناول فولتش روبلاتي المائتين فدسها في محفظته بهدوء.

واحتدمت المناقشة بعد ذلك: لماذا لم تخرج الطلقة في المرة الأولى؟ قال بعضهم: إن الحويض كان مسدوداً، وقال آخرون بصوت خافت: بل لقد كان البارود في أول الأمر رطباً، ثم وضع فولتش بارودأ جديداً. فأكدت أن هذا الافتراض الأخير باطل، لأنني لم أحوّل بصري عن المسدس لحظة واحدة. وقلت لفولتش:

ـ أنت محظوظ في اللعب!

قال وهو يبتسم ابتسامة الرضى:

ـ لأول مرة في حياتي... هذا خير من لعب جميع أنواع البكارا وغيرها...

قلت:

ـ ولكنه أخطر منها قليلاً.

قال:

ـ هل بدأت تؤمن بالقدر؟

ـ نعم، ولكنني أتساءل لماذا لاح لي أنك ميت اليوم لا محالة.

وفي هذه اللحظة رأيت هذا الرجل الذي كان منذ قليل يضع فوهة المسدس على صدغه هادئاً، يحمر فجأة ويضطرب.

قال وهو ينهض:

ـ كفى! لقد انتهى الرهان. وملاحظاتكم تبدو لي الآن في غير محلها...

وتناول قبعته وخرج. لقد بدا لي ذلك غريباً، ولا عجب!...

وسرعان ما افترقنا؟؛ فذهب كل منا إلى بيته، ويؤوِّل نزوات فولتش على طريقته؛ ولعلهم اتهموني جميعاً بالأنانية، لأنني راهنت شخصاً همّ أن يقتل نفسه... كأنه لا يستطيع أن يجد، بدوني، فرصة مناسبة.

كنت عائداً إلى بيتي أمرّ بطرقات القرية الخالية من الناس، وكان القمر بدراً متوقداً قد أخذ يطلع في الأفق بنور كأنه نور حريق؛ وكانت النجوم تتألق هادئة في القبة الزرقاء الضاربة إلى سواد. لم أستطع أن أحبس نفسي عن الابتسام حين تذكرت أن قدماء الحكماء كانوا يتصورون أن الكواكب تهتم بخصومات البشر التافهة على قطعة من الأرض أو على حقوق موهومة. إن هذه المصابيح التي كانوا يظنون أنها إنما تشتعل لتنير ما يدور بينهم من خصومات، وما يحققونه من ألوان النصر ما تزال مع ذلك تضيء ببريق لم يتغير، مع أن آمالهم، وأهواءهم قد انطفأت معهم، كنار أوقدها عند طرف الغابة مسافر من المسافرين عابر لا يبالي! ولكن ما كان أقوى تلك العزيمة التي يمدهم بها ذلك الاعتقاد بأن السماء كلها ومن فيها من سكان لا يحصى عددهم تنظر إليهم في اهتمام أخرس ولكنه لا يحول ولا يزول. في حين أننا نحن، نحن أعقابهم الذين نستحق الشفقة والرثاء، الذين نضرب في الأرض بلا عقيدة ولا كبرياء، بلا لذة ولا خوف، إلا الذعر الذي يقبض صدورنا ولا

نستطيع له دفعاً، حين نتصور أننا صائرون إلى الموت لا محالة، أما نحن هؤلاء فقد أصبحنا عاجزين عن أن نقدم أية تضحية كبيرة، لا في سبيل خير الإنسانية، ولا في سبيل سعادتنا ذاتها، لأننا نعرف أن السعادة مستحيلة، وما ننفك ننتقل من شك إلى شك لا نلوي على شيء، كما كان أسلافنا ينتقلون من وهم إلى وهم؛ إننا لا نملك ما كانوا يملكون من رجاء، ولا ما كانوا يحسونه من فرح لا يمكن تعريفه، ولكنه فرح قوي تشعر به النفس حين تناضل ضد البشر أو ضد القدر...

وراودتني أفكار أخرى من هذا القبيل. ولكنني لم أتلبث عليها، لأنني لا أحب أن أثقل على نفسي بفكرة مجردة؛ وما عسى أن ينتج هذا كله؟ كنت في حداثتي فتى حالماً، أحب أن أداعب الصور الجهمة أو الضاحكة التي يرسمها خيالي القلق الشره، كنت أداعب هذه الصور واحدة بعد أخرى، ولكن ماذا بقي لي من هذا كله؟ لا شيء إلا تعب يشبه التعب الذي يعقب معركة مع شبح وإلا ذكرى مشوَّشة تفيض بالحسرات. لقد أفنيت في ذلك الصراع العقيم، حرارة الروح وثبات الإرادة، وكلاهما ضروري جداً لحياة الفعل والنشاط. وحين دخلت هذه الحياة التي سبق أن عشتها بالفكر، شعرت بالضجر، وشعرت بما يشعر به من اشمئزاز شخص يقرأ تقليداً سيئاً لكتاب يعرفه منذ مدة طويلة.

لقد تركت في نفسي حادثة هذه الليلة أثراً قوياً، وأهاجت أعصابي. لست أدري هل أؤمن اليوم بالقدر. ولكنني آمنت به في ذلك المساء إيماناً قوياً، إذ كان البرهان عليه برهاناً دامغاً. كنت وأنا أسخر من أسلافنا ومن تنجيمهم المضحك، أسير على غير

إرادة مني في أثرهم. ولكنني توقفت في هذه الطريق الخطرة في اللحظة المناسبة، إذ لما كان من مبدئي أن لا أجحد شيئاً من الأشياء جحوداً مطلقاً ولا أن أؤمن بشيء من الأشياء إيماناً أعمى، فقد تركت الميتافيزيقا جانباً، ونظرت بين قدمَيْ. وجاء هذا الاحتراس في حينه تماماً، إذ إنني أوشكت أن أقع على الأرض مصطدماً بشيء ضخم رخو، ولكن لا حياة فيه. فانحنيت أنظر ما هذا، وكان القمر يضيء الطريق، فإذا أنا أرى خنزيراً أليفاً قد شطر شطرين بضربة من سيف... وما كدت أعرف هذا حتى سمعت وقع خطوات، ورأيت قوزاقيين يخرجان من زقاق آخر، فيقبل أحدهما نحوي ويسألني هل رأيت قوزاقياً سكران يلاحق خنزيراً، فقلت إنني لم أصادف قوزاقياً، ولكنني أشرت إلى الضحية الشقية التي ذهبت بها شجاعته.

قال الآخر:

ـ هذا اللص! إنه متى شرب خمراً، ضرب بسيفه كل ما يصادف. هيا بنا سريعاً يا بيرميئتش، يجب أن نقبض عليه، يجب أن نقيده، وإلا...

وابتعدا، فتابعت سيري بمزيد من الحذر. ووصلت أخيراً إلى منزلي من دون أن يقع لي حادث آخر.

كنت أسكن في بيت عجوز برتبة وكيل ضابط، وكنت أحب العجوز لرقة حاشيته، ولجمال ابنته الحسناء ناستيا، بوجه خاص.

وجدتها، على عادتها، تنتظرني على باب الحديقة، متدثرة بردائها المبطَّن بالفرو. وكان القمر يضيء شفتيها الصغيرتين الشهيتين اللتين ازرقتا قليلاً من البرد. فلما رأتني ابتسمت، ولكنني لم أحفل بها كثيراً في تلك اللحظة.

فقلت لها، وأنا أمر بالقرب منها:

- ليلتك سعيدة يا ناستيا.

وأرادت أن تجيب، ولكنها لم تزد على أن تنهدت.

وأغلقت باب غرفتي ورائي، وأشعلت شمعة، ثم ارتميت على سريري... وانتظرت النوم في هذه المرة أكثر مما كنت أنتظره في كل مرة. وحين غفوت كان المشرق قد أخذ يبيض، ولكن لا شك أنه كتب عليّ ألاّ أنام في تلك الليلة، ففي الساعة الرابعة من الصباح طرقت نافذتي ضربات قوية من قبضتين، فنهضت فوراً أتساءل ماذا هنالك؟

- انهض، اِلبس ثيابك!

فدسست ثيابي بسرعة وخرجت.

فبادرني ثلاثة من الضباط يسألونني بصوت واحد، وقد امتقعت وجوههم حتى لكأنهم مَوْتَى:

- هل تدري ماذا وقع؟

- ماذا؟

- قُتل فولتش.

فلم أكد أصدق ما أسمع. وأردفوا يقولون:

- نعم، قُتل! تعال أسرع.

- ولكن إلى أين نذهب؟

- ستعرف ذلك أثناء الطريق.

ومضينا. فقصوا عليّ كل شيء، ولم ينسوا أن يشيروا إلى ذلك النذر الذي أنقذه من موت مُحقّق، قبل موته بنصف ساعة. كان فولتش يسير وحده في الشوارع المظلمة. فالتقى بالقوزاقي

السكران الذي شطر الخنزير شطرين، والذي كان يمكن أن يمر دون أن ينتبه إلى فولتش، لو لا أن فولتش توقف فجأة وسأله:

ـ «عمن تبحث يا صاحبي؟» فأجابه القوزاقي، وهو يضربه بسيفه ويشطره شطرين من الكتف إلى ناحية القلب، قائلاً: «**عنك!**».

وفي غضون ذلك وصل القوزاقيان اللذان صادفاني وكانا يلاحقان القاتل، فحملا الجريح، ولكنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولم يستطع أن يقول إلا هذه الكلمات: «كان على حق!» لقد فهمت وحدي هذا المعنى الغامض الذي تشتمل عليه هذه الكلمات: كانت تعنيني أنا. فلقد تنبأت للمسكين بمصيره، من غير أن أريد أذلك. لم تخدعني غريزتي. إن ما قرأته في وجهه كان حقاً نذير موت قريب.

كان القاتل قد اعتصم ببيتٍ خالٍ عند طرف القرية. وإلى هناك ذهبنا. رأينا نساء كثيرات يسرعن الخطى إلى تلك الجهة، وهن يتأوهن ويصدرن أنات. من حين إلى آخر، يندفع في الشارع قوزاقي متخلف عنا يضع خنجره في حزامه بسرعة، ويتقدمنا راكضاً. لقد بلغ الاضطراب أقصاه.

ووصلنا أخيراً. كان حول البيت جمهور كبير، وكانت الأبواب والنوافذ موصدة من الداخل. وكان الضباط والقوزاق يتناقشون ويتجادلون بعنف، وكانت النساء يصدرن أنات، ويتأوهن، وينتحبن. ورأيت بينهن وجهاً خطف بصري خاصة، هو وجه امرأة عجوز تعبر عن أشد اليأس وأعمقه. كانت جالسة على خشبة كبيرة، وقد وضعت كوعيها على ركبتيها، وأسندت رأسها إلى يديها. إنها

أم القاتل. وكانت شفتاها تتحركان من حين إلى حين... تُرى أهي ترفع الدعوات أم تستنزل اللعنات؟

كان لا بد من أن نقرر الشروع في عمل للقبض على القاتل. ولكن لم يجسر أحد أن يندفع أول المندفعين.

فاقتربت من النافذة، ونظرت من شِقّ مصراعها. كان الرجل متمدداً على الأرض، شديد الشحوب. وكان يمسك بيده اليمنى مسدساً. وكان سيفه الدامي يرقد على مقربة منه. كان يدير عينيه على نحو مرعب. وكان في بعض اللحظات يرتعش، ويمسك رأسه بيديه، كأنه يتذكر ما وقع تذكراً غامضاً. ولم أقرأ في هذه النظرة القلقة معنى من معاني العزم القوي، فقلت للمقدم: إنه من الخطأ أن لا يأمر إلى القوزاق باقتحام الباب والإسراع إلى الداخل، فلأن يفعل ذلك الآن خير من أن يفعله حين يعود إلى الرجل كامل وعيه.

وفي هذه اللحظة، تقدم من الباب إيصاول[34] عجوز، ونادى الرجل باسمه، فأجابه الآخر، فاستمر يقول:

ـ يا ييفيميتش، يا صديقي، لقد أخطأت، ولا مهرب الآن، سلم نفسك!

فأجابه القوزاقي:

ـ لن أستسلم!

ـ اخش ربك! لست تشتشينياً، لست كافراً... أنت مسيحي. لقد أثمت. ماذا تريد؟ إن الإنسان لا يستطيع أن يتحاشى ما كتب عليه!

فكر القوزاقي يقول بلهجة متوعدة:

ـ لن أستسلم!

وسمعت قرقعة زناد المسدس يفتح.

فقال الإيصاول، متجهاً إلى المرأة العجوز:

ـ أنت يا أمه. كلميه قليلاً، فلعله يطيعك... إن لم يسلم فسيغضب الله. فكري قليلاً. إن هؤلاء السادة ينتظرون هنا منذ ساعتين.

فحدقت إليه طويلاً، وهزّت رأسها.

فاقترب الإيصاول من المقدم، وقال له:

ـ يا فاسيلي بتروفيتش، لن يسلم نفسه، إنني أعرفه. هيّا بنا. ولكن إذا اقتحمنا الباب، فسيسقط قتلى. أليس من الأفضل أن نقتله بطلقة بندقية؟ إن في النافذة شقاً واسعاً.

عندئذ خطرت ببالي فكرة غريبة: أردت كفولتش أن أجرب قدري. فقلت للمقدم:

ـ انتظروا، سآتيكم به حياً.

ثم أمرت الإيصاول أن يشغله بالحديث، وأمرت ثلاثة من القوزاق أن يستعدوا لأن يقتحموا الباب وأن يهبّوا إلى مساعدتي عند الإشارة المتفق عليها، ودرت حول البيت، حتى وصلت إلى النافذة المعينة. إن قلبي ليخفق خفقاناً شديداً.

كان الإيصاول يصيح به:

ـ انتظر قليلاً أيها الكافر! أتعبث بنا؟ أم تظن أننا لا نستطيع أن نتغلب عليك؟

وأخذ يضرب الباب بكل ما أوتي من قوة. وضعت عيني على شق النافذة، وأخذت أرقب حركات القاتل الذي كان لا يتوقع أن يُهاجَم من هذه الجهة. ثم خلعت المصراع على حين غرة ووثبت

من النافذة، ورأسي إلى الأمام. فانفجرت طلقة تحت أذني، فاقتلعت الرصاصة الشارة التي على كتفي. ولكن الدخان الذي ملأ الغرفة، حال بين خصمي وبين العثور على سيفه الذي كان يرقد على مقربة منه. فأمسكت بيديه، ودخل القوزاق، وبعد دقائق ثلاث، كان مكبلاً يُقاد تحت حراسة مشددة. وتفرق الجمهور، وهنأني الضباط؛ حقاً لقد كنت أستحق التهنئة.

كيف لا أصبح بعد هذا جبرياً أؤمن بالقدر؟ ولكن هل يمكن أن يكون المرء على يقين من أنه مؤمن بأي شيء من الأشياء؟... كم مرة آمنا بأمور هي خطأ من أخطاء الحواس، أو ضلال من ضلالات العقل؟!... أحب أن أشك في كل شيء. وهذا لا يمنع المرء من أن يكون ذا طبع حازم، بالعكس. إنني حين أجهل ما ينتظرني، أُقدِم على الفعل دوماً بجسارة أكبر. إذ لا يمكن أن يقع لي ما هو شر من الموت، والموت لا بد منه في يوم من الأيام.

حين عدت إلى القلعة قصصت على مكسيم مكسيمتش كل ما وقع لي، وكل ما شهدته، وكنت أريد أن أعرف رأيه في المقدّر، فلم يفهم هذه الكلمة، فشرحت له معناها ما وسعني الشرح، فقال لي وهو يهز رأسه في كثير من الجد والوقار:

ـ هيه... هذا أمر معقد جداً!... على أن هذه الأسلحة التي يستعملها الآسيويون كثيراً ما لا تخرج طلقاتها، إذا لم تُشَحَّم تشحيماً كافياً، أو إذا لم يشد المرء الزناد بقوة كافية. وأعترف أنني لا أحب البندقيات الشركسية، فهذه الأسلحة لم تخلق لنا. إن قنداقها صغير جداً، حتى إن أحدنا يكون معرضاً دائماً لأن يحرق أنفه حين استعمالها... أما سيوفهم، فحدث عنها ولا حرج!

ثم أضاف بعد بضع لحظات من التفكير:

ـ نعم، إنني أرثي لذلك المسكين... ولكن لماذا التحدث مع سكران في ظلام الليل البهيم؟ لا بد من الاعتقاد أن هذا كله قد كتب له!...

ذلكم كل ما استطعت أن أسمعه من الرئيس: إنه لا يحب المناقشات الميتافيزيقية.

النهاية

1838 ـ 1839

كلمة ختامية

رواية ليرمونتوف «بطل من هذا الزمان»

بقلم إراكلي أندرونيكوف

في مايو (أيار) 1840 ظهرت في المكتبات وأكشاك الكتب بمدينة بطرسبورغ رواية «بطل من هذا الزمان» لمؤلفها الشاعر ميخائيل ليرمونتوف البالغ من العمر آنذاك خمسة وعشرين عاماً والذي جلبت له أشعاره الرائعة شهرة واسعة.

حظي الكتاب الجديد برواج سريع للغاية. فقد كان الجميع راغبين في التعرف على الشخص الذي نعته الكاتب ببطل زمانه. إن الأبطال يُحتذى بهم ويعتبرون قدوة للآخرين... ولذا أثار عنوان الرواية اهتماماً هائلاً.

والكتاب عبارة عن رواية فريدة من حيث الشكل: فهو يتكون من خمس قصص. نشرت ثلاث منها قبل ذلك في المجلة التقدمية «أوتيتشستفينيه زابيسكي». ولكن القراء الذين طالعوها على حدة لم يخمنوا أنها، إذا أخذت معاً، تشكل وحدة متكاملة. فالبطل الرئيسي في القصص الثلاث هو شخصية واحدة، إنه الضابط بتشورين الذي أُرسِل قسراً إلى الجيش القفقاسي.

وقد وزعت فصول الرواية: «بيلا» و«مكسيم مكسيمتش» و«تامان» و«الأميرة ماري» و«الجبري» ليس حسب التسلسل الزمني.

فالأحداث التي يعرضها ليرمونتوف في القسم الثاني تسبق أحداث القسم الأول. وإذا رتبنا القصص حسب أطوار حياة البطل نحصل على اللوحة التالية: 1) يتوقف بتشورين في تامان («تامان») وهو في طريقه إلى مكان خدمته في القفقاس. 2) بعد المساهمة في حملة حربية يتوجه بتشورين للاصطياف حيث يعيش في بياتيجورسك وكيسلوفودسك فيقتل جروشنيتسكي في مبارزة («الأميرة ماري»). 3) بسبب هذه المبارزة يُنقل بتشورين إلى قلعة في الجناح الأيسر «لخط القفقاس» تحت إشراف الضابط العجوز مكسيم مكسيمتش («بيلا»). 4) يغادر بتشورين القلعة لمدة أسبوعين إلى قرية قوزاقية حيث يتراهن مع فولتش («الجبري»). 5) بعد خمس سنوات يتقابل بتشورين مع مكسيم مكسيمتش في فلاديقفقاس في طريقه إلى بلاد فارس («مكسيم مكسيمتش»). 6) في طريق العودة من بلاد فارس يقضي بتشورين نحبه (مقدمة «يوميات بتشورين»).

لقد تخلى ليرمونتوف عن توزيع القصص على هذا النحو، فصوَّر بتشورين في البداية كما يراه شخص من فئة اجتماعية مغايرة له تماماً، ونعني الضابط العجوز المتواضع مكسيم مكسيمتش. وفي القصة التالية يراقب مؤلف المذكرات نفسه سلوك بتشورين. ثم يعرِّف القارىء بنبأ وفاة بتشورين، وفي الأخير يطلع على يوميات بتشورين. وعلى هذا النحو تتكشف طباع البطل المتناقضة المتعددة الجوانب.

إن بتشورين شخص ذكي حاد الملاحظة ويتحلى بمستوى ثقافي رفيع. وهو فتى وسيم ثري. ولكنه يعيش حياته بلا هدف ولا أمنيات. إنه لم يذق طعم السعادة لا في الحب ولا في الصداقة.

وقد قضى أفضل سنوات العمر في الجمود والكسل. وتتلاشى بلا جدوى تلك القوى الثرة التي يتحسسها في دخيلته. وتظل أحلامه بالمآثر العظمى أحلاماً لا غير. إنه وحيد تعيس لا يحمل للناس الذين يرتبط بهم مصيره غير الهلاك والآلام.

فأي مرض جعل بتشورين يشيخ منذ الفتوة؟ لَمَ لم يحقق المآثر العظمى التي كان يطمح إليها؟ لَمَ تفنى عبثاً تلك القوى الجبارة الكامنة فيه؟ لَمَ يذوي في الخمول ويشيخ دون نضال؟

سبب ذلك يكمن في أنه لم ير الهدف ولم يتحسس النضال في إمبراطورية نيقولاي الأول، في أقسى سنوات الرجعية. فإن يوم نضوجه قد أعلنت حلوله ـ على حد تعبير الكاتب الثوري الروسي الرائع ألكسندر هيرتسين ـ أصوات الناقوس الذي أذاع في روسيا نبأ إعدام المناضل الديسمبري بيستل ورفاقه، وعن تتويج الإمبراطور نيقولاي الأول. ففي يوم من ديسمبر (كانون الأول) 1825 قمعت في ساحة السينات في بطرسبرغ الانتفاضة التي تزعمها النبلاء الثوريون الوطنيون الروس.

في ذلك اليوم تقوَّضت آمال جيل كامل من الشباب الأحرار. كان أتراب بتشورين لا يزالون شباناً يافعين جداً غير قادرين على المساهمة في المؤامرة. أما خلال السنوات العشر التالية «فلم يصبحوا شيوخاً ـ على حد تعبير هيرتسين ـ ولكنهم فقدوا إرادتهم وتخلفوا وسط مجتمع جبان مزر ذليل خال من الاهتمامات الحية».

كان بتشورين في زمن ما يتألم عندما يفكر بالعبودية الشائنة لملايين الناس. وعلى مر السنين دفن في أعماق فؤاده أفضل مشاعره وأسماها وتعلم مواجهة الآلام بلا مبالاة. كان في البداية

يشتاط غضباً لعجزه الشخصي، ولكنه فيما بعد عوَّد نفسه بالتدريج على عدم الإيمان بشيء وعدم الأمل بشيء. وهكذا تحول، على حد تعبيره هو، إلى كسيح أخلاقياً. وهذا الكسيح أخلاقياً هو الذي نعته ليرمونتوف ببطل زمانه.

ويتساءل القارىء: ـ «أي بطل هذا؟ إنه سخرية مُرَّة!».

أما ليرمونتوف فقد أجاب على ذلك في مقدمة روايته: «... إن «بطل من هذا الزمان» لهو صورة حقاً، ولكنه ليس صورة رجل واحد. إنه صورة تضم رذائل جيلنا كله...».

لقد أدرك القارىء أن بتشورين، بطل الجيل الذي ترعرع في عهد القيصر نيقولاي الأول، غير مذنب في تصرفاته. فالشر كامن ليس فيه ولا في طباعه وخصاله، بل في ظروف نظام القنانة، في الحكم القيصري المطلق. لقد كشف ليرمونتوف عن «قصة روح» بتشورين باعتبارها ظاهرة العصر. فكتاب «بطل من هذا الزمان» هو رواية سيكولوجية واجتماعية في آن واحد.

كان صدور رواية «بطل من هذا الزمان» قد وافق نقمة قيصرية جديدة على مؤلفها. فقد نُفِيَ الشاعر للمرة الثانية إلى القفقاس، حيث كانت دائرة رحى حرب دموية طويلة الأمد. (وكان قد نُفِيَ للمرة الأولى عام 1837 بسبب قصيدته «مقتل الشاعر» المكرسة لبوشكين). لقد ثارت نقمة القيصر نيقولاي الأول والمقربين إليه على ليرمونتوف بسبب استقلاليته واحتقاره للوجهاء الأرستقراطيين وبسبب الجو السائد في مؤلفاته المفعمة بحماسة النضال والحرية والتي انهالت ببسالة غاضبة على عيوب مجتمعه. وفي مستهل عام 1840 تمكن أعداء ليرمونتوف من تدبير مبارزة شارك فيها الشاعر

فحكمت عليه المحكمة بالنفي. ولم يكن مُقدَّراً لليرمونتوف أن يعود من المنفى. فقد قتل في مبارزة يوم 27 يوليو (تموز) 1841 دون أن يناهز السابعة والعشرين من العمر.

وردّاً على محاولات الحط من سمعة ليرمونتوف وروايته كتب الناقد الديمقراطي العظيم فيساريون بيلينسكي عن بتشورين يقول: يمكن للأخلاقيين المتزمتين أن يجأروا بأنه «شخص أناني شرير وحشي لا أخلاقي!...» الحق معكم أيها السادة. ولكن ما الذي يدفعكم إلى ذلك؟ ولمَ تشتاطون غضباً؟ إنكم تلعنونه ليس بسبب عيوبه - فلديكم أكثر منها، وعيوبكم أكثر سواداً وعاراً - بل بسبب تلك الطلاقة الباسلة وتلك الصراحة الساخرة التي يتحدث بها عنها...» لقد تقبل النقاد الديمقراطيون الثوريون الروس رواية ليرمونتوف باعتبارها مظهراً جليلاً للفكر الحر، كما اعتبروا صورة بتشورين تجسيداً لظاهرة اجتماعية منتشرة، وتشخيصاً لعيوب جيل كامل.

كان بتشورين الذي دَشَّنَ حياته بعد انتفاضة الديسمبريين قد قضى نحبه قبل أن يظهر على مسرح التاريخ الجيل التالي من الثوريين الروس - الديمقراطيين الثوريين. إن بتشورين بطل لعصر وسيط. وهذا ما أكده بيلينسكي عندما أشار إلى الحالة النفسية الانتقالية للبطل، تلك الحالة «التي تحطم فيها كل قديم بالنسبة للإنسان، بينما الجديد لم يظهر بعد، والتي يصبح الإنسان فيها مجرد إمكانية لشيء فعلي في المستقبل، ومجرد شبح صرف في الحاضر».

كان بتشورين يسعى إلى الحرية الشخصية ويفهمها على أنها

بتر لكل ما يربطه بالمجتمع الراقي البغيض له، وعلى أنها انعزال عن الناس الذين هم أوطأ منه بما لا يقاس. لقد تقوقع وانكمش على نفسه وقضى نحبه في وحدة وعزلة مأساوية. ولم تكن لديه وسائل لمكافحة الوسط المعادي له.

أما بالنسبة لليرمونتوف فكان الشعر هو هذه الوسيلة وهذا السلاح. وعندما عَرَّى في روايته عيوب النظام القائم آنذاك ساعد على تطوير الفكر الاجتماعي التقدمي، وبذلك تكمن الأهمية التاريخية الرئيسية لرواية «بطل من هذا الزمان».

الهوامش

(1) الدكان في القفقاس هو المطعم.

(2) الفرست يزيد قليلاً عن الكيلومتر.

(3) هو ييرمولوف ـ جنرال روسي، كان قائداً عاماً في القفقاس (1772 ـ 1861).

(4) البوزا ـ نوع من المشروبات الروحية القفقاسية.

(5) آلة موسيقية روسية وترية.

(6) أبريك ـ باللغة الأوسيتية يعني قاطع الطرق، وقد أصبح الناس يطلقون هذا الاسم على سكان الجبال إبان الحرب القفقاسية، أولئك الذين كانوا يقاومون الجيش الروسي.

(7) حصان جميل، جميل جداً.

(8) القوزاق ـ قبل ثورة أكتوبر، فئة عسكرية كانت في خدمة الحكومة القيصرية.

(9) روسي حقير، حقير!

(10) الصليبية ـ ملاحظة المترجم.

(11) «قاطع الطرق ـ البلبل» ـ في الأساطير الروسية كائن خرافي رهيب روع الركاب المارة بصفيره الحاد.

(12) إحدى القبائل الجبلية.

(13) عريف عشرة من القوزاق.

(14) الناصف هو الجندي التابع لضابط.

(15) ساجين ـ وحدة لقياس الطول تساوي 2,13 متر.

(16) بيت من قصيدة بوشكين «السحابة».

(17) يشير الكاتب إلى الضباط سليلي الطبقة النبيلة، الذين جُرِّدوا من

رُتَبهم وأُرسلوا إلى القفقاس منفيين لأنهم شاركوا في انتفاضة الديسمبريين 1825. كان الجنود الروس يضعون على رؤوسهم في القفقاس قبعة بيضاء، وكان يشار إلى رقم فَوْجِهم على أزرار بدلتهم العسكرية.

(18) أشهب بلون اللؤلؤ.

(19) تسريحة على طريقة الفلاح الروسي.

(20) يا عزيزي، أنا أكره الناس كي لا أحتقرهم، وإلا أصبحت الحياة مسخرة تدفع إلى كثير من الاشمئزاز.

(21) يا عزيزي، أنا أحتقر النساء كي لا أحبهن، وإلا غدت الحياة ميلودراما تدفع إلى كثير من الضحك (بالفرنسية في الأصل).

(22) أنديميون ـ هو شاب في القصص اليونانية القديمة يرمز إلى الشباب والجمال الخالدَيْن.

(23) هو اسم الروح الشريرة في الحكايات الألمانية القديمة، وربما يقصد ليرمونتوف هنا شخصاً من مسرحية غوته «فاوست».

(24) الحمى المضنية.

(25) يا إلهي، شركسي!...

(26) لا تخافي يا آنستي، فلست أخطر من فارسك.

(27) إن هذا مضحك!...

(28) شكراً يا سيدي.

(29) لرقصة المازوركا.

(30) عظيم! رائع! (بالفرنسية في الأصل).

(31) بيتان من رواية بتشورين الشعرية «يفغيني أونيغين».

(32) قلبه وثروته (بالفرنسية في الأصل).

(33) انتهت الكوميديا!

(34) هو في الجيش الروسي القديم ضابط قوزاقي يعادل برتبته الرئيس في المشاة.



ميخائيل ليرمنتوف

(1841-1814)

ميخائيل ليرمنتوف هو ابن ضابط متقاعد في الامبراطورية الروسية وهو يتيم الأم قبل سن الثالثة فتولّت جدّته لأمّه أمور الاعتناء به وكانت سيّدة أرستقراطيّة ثريّة، فنال ميخائيل تربيةً جيّدة وتعليمًا عالي المستوى. تأثّر ميخائيل بموت الكاتب بوشكين وكتب قصيدةً كانت سببًا في إلقاء القبض عليه وإرساله إلى الحرب على الجبهة القوقازية. لم يعش ميخائيل ليرمنتوف طويلاً بعد ذلك، إذ مات في السابعة والعشرين من عمره خلال مبارزة مفتعلة جرّه إليها أحد العابثين.

ترك ليرمنتوف تراثًا أدبيًّا غزيرًا ومتنوّعًا يشكّل قمّة الأدب الروسي الرومنسي إلى حدٍّ كبير. يحتل الشعر حيّزًا كبيرًا من أعماله إضافةً إلى ما كتبه من المسرحيّات، والأعمال النثرية التي تتضمّن كتابه "بطل من هذا الزمان".

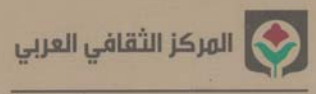


سامي الدروبي

* أديب وناقد ومترجم ودبلوماسي سوري.
* ولد عام ١٩٢١ بمدينة حمص (الجمهورية العربية السورية).
* درس في جامعات دمشق والقاهرة وباريس وحصل على الدكتوراه في علم النفس من جامعة القاهرةعام ١٩٦١.
* عمل مدرساًللفلسفة في حمص، ثم عميداً لكلية التربية بجامعة دمشق فأستاذاً للفلسفة، فوزيراً للمعارف، ثم سفيراً للجمهورية العربية السورية في يوغسلافيا، ومصر، وأسبانيا، ومندوباً لـ"سوريا" في جامعة الدول العربية.
* له عدة أبحاث نظرية ودراسات فلسفية نفسية حول علاقة علم النفس بالأدب والتعليم.
* ترجم الأعمال الكاملة لدوستويفسكي مؤلفات لليف تولستوي وبوشكين وليرمنتوف وتورجينيف وإيفو أندريتش وآخرين.
* توفي عام ١٩٧٦، ومنح جائزة "لوتس" بعد الممات (١٩٧٨).

ميخائيل ليرمنتوف هو رائد الأدب الرومنسي الروسي، وأوّل من كتب في الرواية البسيكولوجيّة في بلاده. ترك نتاجًا أدبيًا غزيرًا على الرغم من قصر حياته، وتأثّر بأدبه إلى حدٍّ كبير تولستوي ودوستويفسكي وبلوك وبعد ذلك باسترناك. وتعتبر رواية "بطل من هذا الزمان"، وهي الرواية الوحيدة التي أنهى كتابتها، تحفةً أدبيّة رائعة يفخر بها الأدب الروسي.

رواية "بطل من هذا الزمان" تتضمّن أربع قصص صغيرة بطلها بتشورين الذي يعاني من الاستياء الشديد من محيطه. يتعرّف القارئ إلى الجزء الخارجي من شخصيّة بتشورين عن طريق الوصف، وإلى الجزء الداخلي والنفسي من خلال ما يكتبه بطل القصّة في يوميّاته. تكمن أهميّة الكتاب في ما يتضمّنه من تحليل نفسي لبطل الرواية الذي يمثّل نموذجًا حقيقيًا للشباب الرومنسي المعذّب الذي يستيقظ على خيبات الأمل في ظلّ حكم الامبراطورية الروسية، إضافةً إلى ما يقدّمه من وصف للحياة اليوميّة للشعب الروسي في ذلك العصر. وإذا استعدنا بعض ما كتبه ليرمنتوف عن بطل روايته نقرأ: « لا يقدّم كتاب "بطل من هذا الزمان" وصفًا لشخصيّة بطل القصّة فحسب، بل تجسيد لكلّ ما يعاني منه شباب العصر من رذائل في أوج تفاعلاتها. »



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com


ISBN 978-9953-68-497-9
9 789953 684970

اللوحة وتصميم الغلاف: مروان قصّاب باشي